

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

تميز
الخطوط العربية
في تجريد الدين وتوضيح المسائل

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

تميز المخطوطات في دار ابن الجوزي

في تحريرها الدين وتوضيحها للرسلين

تأليف
العلامة الشيخ محمد صالح المنجد
الترقيم سنة (١٣٧٩هـ) ص ١٥٥

تمت تصحيحه وتصديقه
علي بن حسن بن علي بن محمد بن عبد الحميد
الحسيني الأثري

دار ابن الجوزي

حقوق الطبع محفوظة لدار ابن الجوزي

الطبعة الثانية

جمادى الأولى ١٤٢١هـ

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٢١هـ. لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية

الدمام - شارع ابن خلدون، ت: ٨٤٨١٤٦ - ٨٤٨١٤٧ - ٨٤٧٥٩٣ - ٨٤٧٥٩٤
صوب: ٢٩٨٣ - الميزان الدولي، ت: ٣١٤١١ - فاكس: ٨٤٢١٠٠
الإحصاء - الهواتف: فاكس الجامعة - ت: ٥٨٨٣١٣٢
جسدة : ت: ٦٥١٦٥٤٩
الرياض : ت: ٤٢٢٢٣٣٩

مقدمة التحقيق

إن الحمد لله؛ نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد:

فإن للقرآن العظيم وقفاً في نفوس التالين له، وتأثيراً عجباً في عقول المتدبرين لأوامره ونواهيه.

وقد أمرنا ربنا جل وعلا بتدبر آياته، وتأمل محتوياته، فقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١)، فكانت هذه الآية الكريمة زاجرة لكل من يقرأ بلا تدبر، وتلودون تأمل وتفكر، تفرغ الأسماع، وتهز الأفتدة والقلوب.

(١) محمد: ٢٤.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ»

[يوسف: ١٠٨]

ثم إن الآيات القرآنية قد تنوعت أساليبها، وتعددت طرائق خطابها، فمنها القصص، ومنها الأحكام، ومنها العقائد، وهكذا . . .

ومنها أيضاً الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، والخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ . . . وغير هذا وذلك.

وكل من هذين الخطابين: له وقع، وله غاية، وله تأثير.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فأوعيه سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»^(١).

ولقد جمّع مصنف هذا الكتاب رحمه الله تعالى كثيراً من الآيات التي فيها هذان النوعان من الخطاب؛ مقسماً إياها على قسمين؛ عاماً وخصوصاً^(٢).

وقد قال رحمه الله (ص ٨٩) بعد إيراد الآيات التي فيها الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: «فاعلم أن هذه الأربعين آية؛ كل واحدة منها موجهة من الله رب العالمين إلى كل فرد فرد من أفراد بني آدم، لا يخرج من هذه الخطابات الصريحة أحد منهم . . . فكلهم مخاطبون بهذه الخطابات، ومأمورون ومكلفون بهذه الأوامر . . .».

ثم قال (ص ٣١٨) بعد إيراد الآيات التي فيها الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: «فهذه مئة آية . . . قد خاطب الله تعالى بها عباده المؤمنين كلهم، وناداهم، وأمرهم، ونهاهم، وبشرهم، وأنذروهم، ووعدهم، ووعظهم، فقال:

(١) (الإقناع) (٣ / ١٠٠) للسيوطي.

(٢) وقد وصف ابن المصنف عبدالرحمن المصومي كتاب أبيه في خانة وعقد الجوهر الثمين (ص ٢٢٣) بأنه «لم تر عين الزمان مثاليه».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ولم يقل: يا أيها العلماء، أو: يا أيها العرب، أو: يا أيها السادات والأشراف، ولكن قد خاطب كل المؤمنين بـ (أنتم)، و(كم)، و(كنتم)، فإذا؛ كل المؤمنين سواء في التكليف، وكلهم مخاطبون بهذه الخطابات الإلهية، كما أن كل البشر مخاطبون بخطابات ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، و﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، فهذا قد توجه الخطاب إليهم، وكل واحد منهم أهل لفهم ذلك ما دام عاقلًا بالغًا، ولأنهم لو لم يكونوا أهلاً؛ لما خاطبهم الله تعالى، ولما كلفهم . . .».

هذه هي الخطة العامة للكتاب.

ولكن المصنف رحمه الله تعالى قد ضمن تفسيره لهذه الآيات الكريمة أنواعاً من العلوم الشرعية، والمسائل الدينية، وصوراً من التنبيهات الوعظية، والنواتج من النصائح الزجرية.

وقد ذكر المؤلف (ص ١٦٢) تأريخ تأليفه لهذا الكتاب، وهو سنة (١٣٦٦هـ)، عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهي مرحلة حرجة في التاريخ الحديث، أحدثت انشطاراً وانقساماً في العالم كله بعامة، وعالمنا الإسلامي بخاصة.

ولمشابهة المرحلة التي نعيشها اليوم - بعواصفها ومخنها وفتنها - صار هذا الكتاب كأنه مكتوب اليوم لأبناء القرن الخامس عشر الهجري، وما يعيشونه من عموم وأحزاني.

ولكي لا أطيل على الآخر القاري الانتظار؛ اختصر الكلام، وأقتصر المقام، حتى ينهل من التفسير السلفي النقي لكتاب الله تعالى، ويفيد - يُفيد -

رفيع
عبد الرحمن (التجدي)
(سنة النشر ١٩٦١هـ)

موجز ترجمة المصنف^(١)

من عادات العلماء أن يُترجموا لأنفسهم في بعض مؤلفاتهم؛ ذاكيرين
أحوالهم العلمية، وما يتصل بها^(٢).

وقد استن مؤلفنا رحمه الله تعالى بهؤلاء العلماء، فكتب ترجمة لنفسه في
عدو من كتبه؛ منها «حكم الله الواحد الصمد...» (٤٧ - ٩٦)، وهي ترجمة
مطلوئة، وكذا في مقدمة «حبل الشرع المتين» (١٤ - ١٦)، وهي مختصرة،
ومنها أنقل - بالتأمام - ترجمته بقلبه.

قال رحمه الله: «إن العبد الفقير، وإن لم أكن مستحقاً للذكر^(٣)، ولكن

(١) وقد أشار المصنف رحمه الله في كتابه هذا إلى أن هذا من مهمات مجريات حياته؛
كما في (ص ٢٣٨) عند ذكر هجرته، وفي (ص ١٦٢) عند ذكر الفن التي ابتلي بها،
وغیرهما.

تنبيه: وقد ترجمت للمصنف بنوع من التفصيل في مقدمتي على رسالته ومفتاح الجنة
لا إله إلا الله (ص ٣ - ٦)، فلتراجع.

(٢) ولاخينا الفاضل الشيخ بكر أبو زيد رسالة لطيفة جمع فيها أسماء «الذين ترجموا
لأنفسهم من العلماء»، وهي مطبوعة.

(٣) هذا من تواضع العلماء، ومضيقهم أنفسهم.

من التوجيهات العلمية، والتنبيهات العملية التي نثرها المؤلف رحمه الله عبر
طيات كتابه؛ سائلاً المولى عز وجل أن يجعل لهذه الأمة من أمرها فرجاً، وأن
يسر لها من فتنها مخرجاً؛ إنه سميع مجيب.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

أبو الحارث الحلبي الأثري

عفا الله عنه بمتة

١٩ شعبان ١٤١١هـ

الزرقاء - الأردن

•••••

تأسيًا بالأسلاف الكرام ؛ أذكرُ هنا نبذةً من ترجمةٍ حالي للتذكرة؛ ليذكرني من يأتي بعدي بالخير، فأقول:

أنا الفقيرُ الحقيرُ^(١) أبو عبد الله الكريم محمد سلطان، كُتِبَ به نفسي بعدما وُلِدَ ابني الأعزُّ الأرشدُ أبو البركات عبد الكريم عام ١٣١٨ هـ، ثم كُنَّيْتُ أستاذي وشيخي شيخ الإسلام ببلد الله الحرام الشيخ صالح كمال المكِّي المُفتي وقت مُجاورتي بمكة بأبي الأنوار سلمه الله الكريم الغفار.

واسمُ والدي أبو عبد الله محمد أورو بن مُلأ مير سعيد ابن مُلأ عبد الرحيم بن عبد الله بن عبد الصمد بن عبد اللطيف بن معصوم الخجندِي الحنفي السلفي، المنسوبُ إلى جدِّه الأعلى محمد معصوم المَعصومي، عالمهم الله تعالى بلطفه الخفي وفضله الجلي.

إني وُلِدْتُ في حُجَنْدَة في العشر الأوسط من شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعين ومِئتين وألف، فرباني والداي الكريمان إلى أن علماني الخطَ وقراءة الكتب الفارسية والتركية والقرآن الكريم.

ثم قرأتُ على بعض فضلاء البلد كملأ صابر ومُلا عبد الله «الصُرف والنحو للزنجاني»، و«عوامل الجرجاني»، و«كافية ابن الحاجب»، وبعض الفقه والمنطق؛ كـ «مختصر الوقاية»، و«الإيساغوجي»، و«الشمسية».

ثم سافرتُ إلى خُوقند، ثم إلى بُخارى، وأقمتُ فيها سبع سنين، فأخذتُ عن علمائها الأعلام؛ كمحمد عوض الخجندِي، وعبد الرزاق المرغيناني، وقرأتُ لديهم: الفقه، وأصوله، والمنطق، والحكمة، وبعض (١) وهذا - كتابه - من تواضع العلماء، وعضيهم أنفسهم.

التفسير، والأحاديث، وغيرها ممَّا تعارفَ هناك، فاستجزئتهم، فأجازوني مع كُتُبِ سَنَدِ الإجازة.

ثم أُشْرِبَ في قلبي محبةَ زيارة الحرمين الشريفين، فعزمتُ متوكِّلاً على الله عز وجل في يوم الاثنين السابع والعشرين من شوال سنة ثلاث وعشرين وثلاث مئة وألف، فتشرفتُ ببلد الله الأمين يوم التروية، فبعد الوقفة في الموقف الشريف غرقتُ، أقمتُ فيها إلى ما شاء الله تعالى، فأخذتُ عن علمائها الأعلام والواردين عليها من الأفاضل الكرام؛ كالشيخ شُعَيْب الدُّكَّالِي المغربي، والشيخ حسيب الله، والشيخ محمد سعيد بانصیل، والشيخ عبد الحي المكناسي، وغيرهم.

ثم بعد عامين سافرتُ إلى المدينة النبوية^(٢)، فأقمتُ فيها مدةً، فأخذتُ عن علمائها أيضاً؛ كالسيد أحمد البرزنجي، والشيخ عبد الله النابلسي القُدومي، والشيخ خليل الخربوطي، وغيرهم.

ثم سافرتُ إلى الشام عن طريق خيبر والملا، وكان الخط الحديدي وصل إلى محطة الأخضر، فركبنا القطار (شمندن)، فوصلنا تيوك، ثم مُعان، ثم الزرقاء، ثم دمشق الشام، فنزلتُ في مدرسة دار الحديث الشرفية، وكان المدرس فيها الشيخ بدر الدين يوسف، والشيخ عبد الحكيم القندهاري، فأخذتُ عنهما علوماً جمَّة، وكذا عن السيد أبي الخير ابن عابدين، والسيد عارف المثير، وغيرهم.

ثم قُيِّمَتْ بيت المقدس عن طريق بيروت، وأخذتُ عن الشيخ

(١) وفي مدينة النبي ﷺ.

يوسف النبهاني^(١) والشيخ عبدالرحمن الدرويش الحوت.

وقدمت مصر القاهرة، ونزلت الجامع الأزهر، وأقيمت في الرواق السليماني منها، ثم قدمت الإسكندرية، ثم إستانبول عن طريق اليونان وبيرة وأطنة، وأخذت في كلها عمّن كان موجوداً من العلماء المشهورين، فكلهم أجازوا لي بإجازاتٍ متعدّدة وإرشاداتٍ متوافرة.

وبالجملة؛ إني قد أخذت عن مئة شيخ تقريباً.

ثم رجعت إلى وطني حجة، وتشرّفت بزيارة الوالدين الكريمين؛ نفّعتي الله تعالى بهما في الدارين، وجعل الفردوس الأعلى مثواهما آمين، فهما بنيا مدرسة جميلة ذات عُرفاتٍ، فاشتغلت بالتدريس والتأليف والتعليم خالصاً لله عز وجل.

هذه خلاصة الترجمة وإجمال الحال، والتفصيل يُطلب من رحلتي «اللائي» الغالية في السفر والرحلة الحجازية» وفيها «الفوائد الربّية في ذيل الرحلة الحجازية» اهـ.

قلت: هذه بطولها ترجمة المؤلف رحمه الله بقلمه^(٢).

(١) وهو من أكابر مبتدعة القرن المنصرم؛ كما بيّته في مقدمتي على «التعريف بأداب التأليف» للسيوطي.

وتلمذ المؤلف عليه لم تمنّعه - رحمه الله - من كشف حاله، والتحذير منه، حيث حذر في كتابنا هذا - «تميز المحظوظين» - (ص ٢٥٣) من كتابه «صلوات الشاء»؛ واصفاً إياه بأنه «من البدع المنكرة»؛ وأن فيه «المنكرات، بل الأكاذيب والكفرات»!

قلت: هكذا فلتكن الصراحة في الحق، وعدم المذاهنة والمواربة فيه.

(٢) وقد فانت هذه الترجمة الأخ الشيخ بكر أبو زيد في كتابه الذي سبق الإشارة إليه، فلتستدرك عليه.

ومما رأيت لزوم ذكره في هذا المقام ممّا له صلة مرتبطة بالترجمة من جهة وكتاب «تميز المحظوظين»... من جهة أخرى: ما قاله ابن المؤلف عبدالرحمن المعصومي في خاتمة كتاب أبيه «عقد الجواهر الثمين» (ص ٢٣١) نقلاً عن أمه، فيما يتعلق بالإشاعات التي أشاعها حسّاده والحاقدون عليه من أهل البدع والخرافين؛ مصبرةً إياه، حاتّة له على الثبات، وقالت:

«... وكما أشاعوا في عام ١٣٧١ هـ حينما كنت في الرياض في واقعة فتنة المُفسرين في شأن كتابك «تميز المحظوظين» عن المحرومين» أن الملك عبدالعزيز رحمه الله غضب عليه وحسبه وقتله، والحال أنك مكرّم في دار ضيافته، وأنت منصوب على أعدائك أعداء الله المبتدعين المفسدين، فرجعت سالماً وغانماً منصوراً، ورؤساء أعدائك هلكوا خسداً وكمداء.

قلت: فالحذر الحذر من كيد أهل الأهواء وأصحاب البدع.

وهذا يدل على أن لكتاب «تميز المحظوظين» موقعاً عظيماً وأثراً جليلاً، جعل المبتدعة والخرافين يلجؤون - كسائر ضعاف النفوس والعقول - إلى الإشاعات واتهام الأبرياء من الناس بالباطل من القول!

مؤلفاته

أحصى عبدالرحمن المعصومي في خاتمة «عقد الجواهر الثمين» (٢٢٠ - ٢٢٨) عدد مؤلفات أبيه، وأسماءها، فبلغت أربعة وتسعين كتاباً^(٣)، ولولا خشية

(١) من المطبوع والمخطوط والمفقود.

الإطالة لسردتها بالتفصيل .

ولقد سرّدت مصنفنا رحمه الله في كتابه هذا أسماء عددٍ من مؤلفاته المشهورة:

ذكر (ص ١٦٥ - ١٦٦):

١ - «حكم الله الواحد الأحد في حكم الطالب من الميت المّدد» .

٢ - «أوضح البرهان في تفسير أم القرآن»^(١) .

٣ - «مفتاح الجنة لا إله إلا الله» .

٤ - «البرهان الساطع على تبرؤ المتنوع من التابع»^(٢) .

٥ - «العقود الذرية السلطانية فيما ينسب إلى الأيام النيروزية»^(٣) .

٦ - «تحفة الأبرار في فضائل سيّد الاستغفاره»^(٤) .

وذكر (ص ٣٥٤) كتابه الشهير:

٧ - «هدية السلطان إلى مسلمي بلاد جابان»، وهو الذي طبع واشتهر باسم «هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين؟» .

(١) وذكر أنه مطبوع في مكة .

(٢) وتكرر ذكره ناضحاً به في (ص ١٤٩)، وذكر (ص ٣٦٠) أنه مطبوع في مصر .

(٣) وذكر أنه مطبوع في مصر .

(٤) وذكر أنه مطبوع في الصين، وقال في (ص ٣١٧) أنّ طبعه كان في سنة ١٣٥٠ هـ .

ونظر (ص ٥٥ - ٥٦) من كتابنا هذا؛ ففيه ذكر شيء أيضاً عن مؤلفاته .

ومن عجب إنكار بعض المقلّدين - كالبوطي - لهذا الكتاب، بل لشخصيّة مؤلفه!

قلتُ: ولعلّي في مقام آخر - إن شاء الله - أطوّل في ترجمة المعصوميّ، وذكر آثاره، والتّنبّه على آثاره .

●●●●●

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

تَمْيِيزُ الْمَحْظُوظِينَ عَنِ الْمَحْرُومِينَ

[في تجريد الدين وتوحيد المرسلين]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أَوْجَدَنَا مِنَ الْعَدَمِ ، وَجَعَلَنَا أَهْلًا لِفَهْمِ خُطَابِهِ وَكَلَامِهِ ،
فَنَحْنُ الْمُخَاطَبُونَ بِخُطَابِهِ خُطَابًا عُمُومِيًّا وَخُصُوصِيًّا :

فَالْعُمُومِيُّ شَامِلٌ لِكُلِّ بَنِي آدَمَ مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ ، مَا دَامَ عَاقِلًا بِالْغَا ، وَلَا
يَخْرُجُ مِنْهُ إِلَّا الصَّبِيَّانَ وَالْمَجَانِنَ .

وَأَمَّا الْخُصُوصِيُّ ؛ فَمُخْتَصٌّ بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَشَرَّفُوا بِشَرَفِ الْإِيمَانِ ،
وَصَارُوا مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ سَيِّدِ الْإِنْسِ وَالْجَانِّ ﷺ ، وَخَارِجٍ مِنْهُ غَيْرُ
الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْكُفَارِ ؛ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ وَالْمُشْرِكِينَ
وَالدَّهْرِيِّينَ الْأَشْرَارِ .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَهَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ ، الْفَقِيرُ إِلَيْهِ جُلٌّ وَعَلَا ، أَبُو عَبْدِ الْكَرِيمِ وَأَبُو
عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، مُحَمَّدُ سُلْطَانِ الْمَعْصُومِيِّ الْخُجَنْدِيِّ ثُمَّ الْمَكِّيِّ ؛ إِنِّي حِينَئِذَا كُنْتُ
فِي الطَّائِفِ مُتَصِفِيًّا عَامَ ١٣٦٥ هـ كُنْتُ أَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ الْقُرْآنَ مُتَذَكِّرًا مَعَانِيَهُ ، إِذْ
تَبَيَّنَ لِي قُصُورُ بَنِي آدَمَ بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ بِمَعَانِيِ كَلَامِ رَبِّهِمْ ، فَلِهَذَا ضَلُّوا وَأَضَلُّوا
كَثِيرًا .

ولا شك أن سبب الضلال عدم فهم كلام رب العالمين الذي أنزله الله تعالى لإهداية جميع العالمين، والحال أنهم مخاطبون ومكلفون بفهمه وتدبره والعمل والأعطاء به.

فها أنا أذكر هنا أولاً الخطابات الإلهية العمومية الموجهة إلى عموم البشر وكافة بني آدم عرباً أو عجماً، فهم كلهم مكلفون بفهم هذا الخطاب، وامتنال هذا الأمر، والرب العالم الحكيم ناداهم أمراً بإيمانهم بالتقوى والتوحيد، وأن لا يعبدوا إلا إياه.

فيجب على كل إنسان عاقل بالغ تعلّم القرآن وفهم معناه والعمل بمقتضاه، ولا يُعذّر أحد في ترك ذلك، سواء كان عربياً أو عجمياً أو فارسياً أو تركياً أو رومياً أو هندياً أو جايواً^(١)، أو حبشياً أو صينياً أو جابانياً أو أمريكياً، لأنه يلزم حبشيد إهمال خطاب الله رب العالمين وأمره، أو نسبة الجهل إلى الله الرب الحكيم، حيث خاطب وتادى وأمر من لا يستأهل الخطاب ولا يفهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وعلى هذا أوجب الشارع طلب العلم^(٢)، على كل مكلف كما هو مقرر في

(١) جافا: الجزيرة الأكثر سكاناً في إندونيسيا، وفيها عاصمتها.

(٢) كما في قوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وهو حديث حسن بجميع طرقه الكثيرة.

ولإمام السيوطي رحمه الله جزء مفرد في تخريجه، طبع بتحقيقي منذ نحو ثلاث سنوات، وانظر ما سيأتي (ص ٣٢٥ - ٣٢٦).

عامّة الكتب الإسلامية الدينية، وما لا يتم الواجب إلا به؛ فهو واجب^(٣). فتعلّم القرآن وفهم معناه واجب على كل إنسان، خصوصاً المسلمون، فإنهم هم المخاطبون بخطابات خاصة لهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»، فتدبر.

وما شاع وذاع فيما بين متأخري أدعياء العلم من المسلمين من أن فهم القرآن والعمل به مختص بأهل الاجتهاد، وهم قد انقرضوا منذ عهد بعيد؛ فمن أبطل الباطل وأفسد الفاسد، إنما دس هذه العقيدة الفاسدة أعداء الإسلام؛ لإبعاد المسلمين عن معرفة كلام ربهم، فصاروا بذلك محرومين من فهم كلام ربهم العليم الحكيم، وقد صرفوا كل أعمارهم في دراسة الفلسفة، وجمّة الهند واليونان، ومباحث الإشرافيين والمشائين^(٤)، وأفكار ابن سينا^(٥).

(١) انظر فوائد مهمة متعلّقة بهذه القاعدة الفقهيّة في كتابي «الدعوة إلى الله بين التجمع والحزب والتعاون الشرعي» (ص ١١٨ و ١١٩)، نشر المكتبة الإسلامية عمان.

(٢) الإشرافيون: هم أصحاب المকাশفة (١). والمشائون: هم أصحاب البحث والقياس العقلي، وسوا بذلك لأن زعيمهم وسيد طريقتهم - وهو أرسطو - كان يعلم تلاميذه وهو يمشي معهم (١).

وانظر: «رسائل الإصلاح» (١ / ١٩١) للعلامة محمد الخضر حسين.

(٣) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٧ / ٥٣٥): «... وهو رأس الفلاسفة الإسلامية، لم يأت بعد الفارابي مثله، فالحمد لله على الإسلام والسنة، وله كتاب والشفاء وغيره، وأشباه لا تحصى، وقد كثر الغزالي في كتاب «المنقذ من الضلال» وكثر الفارابي».

وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في ابن سينا ضمن كتابه «دره ناعرض العقل والنقل» (١ / ٨ - ١٠).

توفي سنة ثمان وعشرين وأربع مئة.

والفسارابي^(١)، ودراسة «ديوان» المتنبي^(٢) وابن الفارض^(٣)، وأهل بخارى بـ «ديوان» ميرزا عبدالقادر البیدل^(٤) الذي يقول بأن أصل الإنسان القرد^(٥)، ورباعيات الخيام^(٦) الرندي، أو بالصفوف والنحو والبيان^(٧)، ولكن لم يصلوا إلى المقصد الأصلي من فهم كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ والعمل بهما، فبذلك ضيعوا أعمارهم، وأفسدوا أعمالهم، وأبطلوا عقائدهم، فصاروا من المحرومين من السعادتين: سعادة الإيمان الصحيح في الدين، وسعادة الدنيا من الخلافة الإسلامية فيما بين العالمين، وإن ادعوا واعتزوا بأنهم مسلمون

(١) قال الذهبي في السير (١٥ / ٤١٧): «له تصانيف مشهورة، من ابغى الهدى منها؛ ضلّ وجاز، منها تخرج ابن سينا، نسال الله التوفيق».

توفي سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة.

(٢) هو أحمد بن الحسين الكوفي، توفي سنة أربع وخمسين وثلاث مئة.

قال التنوخي: «خرج المتنبي إلى بني كلب، وأقام فيهم، وزعم أنه علوي، ثم تنبأ [أي: ادعى النبوة] فافضح، وحبس دهرًا، وأشرف على القتل، ثم تاب».

نقله الذهبي في السير (١٦ / ٢٠٠).

وديوانه مشهور، فيه شعر فائق.

(٣) هو من كبار مشترفي الصوفية، انظر نبذة عنه في تعليلي على «الفارق بين المصنف والسارق» (ص ٦١) للسيوطي، نشر دار الهجرة، الدمام.

(٤) من شعراء العجم المتأخرين، وإنما ذكره المصنف لأنه بلديّ.

(٥) كما هي نظرية دارون البائدة الباردة!!

(٦) قال الزركلي في «الأعلام» (٥ / ٣٨): «وقدح أهل زمانه في عقيدته».

وتوفي سنة خمس عشرة وخميس مئة.

وقد ألف بعض المعاصرين رسالة سماها «عمر الخيام بين الكفر والإيمان»، فلتنظر.

(٧) مُضَيِّحِينَ زهرة أعمارهم في تنبُّع فروعه ودفائقه. وقد أشار إلى هذا إشارة حسنة الحافظ ابن رجب الحنبلي في «فضل علم السلف» (ص ٢٤ - بتحقيقي)، فلتنظر.

وعلماء وسادات ومشايخ، بل أقطاب وأوتاد وأبدال ونجباء^(١)، كما هو غير خفي على أولي الألباب.

والمحظوظون إنما كانوا المسلمين الأولين من الصحابة والتابعين وتابعيهم، الذين اتفقوا سنة رسول الله ﷺ، فقالوا رضي الله، حتى رضي الله عنهم ورضوا عنه، فقالوا خلافة الله^(٢) في الأرض، ورفعوا علم الإسلام في شرق الأرض وغربها، مع ما نالوا من الأجر والغنيمة، فهم المحظوظون من الإيمان والإسلام بالخط الأوفى.

وأما المتأخرون؛ الذين فرقوا بينهم، وكانوا شيعًا، وصاروا مذاهب وفرقًا، واكتفوا بأراء الرجال، واعتمدوا عليها، واتخذوها أندادًا من دُون الله، فبذلك صاروا محرومين من فهم أوامر ربهم، وتباعدها عن الحق بعد المشركين، وقد صاروا محرومين من خلافة الأرض كما صاروا محرومين من فهم كلام ربهم ودراسيته، بل صار أكثرهم محرومًا من الإيمان الصحيح وتوحيد الله رب العالمين وربوبية وإلهية وأسماء وصفات، وبدلوا ذلك بالشرك والإلحاد، وعبادة الأرواح والقبور والأجساد، فتنبه وتدبر هذاك الله عز وجل.

وإني أذكر هنا أولًا الخطابات والأوامر الإلهية القرآنية الموجهة إلى عامة بني البشر؛ ليظهر لطالب الحق الصواب من الخطأ، والحق من الباطل،

(١) وهذه هي القاب الصوفية ودرجاتهم، وكلها مبتدعة لا أصل لها.

(٢) وهذا اللفظ ليس دقيقًا؛ فإن لفظ «الخلافة» يستلزم غياب المخلف.

يُنظر تفصيل هذا الإجمال في «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٢ / ٤٦١)، و«السلسلة

الضعيفة» (١ / ١٢٠)، و«معجم المناهي اللفظية» (ص ١٥٦).

فيرجعوا إلى أصل دينهم، فيبالوا رضى ربهم في الدارين.

ولَقَبْتُ ما نويتُ جَمْعَهُ : «نمِيزَ الْمُحْظَوِّينَ عَنِ الْمُحْرَمِينَ».

فَأَسْأَلُ اللهَ تعالى الكريمَ الوهابَ أَنْ يُوقِنَنِي للعملَ به، ويجعلهُ خالصاً لوجههِ الكريمِ، وأنْ يَنْفَعَ بِهِ العبادَ في عامَّةِ البلادِ، فهوَ خَشي ونعمَ الوكيلُ.

●●●●●

رفيع
عبد الرحمن السجدي
أسكنه الله الفردوس

فصل الآيات والخطابات القرآنية الموجهة إلى عامة البشر

الآية الأولى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١)

اعلم أن الله تعالى رب العالمين نادى وخاطبَ عامَّةَ النَّاسِ عربهم وعجمهم كلهم، وأمرهم أن يعبدوا ربهم الذي خلقهم وخلقَ جميعَ مَنْ قبلهم من الأنبياء والأولياء، فخالقُ الكلِّ واحدٌ لا شريكَ له، وكلُّ الناسِ من أولهم إلى آخرهم؛ صالِحهم وطالحهم، مؤمنهم وكافرهم؛ مخلوقون مربوبون، ومحتاجون إلى الله خالقهم ورازقهم في حياتهم وموتهم أبداً.

فإن كان هكذا؛ فلا معبودَ إلا الله^(٢)؛ كما أنه لا خالقَ إلا الله، ولا رازقَ إلا الله، ولا مُصرفَ في الكونِ حقيقةً إلا الله عزَّ وجلَّ وحده.

(١) البقرة: ٢١ - ٢٢.

(٢) الأدقُّ أن يُقال: لا معبودَ بحقٍّ إلا الله؛ إذ المعبودات الباطلة كثيرة! ثم رأيتُ تصحيحها في قائمة التصحيحات (ص ٢٦٩) من الطبعة الأولى.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، ولا تظنوا - فضلاً عن أن تعتقدوا - أن الملائكة تُربكم أو تضركم أو تنفكم، أو أن الأنبياء أو الأولياء أو أرواحهم يربونكم أو يفعونكم أو يضرونكم أو يشفعون لكم يوم القيامة بأنفسهم بدون إذن الله وأمره.

فإن كان الأمر هكذا؛ فلا تحبوا إلا الله، ولا ترجوا إلا الله، ولا تخافوا إلا الله، ولا تدعوا إلا الله، ولا تطلبوا إلا من الله، ولا تنذروا إلا لله؛ لأن الله ربكم الذي خلقكم بأمره حي لا يموت أبداً، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد؛ يجب الدعوات، وتقضي الحاجات، ويرزق من يشاء بغير حساب.

فالناس كلهم مخاطبون بهذه الآية وما شابهها، فأمرهم الله تعالى جميعاً بأن يعبدوه وحده، ويؤمنوا بأنه الإله الحق والمعبود الحق وحده، فمن لم يعبد الله وحده ولم يؤمن بأنه المعبود الحق وحده؛ فهو كافر بالله العظيم، يستحق عذاب جهنم وبئس المصير.

فحيث خاطبهم الله تعالى وناداهم مسئياً إليهم ناساً، فكل البشر ناس - سواء كان عرباً أو عجماً؛ فارسياً تركياً هنديةً رومياً صينياً حبشياً روسياً جابانياً أمريكياً -، يجب على كل واحد منهم أن يعرف هذا الخطاب؛ لأنهم أهل لمعرفة ذلك، ولولم يكونوا أهلًا؛ لما خاطبهم الله تعالى أصلاً، فمن لم يعرف هذا الخطاب؛ فقد ضيع أهليته، أو خرج عن دائرة الإنسانية، وأدخل نفسه في حظيرة الحيوانية، وليس بداخل في تلك الحظيرة أصلاً، فمثل هذا يتمنى يوم القيامة أن يكون تراباً كالحيوانات^(١)، وليس بصائر.

(١) وفي ذلك عدة آثار موقوفة ومقطوعة، انظرها في «الدر المنثور» (٨ / ٤٠١ - ٤٠٢)، وليس في المرفوع شيء منه.

والإنسان له أهلية للتعليم والتعليم، فلماذا جعله الله تعالى أهلاً للخلافة في الأرض، وسخر له ما في السموات وما في الأرض، فلماذا ترى سلمان الفارسي وبلال الحبشي وصهيب الرومي وأمثالهم من الأعجام رضي الله عنهم قد نالوا الدرجة العليا بالإيمان بالله ورسوله، ومعرفة الحقيقة بمعرفة كلام ربهم وكلام رسول الله ﷺ.

وكذلك الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ومسلم بن الحجاج النيسابوري، وأبو عبد الرحمن النسائي، وأبو داود السجستاني، وأبو عيسى الترمذي^(٢)، والإمام أبو حنيفة النعمان، وغيرهم؛ كلهم من الأعجام^(٣)، رحمهم الله تعالى ورضي عنهم، تعلموا العربية، واشتغلوا بعلوم القرآن والحديث، فبلغوا الذروة العليا من الكمال.

فالإنسان من حيث إنه إنسان أهل لذلك بلا ريب، ولكنه هو الذي ضيع أهليته، وصرفها في السفاسف والترهات.

ألا ترى الذين اشتغلوا طول عمرهم بدراسة كتب الصرف والنحو والبيان، وفلسفة الهند واليونان، أو بدواوين الشعراء والألغاز والمعميات، ودققوا تدقيقاً، وألفوا وأبدعوا إبداعاً، ولكن خرجوا عن الحق خروجا، فضلوا وأضلوا كثيراً.

لماذا؟ لأنهم لم يصفروا تلك الأهلية لمعرفة كلام الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل تقلسوا وتأولوا وتجاوزوا، فحرفوا تحريفاً، وبدلوا تبديلاً، وغيروا المعرفة،

(١) وجميعهم من أئمة الحديث وحفاظ الآثار.
(٢) ليسوا جميعاً كذلك، فمنهم من نُسب إلى بلدة أعجمية؛ لنزوله فيها، لا لكونه أعجمياً، بل هو عربي أصيل.

تغييراً؛ مسعين إياه تأويلاً!!

والله العظيم؛ إنهم لو استعملوا تلك الأملية في معرفة خطابات ربهم؛ لعرفوا الله تعالى حق المعرفة، فعبده وحده لا شريك له، ولعرفوا حقائق الأشياء كما هي، وسخروا العالم حسب سنة الله تعالى في خلقه كما لا يخفى، فليس للإنسان إلا ما سقى.

فهذا هودين العدالة ودين المساواة ودين الحرية كما أنه دين التوحيد؛ لأن كل إنسان يعامل بني جنسه بالعدل، ويعدّه كنفسه؛ لأنه إنسان مثله، فيحب له ما يحب لنفسه، ولا يظلمه ولا يخذله ولا يخذعه، «وكونوا عباد الله إخواناً»^(١) يكون شعاره، ويعتقد كل واحد منهم أنه عبد لله مهما بلغ من الكمال:

فالملائكة عبيد لله ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٢).

والأنبياء والرسل عبيد لله، يطيعون إلى الناس أوامر ربهم.

وكذا الأولياء والصدّيقون عبيد لله؛ يعملون بأمر ربهم ما استطاعوا.

فالكل في عبودية الله تعالى سواء، وإنما الفرق في تقوى الله وامثال الأمر، فهم عباد مطيعون لربهم، وأما الكفار والفجار؛ فعصاة مخالفون لأمر ربهم.

فحيث إنهم في العبودية سواء، فلا يعبد أحد أحداً، ولا يعتقد أحد في

(١) رواه: البخاري (١٠ / ٤٠٣)، ومسلم (٢٥٠٩)؛ عن أنس بن مالك، وأوله: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تباغضوا...».

(٢) التحريم: ٦.

أحد - سواء كان حياً أو ميتاً - أنه يحبه أو يكرهه أو يهديه أو يذبله الجنة أو ينجي من النار أو يعطيه الولد أو نحو ذلك؛ فهذا هو المساواة؛ مساواة المخلوق مع المخلوق في العبودية لله تعالى، وهذا هو الحرية؛ يكون الإنسان حراً في عقيدته، وحرّاً في إنسانيته وأعماله، ولا يكون مقيداً وعبدّاً في عقيدته وأعماله لعبده مثله، بل إنما يكون عبداً لله الذي خلقه، فلا يعبد إلا إياه، ولا يخضع إلا له، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ؛ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْكَرُوبِيِّينَ»^(١) والأنبياء والجن، فلا تعبدوهم؛ لأنهم مخلوقون مثلكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عَنِ الْإِسْرَافِ رَبِّكُمْ، وتجتنبون عبادة مخلوق مثلكم، فإذا اتقيتم عن ذلك؛ وقاكم الله تعالى عن الشرك والكفر، وقاكم عذاب النار يوم القرار، ونجاكم من الدّلة تحت سيطرة الأشرار.

فيا أيها الناس! لا تجعلوا لله أنداداً تحبونهم كحب الله، أو تعتقدون أنهم ينفعونكم أو يضرّونكم، فتتدّرون لهم ولشاهديهم ومراقبيهم، وتستغيثون بهم، والحال أنكم أنتم بأنفسكم تعلمون يقيناً أنهم مخلوقون مثلكم، لا يقديرون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، وهم - ولو كانوا قد بلغوا أعلى الدرجات - قد ماتوا وتحوّلوا من الحياة الدنيا إلى عالم البرزخ، ومنه سيحوّلون إلى عالم الآخرة (١) وفيهم حديث ضعيف جداً: خرّجه شيخنا الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٩٢٣)، فراجع.

وانما ذكرهم المصنّف - والله أعلم - لكونهم يذكرون عند مشايخ بلده وعلمه الناس عنده!

دار الجزاء، ففريق في الجنة وفريق في السعير.

فانظر يا أيها الإنسان إلى هذه الخطابات الربانية، قد ناداك وخاطبك، فأمرك ونهاك، وأرشدك إلى ما فيه خلاصك وسعادتك في دنياك ودينك، وأعطى لك العقل، وجعلك مخاطباً ومكلفاً به، وميزك عن سائر الحيوانات بهذا العقل والخطاب والتكليف، فإذا لم تُصغِ إلى كلام ربك ولم تفهم خطاب مولاك؛ فأنت أجهل الجاهلين، وأخسر الخاسرين، ولا ينفعك ما تعلمت وفزست من فلسفتك وأشعارك والغازك ومُعَمَّياتك، ولا سلطنتك وأموالك.

والله العظيم؛ لو تعلمت كل يوم كلمة كلمة من كلام ربك؛ لكان ما تتعلمه في الشهر ثلاثين كلمة، وفي السنة ثلاث مئة وستين كلمة.

فإذا علمت مثلاً معنى فاتحة الكتاب وفهمته فهماً صحيحاً؛ كنت مؤمناً موحداً خالصاً، وتخلصت من داء الشرك والضلال، وصيرت من الفالحين.

وهل يظن أحد أن خطاب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ خاص بالعرب، أو أنه خاص بالمجاهدين والعلماء؟! ولا يظن هذا إلا مجنون، أو جهلته المتسبب إلى العلم من الأحناف ومن شاكلهم، فالخطاب عام شامل لكل البشر؛ كما أن وجوب الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ وكذا عبادته تعالى عام شامل لكل البشر، فمن آمن بالله ورسوله، وعلم خطابه؛ فقد فاز فوزاً عظيماً، وأما من جهل ذلك؛ فقد خسر خسراً ميبئاً.

فأية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ مسوقة لإثبات التوحيد، وتحقيق نبوة محمد رسول الله ﷺ، اللذين هما أصل الإيمان.

والنداء عام لكل البشر، يشمل المؤمنين والكافرين والمنافقين والمشاركة

والمغاربة.

ف ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾؛ يقول للكفار والمشركين: وحدوا ربكم، ويقول للعاصين: أطيعوا ربكم، ويقول للمنافقين: أخلصوا بالتوحيد معرفة ربكم، ويقول للمطيعين المؤمنين: اثبتوا على الإيمان وطاعة ربكم.

واللفظ مُحْتَمِلٌ لهذه الوجوه كلها، وهو من جوامع الكلم، فالأولون والآخرين مخاطبون بالأمر بالتقوى، فحيث إن الناس كلهم مخاطبون؛ يجب عليهم وجوباً عينياً فهم هذا الخطاب، فمن لم يطلب فهم الخطاب؛ فقد أخرج نفسه عن صفته الإنسانية، وصار كالحيوان في صورة إنسان، فهو لا هم الخاسرون.

وتأمل أيها الإنسان سورة العصر؛ فإنها تكفيك في كل شؤونك، وترشدك إلى نجاتك وسعادتك، وتبين لك حالك أنك من الفالحين أو من الخاسرين.

فعليك بهذا الميزان الإلهي، فزن به في كل آن نفسك، وعليك بالفهم والتفهم، والله يتولى هداك.

الآية الثانية في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ خَلالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . إِنَّمَا نَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(١).

لا شك أن هذا الخطاب الإلهي ونداء عام شامل لكافة البشر شرقاً

(١) البقرة: ١٦٨ - ١٧٠

وغرباً، ولا تختص به طائفة دون طائفة؛ فضلاً عن العرب خاصة؛ كما يزعم بعض الناس، فكل الناس خلق الله الأرض كلها؛ شرقها وغربها، وسهلها وجبالها، فكل بني البشر مخاطبون به؛ سواء كانوا عرباً أو عجماء؛ لأنهم يأكلون مما في الأرض من الأرزاق، فأمرهم أن يأكلوا من الحلال الطيب.

ولا شك أن كل ما خرج من الأرض من الأرزاق فهو حلال طيب، وإنما الإنسان الجاهل يخبئه ويتجسسه؛ كاتخاذ العنب أو الحب خمراً، أو غصبه أموال الناس وأرزاقهم.

ولهذا نهى الله تعالى عن اتباع خطوات الشيطان، وأمرهم أن يجتنبوا؛ لأن الشيطان يريد هلاك [بني] الإنسان وإهلاكهم؛ لأنه عليه لعنة عدو مبين لبني آدم أجمعين.

ومن شأن الشيطان وخصائصه أنه يأمركم أيها الناس بالسوء والفحشاء؛ أي: ما يؤول ويُنَجِّع عاقبته السوء، وأنه يأمركم أيها الناس أن تقولوا على الله ما لا تعلمون؛ بأن تحلوا شيئاً، أو تحرموا شيئاً، أو توجبوا شيئاً، بلا استناد إلى دليل شرعي من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ؛ مثل أن تقولوا: إن الإشارة بالسبابة^(١) في تشهد الصلاة حرام؛ كأكثر جهلة الأخناف، أو إن في عمل الموالد^(٢) ثواباً، أو إن قراءة «دلائل الخيرات»^(٣) فيها ثواب كذا وكذا، أو إن بناء

(١) ولي رسالة - كتبها قديماً - في هذه المسألة، اسمها: «قطع التردد في كيفية الإشارة في التشهد»، بشر الله لي تبيضها ونشرها.

(٢) انظر: «المورد في عمل المولدة للفاكهاني بتعليقي، نشر مكتبة المعارف، الرياض.

(٣) وهو كتاب مديح!! مليء غلوّاً وكفراً وضلالاً والعياذ بالله، وللشيخ عبدالله =

القب على قبور الأولياء خير ونواب، أو إن التقليد بمذهب معين^(١) من المذاهب الأربعة لازم...

أو نحو ذلك، فكل هذا تقول على الله بلا علم ولا دليل.

فإذا قيل لهم: أتبعوا ما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ، واتركوا ما أنتم عليه؛ من أمور الجاهلية، وتقليد من مضى من الناس في عبادة الأوثان، واتخاذ الأنداد، والاعتماد على الأرواح أو الاستمداد منها، والتوجه إلى القبور، والتذرع إليها، وتقبيلها، وإسراج السرج عليها، وتقليد غير المعصومين في الدين، والتعصب للمذاهب والطرق! أجابوا قائلين: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، وما ألفيناهم عليه؛ لأنهم أعلم منا ومنكم. فقل لهم: أولئك آباؤكم لا يعقلون شيئاً من كتاب الله ولا يعلمون شيئاً من سنة رسول الله ﷺ، بل ولا يهتدون إليه؛ لأن التقليد أعمى بصرتهم وبصيرتهم، والشياطين من الإنس والجن قد تصرفوا فيهم تصرفاً كلياً، فوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً؛ بأن يقول: إن الولي الفلاني فعل كذا، وإن القطب الفلاني استرد أرواح مريديه من يد قابض الأرواح عزرائيل^(٢) عليه السلام، وإن فلاناً العالم اعترض على العارف الفلاني فصار كذا؟!!

فهؤلاء الذين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه

= الدؤبش رحمه الله تعالى فقد مفضل له تحت الطبع.

(١) والمصنف رسالة «هدية السلطان إلى مسلمي بلاد اليابان»، مطبوعة مراراً، آخرها بتحقيق أخينا سليم الهلالي، وانظر مقدمة كتابنا هذا (ص ١٤).

(٢) لم يصح في السنة حديث في تسمية ملك الموت عزرائيل. انظر: «معجم المناهي اللفظية» (ص ٢٣٨).

وخطه، يُطَيَّنُونَ بِكَلِمَاتِهِ، فالعوام يصدِّقون هؤلاء الشياطين، فيُقدِّرونهم في كل ما قالوا من الباطل.

فيا أيها الإنسان! من حيث إنك إنسان قد خاطبك ربك العليم الحكيم بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، فعليك أن تفهم خطاب ربك الموجه إليك؛ لأنك أهل لذلك، فعليك بتعلم اللغة العربية الفصحى، والاعتناء بالفهم والتفهم، حتى تصير إنساناً كاملاً، وتنال السعادة دينا ودنيا وأخرى، فتعيش حراً سعيداً، وتخلص من الأغلال والسلاسل؛ أغلال الدُّجَالين والأباليس، وسلاسل المستعمرين والمستعبدين.

ويجب على سلاطين أهل الإسلام وأمرائهم ورؤسائهم وعلمائهم وأغنيائهم الاعتناء الثام الكافي بتعليم عِلم القرآن ولغته، وجعل التعليم فيه إجبارياً؛ حتى يعرف المسلمون أوامر ربهم وخطاباته الموجهة إليهم.

ألا ترى أن الحكومات المتمذبة ذات الشأن اليوم كيف تجتهد لجعل لغتها وخطها عمومياً بين رعاياها، بل في العالم كله، وتصرف لذلك ملايين الملايين كل عام، فتُحَصِّل مفاصلها الدنيوية السياسية، وتُفَسِّد عقائد المسلمين إفساداً؟!!

فالويل كل الويل على المسلمين وعلمائهم من هذه العقلة، ومن هذا الكسل والجهالة، أليس كلنا راعياً وكلنا مسؤول عن رعيته؟!!

الآية الثالثة في أول سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا

الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كَانَ عَلَيْكُمْ رَبِّياً^(١).

خطاب عام ليس خاصاً بقوم دون قوم، ولَفَطَ ﴿النَّاسُ﴾ اسمً للجنس البشر.

وقد اتفق الأصوليون من المفسرين على أن الخطاب^(٢) عام لجميع المكلفين، وهذا هو الأصح، ولا وجه لتخصيص بعض المفسرين بأهل مكة، والأصل أن (ال) في ﴿النَّاسُ﴾ للاستغراق، وأن جميع الناس مخلوقون بخلق الله ومأمورون بالتقوى.

والتقوى هي الإيمان بالله عز وجل، وأن تقوى وتحفظ نفسك من الله؛ أي: من غضبه وسخطه وعقوبته.

ولا يبيِّن بل ولا يمكن هذا إلا بعد معرفته ومعرفة ما يُرضيه وما يُسخطه، ولا يعرف هذا إلا من فهم كتاب الله تعالى فهماً صحيحاً، وعرف سنة نبيه محمد ﷺ معرفة صحيحة، وعلم سيرة سلف الأمة الصالح؛ مطالباً نفسه بالاهتداء بذلك كله.

فمن صبر وصابر وربط؛ لأجل حماية الحق وأهله، ونشر دعوته، واتقى ربه في سائر شؤونته؛ فقد أعد نفسه بذلك للفلاح والفرز بالسعادة عند الله تعالى.

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّمْثَالِ أَكْثَاءُ أَيْسُهُمْ آدَمُ وَالْأُمُّ حَوَاءُ^(٣)

(١) النساء: ١.

(٢) انظر: «أضواء البيان» (١ / ٢١٨) للعلامة الشافعي.

(٣) من أبيات في «الفقه والمفتة» (٢ / ٧٧).

فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ فَرْدٍ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ النَّاسِ أَنْ يَتَّقُوا رَبَّهُمْ، وَيُؤْمِنُوا بِهِ، وَيَتَّبِعُوا أَمْرَهُ، وَيَعْرِفُوا كَلَامَهُ، وَهَذَا لَا يَخْتَصُّ بِشَخْصٍ دُونَ شَخْصٍ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى يَسْأَلُهُمْ كُلَّهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ وَكِتَابِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَإِنَّهُ تَعَالَى رَقِيبٌ بِصِيرٍ عَلِيمٌ خَبِيرٌ، فَيُجَازِي كُلَّ أَحَدٍ عَلَى نِيَّتِهِ وَعَقِيدَتِهِ وَعَمَلِهِ.

فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا؛ فَعَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَلَا تُتَذَرُوا بِتَرْكِ تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِ مَعْنَاهُ؛ كَمَا لَا تُتَذَرُونَ بِتَرْكِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ لِأَنَّكُمْ الْمَكَلَّفُونَ الْمُخَاطَبُونَ بِذَلِكَ.

تَعْلَمُ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُولَدُ عَلِيماً وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلٌ

الآية الرابعة في أواخر سورة النساء أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾. إِنَّ يَسْأَلُ يَذْهَبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخِرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا^(١).

أَيُّ: أَيُّهَا النَّاسُ! إِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى جَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَخْلُوقَاتِ، فَهُوَ جَلَّ جَلَالُهُ يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَيْفَ يَشَاءُ؛ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ تَعَالَى إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ بِعَذَابٍ يُنْزِلُهُ عَلَيْكُمْ؛ كَمَا أَنْزَلَ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ وَهَوْدَ وَصَالِحٍ وَلُوطٍ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أَوْ أُمَّةٍ قَوِيَّةٍ يَسْلُطُهَا عَلَيْكُمْ، فَتَسْلُبَ اسْتِقْلَالَكُمْ، حَتَّى تَجْعَلَكُمْ عِبِيدًا أَوْ كَالْعَبِيدِ لَهَا؛ لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَقُومُوا بِإِقَامَةِ شَعَائِرِ دِينِكُمْ، وَلَا بِمَصَالِحِكُمْ، وَيَأْتِ بِآخِرِينَ يَجْلُونَ مُحَلِّكُمْ فِي الْوُجُودِ، أَوْ

(١) النساء: ١٣٢ - ١٣٣.

الحكم والتصرف؛ كَمَا سَلَطَ يُخْتَصِّرُ^(١) عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَمَا أَنَّ الْبَخَارِيِّينَ وَالْخَوَارِزْمِيِّينَ مِمَّنْ يَدْعُونَ الْإِسْلَامَ لَمَّا غِيرُوا أَوَامِرَ رَبِّهِمْ عَقِيدَةً وَعَمَلًا سَلَطَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الرُّوسَ وَالْبِلَاشَةَ وَاللَّادِيَّةَ فَفَتَلَتْهُمْ وَأَهْلَكَتْهُمْ وَفَرَّقَتْهُمْ أَيُّ تَفْرِيقٍ، وَكَذَا أَهْلَ الْهِنْدِ وَالْأَنْدَلُسِ سَلَطَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الْإِنْكَلِيرَ وَالْفَرَنْسِيِّينَ وَالْإِسْبَانِ، وَكَذَا الْأَلْمَانُ وَالطُّلِيَّانَ لَمَّا طَغَتْ وَبَغَتْ سَلَطَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا الْبِلَاشَةُ وَالْإِنْكَلِيرُ وَالْأَمْرِيكَانَ.

وهكذا سنة الله في خلقه، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا.

فالخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ عامٌ لَا يَخْتَصُّ بِأُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ.

ويؤيد ما حررناه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ الآية^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَنْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾^(٤)، وقوله ﷺ رواية عن ربه جَلَّ جَلَالُهُ: «إِذَا غَضَبَنِي مَنْ يَعْرِفُنِي سَلَطْتُ عَلَيْهِ مَنْ لَا يَعْرِفُنِي»^(٥).

فَيَا أَيُّهَا النَّاسُ! اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقْوَاهُ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ زُخَارِفِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ رِجْلَكُمْ لِبِالْمَرَصَادِ.

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٢ / ٣٨ - ٤٠).

(٢) الأنفال: ٥٣.

(٣) الأنعام: ١٢٩.

(٤) الأنبياء: ١١.

(٥) هو من الأحاديث القدسية المشهورة على السنة الناس، ولم أجده أصلًا.

وقال شيخنا - بعد - عند سؤالي له عنه: «ليس له أصل».

فأفهموا كلام ربكم، وخطاب مولاكم، واعملوا بموجبه في كل الأمور؛ دنيويةً ودينيةً وأخرويةً؛ فإن الدنيا مزرعة الآخرة^(١)، وكم من الناس في طرفي الإفراط والتفريط، وإنما السعادة في التوسط والاقتصاد، فتنبه.

الآية الخامسة في سورة النساء أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا^(٢)﴾.

قد نادى الله تعالى بهذه الآية جميع الناس عموماً؛ عربهم وعجمهم، شرقهم وغربهم، في سياق خطاب أهل الكتاب، وذكر الرسول هنا معزفاً؛ لأن أهل الكتاب قد بشروا به، وكانوا ينتظرون بعثته.

واختيار لفظ الرب هنا للإشعار بأن هذا الحق الذي جاء به يقضد به تربية المؤمنين، وتكميل فطرتهم، وتزكية نفوسهم، فلماذا قال: ﴿قَابِلُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾؛ أي: إذا كان الأمر كذلك؛ فآمنوا، فإن تؤمنوا؛ يكن الإيمان لكم خيراً، لأنه يركبكم ويظهركم من الأذناس الحسنة والمعنوية، ويؤمِّلُكم للسعادة الأبدية.

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فهو تعالى غني عن إيمانكم وطاعتكم، فيجازيكم على كفركم وسوء عملكم؛ لأن له تعالى ما في

(١) بعضهم ينسب هذا الكلام للنبي ﷺ، ولا أصل لذلك.

قال البخاري في «المقاصد» (رقم ٤٩٧): «لم أتف عليه مع إيراد الغزالي له في (الإحياء)».

(٢) النساء: ١٧٠.

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ خَلْقًا وَعِيدًا، وكلُّ عبده طوعاً أو كرهاً. أما عبادة الكثرة وعدم الاختيار؛ فبالخضوع للشئ والاقدار، وهي عامة في جميع الخلق.

وأما عبادة الاختيار؛ فخاصة بالمؤمنين الأخيار والملائكة الأبرار وأمثالهم من جنود الله، اللهم اجعلنا منهم.

وإن ممن اهتدى بهذا الهدى وتور بهذا التور الإلهي رجلاً من أهل الغرب، من النوع المتسبب إلى النصرانية، فهذا الرجل طالع ترجمة [معاني] القرآن باللغة الإنكليزية، فوز الله تعالى بصره وبصيرته، فعلم اللغة العربية، ففهم بعض معاني القرآن، وتيقن أن الإسلام هو الدين الحق الذي يسعد الإنسان في الدنيا والآخرة، فاعتنق الإسلام، وهاجر من بلاده قاصداً الإقامة في ديار الإسلام، فأقام في الحرمين، ولكن لما رأى المتسبين إلى الإسلام هنا، وأخلاقهم، ومعاملاتهم المخالفة لدين الإسلام وتعاليمه؛ تعجب وتحير، فقد ذكر لي قائلاً: الحمد لله أنني قد أسلمت قبل ملاقة هؤلاء المسلمين، وهذا من فضل الله علي، ولو كنت رأيتهم أولاً قبل ذلك لفرغت عنهم وعن الإسلام، ولكني لما فهمت خطاب الله بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وأني من جملة الناس؛ وجب علي أن أتقي الله الذي خلقتني ورباني، وأؤمن به وبرسوله وكتابه، وتيقنت أن كل من اتقى الله وشه سعاد في الدارين، ومن كفر وجحد فإن عذاب الله شديد، ولا يعذر أحد بالجهل ما دام عاقلاً... إلخ!

فأنظر إلى هذا الرجل الأوروبي كيف تعلم العلم وكيف اهتدى، فهكذا كل فرد من أفراد البشر له أهلية للتعليم وفهم كلام ربّه، فلماذا قد خاطبهم الله

تعالى بخطاب عام، وأمرهم بالإيمان والتقوى، وبالاقتداء بالرسول الذي أرسله الله تعالى بالحق، وهذا الرسول مبعوث إلى كافة البشر وعامة الزماني رحمة للعالمين؛ إنهم وجنهم.

فيجب على كافة بني البشر الإيمان به، ومعرفة كلامه، ولا يُعذر أحد بالجهل^(١) كما أسلفت، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وهذا الرجل المهتدي إلى الإسلام قد صاحني منذ عام ١٣٥٥هـ، وحضر دروسي، وكثيراً ما راجعني في تفهم معاني بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وقد حسن إسلامه، فأسأل الله تعالى أن يُثبتي وإياه وسائر المسلمين على الإيمان، وأن يديم لنا التوفيق، وأن يوفقنا حسن الخاتمة، آمين.

الآية السادسة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾. فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً^(٢).

وقد خاطب الله تعالى بهذا الخطاب العام عامة البشر وكافة بني آدم، وأخبر أنه قد جاء إليكم برهان من جانب ربكم العليم الحكيم، وهذا البرهان والحجة هو رسول الله محمد ﷺ، وقد جاءكم رسول الله يرشدكم إلى الحق ويهديكم إلى صراط مستقيم، وهو رحمة مهداة لكم من ربكم اللطيف الحكيم.

(١) لأنه من المعلوم من الدين بالضرورة.

(٢) النساء: ١٧٤ - ١٧٥.

وأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ القرآن نوراً مبيناً؛ فتتورون به، فتجيبون ظلمات الشرك وتلويثات الأوثان والأنداد، فتعرفون ربكم الواحد الصمد، فلا تعبدون إلا إياه وحده، فإن آمنتم بالله وصدقتم بوحدانيته وكلامه ورسوله واعتصمتم بالله عاملين بكلامه وأوامره؛ فسيدخلكم في رحمة منه وفضل، ويُنِيلُكم سعادة الدارين، فيعد إيمانكم وظهور صلاحكم وأهليكم للهداية يوفقكم ويوصلكم إلى رضا ورضوانه صراطاً مستقيماً.

وإنما أرسل الله تعالى هذا الرسول العربي الأمي لرحميتكم أيها الناس وتربيتكم وتزكية نفوسكم، فهو ﷺ برهان عظيم وتجلي؛ يبين لكم حقيقة الإيمان الصحيح بالله عز وجل، وجميع ما تحتاجون إليه من أمر دينكم ودنياكم، فهو ﷺ بسيرته العملية برهان وحجة؛ كما أنه ﷺ برهان في دعوته العلمية الشرعية.

وأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ بما أوحينا إليه كتاباً من لدننا، هو كالنور بين في نفسه ومبين لكل ما أنزل لبيانه، فيه تنجلي لكم الحقائق، بحيث لا يشته فيها من تدبره وعقل معانيه.

مثال ذلك: توحيد الله في ألوهيته وربوبيته، وهو أثبت الحقائق وأعلى ما يصل إليه البشر من المعارف، وأفضل ما ترتقى به النفوس وترقى به العقول، وقد بعث به جميع رسل الله إلى جميع الأمم، فكان كل منهم يدعوهم إليه، ولكن من الأمم من لا يفقه معنى التوحيد فيلبسونه بالشرك في الألوهية؛ كاتخاذ المسيح إلهاً، بل اتخاذ من دونه من مقدسيهم آلهة أو أنصاف آلهة، يزعمون أنهم وسطاء بينهم وبين الله في كل ما ينفعهم ويضرهم في معاشهم ومعادهم، والشرك في الربوبية باتخاذ أحبارهم وريهانيهم أرباباً من دون الله، فيشعرون

لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ، وَيُجْلُونَ لَهُمْ، وَيُحْرَمُونَ عَلَيْهِمْ فَيُتَجَرَّمُونَ.

فَأَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْبِرْهَانَ مُحَمَّدًا ﷺ؛ لِبَيَانِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ أَشْرَكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَمْثَالِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ كَالْهِنْدِ وَالْكَلدَانِيَيْنِ وَالْمَصْرِيِّينَ وَالْيُونَانِ وَالصِّيْنِيِّينَ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الْإِلَهَ وَاحِدٌ، وَبَعْضُهُمْ كَانَ يَصْرَحُ بِمَثَلِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ عِنْدَنَا أَوْ بِهَا نَفْسِهَا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ مُشْرِكِينَ؛ يَزْعُمُونَ أَنَّ بَعْضَ الْبَشَرِ أَوْ الْحَيَوَانِ أَوْ الْجِمَادِ يَنْفَعُ أَوْ يَضُرُّ بِصِفَةِ خَارِقَةٍ لِلْعَادَةِ، فَيَتَوَجَّهُونَ إِلَى تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الْمُعْتَقَدَةِ تَوْجُّهُ الْعِبَادَةِ، وَبَعْضُهُمْ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُمْ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ غَيْرُ كَافٍ فِي بَيَانِ الدِّينِ، فَيَضَعُ رُؤُسَهُمْ أَحْكَامَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، سَوَاءً وَافَقَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ أَمْ لَا، فَيَهْذَأُ تَغْلَغَلَتْ الْوُثْنِيَّةُ فِي جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، وَأَفْسَدَتْهَا عَلَى أَهْلِهَا، فَقَلَّدَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيمَا وَرِثَهُ مِنْهَا.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى لِهَدَايَةِ الْبَشَرِ هَذَا النُّورَ الْمُبِينِ الْقُرْآنَ، فَكَانَ أَشَدَّ إِبَانَةً لِدَقَائِقِ مَسَائِلِ التَّوْحِيدِ وَخَفَايَاهَا مِنْ نُورِ الْكِبْرِيَاءِ الْمَتَالِقِ فِي هَذَا الْعَصْرِ، فَبَيَّنَ لِمَنْ يَفْهَمُ لَفْظَهُ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ بِالْإِثْبَاتِ، وَالْبِرَاهِينَ الْكُونِيَّةَ الْعَقْلِيَّةَ، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ الْمَادِيَّةَ وَالْمَعْنَوِيَّةَ، وَضَرَبَ الْقَضِصَ وَالْمَوَاعِظَ وَالْهَدَايَةَ إِلَى النَّظَرِ وَالتَّجَارِبِ، وَكَشَفَتْ مَا رَانَ عَلَى هَذِهِ الْعَقِيدَةِ مِنْ شُبُهَاتِ الْمُضِلِّينَ وَأَوْهَامِ الضَّالِّينَ الَّتِي مَزَّجَتْهَا بِالشَّرْكِ مَزْجًا، وَجَمَعَ بَيْنَ الضُّدِّينَ بِلِ التَّقْيِيزِ جَمْعًا، وَتَمَكَّنَ فِي نَفُوسِ النَّاسِ، فَقَرَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ التَّوْحِيدَ، وَاجْتَنَّبَ جَذُورَ الْوُثْنِيَّةِ بِالْبِرَاهِينَ الْقَطْعِيَّةِ.

فَالَّذِينَ يَعْتَصِمُونَ بِهَذَا الْقُرْآنِ يُدْخِلُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي رَحْمَةٍ خَاصَّةٍ بِهِ، لَا

يُدْخِلُ فِيهَا سِوَاهُمْ، وَفَضْلٌ خَاصٌّ لَا يَفْضُلُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَيَا خَسَارَةَ الْمُفْرِضِينَ! وَيَا طُوبَى لِلْمُعْتَصِمِينَ!

وَقَدْ صَدَّقَ وَعْدَ اللَّهِ لِلصَّادِقِينَ فَفَازَ مَنْ اعْتَصَمَ بِهِ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَخَابَ وَخَسِرَ مَنْ أَعْرَضَ مِنَ الْآخِرِينَ، فَعَسَى أَنْ يَتَغَيَّرَ بِذَلِكَ الْمُتَمَتِّنُونَ إِلَى هَذَا الدِّينِ فِي هَذَا الْعَصْرِ.

وَعَنْ هَذَا قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ^(١):

السَّيْلُ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ وَمَا سِوَى ذَلِكَ وَسُوسَاتُ الشَّيَاطِينِ
كُلُّ الْعُلُومِ سِوَى الْقُرْآنِ مُشْغَلَةٌ إِلَّا الْحَدِيثُ وَالْإِسْلَامُ فِي الدِّينِ
وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:

أَهْلُ الْحَدِيثِ هُمُ أَهْلُ الرُّسُولِ وَإِنْ لَمْ يَصْحَبُوا شَخْصَهُ أَتَفَاسَهُ صَحَبُوا^(٢)

الآية السابعة من سورة الأعراف: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سُرَاتِكُمْ وَبِئْسَ وَلِبَاسٌ لِقَايَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾^(٣).

قَدْ نَادَى اللَّهُ تَعَالَى وَخَاطَبَ بَنِي آدَمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا؛ عَزِيمَهُم

(١) يُنسب نحو هذا الشعر للإمام الشافعي رحمه الله، فانظر «ديوان الشافعي» (ص ١٣٨).

ولفظ (العارفين) مما لا نجد أن يستعمله أهل السنة؛ لأنه من الفاظ مبتدعة الصوفية. وانظر: «روضة المحيئين» (ص ٤٠٢) للعلامة ابن القيم.

(٢) انظر له: «الحطية...» (ص ٦٧) بتحقيقي.

(٣) الأعراف: ٢٦.

وَسَنَارُ، وهذا عالم في جميع بني البشر؛ من جنس الأبيض والأحمر والأسود والأصفر، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾.

الآية الثامنة فيها أيضاً: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتَهُمَا إِنَّهُ يَرَائِكُمْ حِينَ حَبَّثَ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَمَعْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

هذا النداء عام أيضاً لجميع بني آدم؛ عزيزهم وعجبتهم، قد خاطبهم الله تعالى في مقام الوعد والتذكير - ناهياً إياهم - أن لا يفتنوا ولا يفتنوا بوساوس الشيطان كما وسوس لأبي البشر آدم عليه السلام بإطهار النصح له والمحبة، حتى أخرج الأبوين من الجنة، فمن قبل وسوسة الشيطان؛ ابتلي بالمصيان، فيكون من أهل الخسران والخذلان، فعمود بالله من الشيطان ونزغاته ووساوسه.

ومن المصائب على البشر أن أكثر المؤمنين يطلب الدين الروحي في هذه القرون الأخيرة لا يقفون فيها عند حدود ما أنزل الله على رسوله وما فهمه منه روايته من السلف الصالح، بل زادوا - وما زالوا يزيدون - فيه من الخرافات والبدع والضلالات، فيفتنوا من الدين العقلاء الفاضلين.

والشياطين إنما يتصرفون ويوسوسون [في] من يقبل قولهم من المشركين وأهل الضلال؛ لأن سنة الله قد جرت في التناسب بين أنواع المخلوقات المتجانسة والمتشاكلية، أن يكون الشياطين الذين هم شرار الجن أولياء لشرار

(١) الأعراف: ٢٧

وعجبتهم، ذكرهم وأنشأهم، فامتد عليهم بعد أن اتبأهم بما كان من عزي سلفهم الأول، بما أنعم به عليهم من اللباس على اختلاف درجاته وأنواعه من الأذن الذي يستتر السوءة عن أعين الناس إلى أنواع الخلل التي تشبه ريش الطير في وقاية البدن من الحر والبرد يستتر جميع البدن، وما في ذلك من أنواع الرزية والجمال اللائقة بجميع ذكران البشر وإنايهم.

فهو جل جلاله يقول: يا بني آدم! إنا بما لنا من القدرة والنعمة والرحمة قد خلقنا لأجلكم ومنافعكم مادة اللباس من القطن والصوف الحرير وغيرها، وعلمناكم بما خلقنا فيكم من الغرائز والقوى والأعضاء وسائل صنع اللباس فيها؛ كالزراعة، والغزل، والنسج، والخياطة، وإن من الله تعالى بهذه الصناعات على أهل هذا العصر أضعاف مائة على المتقدمين من شعوب بني آدم، فيجب أن يكون شكرهم له تعالى أعظم.

فيا أيها الإنسان! أنت المخاطب بهذا الخطاب الرباني، أفلا تجهل وتسمى في فهم خطاب ربك؟ أفلا تحافظ على وحدانيته بهذه النعم والآيات؟ ألا تنفي الشرك والإشراك والكفر والإلحاد؟

ولباس التقوى هو الخير الذاتي؛ يعني: فزى نفسك بتقوى الله، وزكها بتوحيد الله، وهذا هو الخير الأبدي.

فيجب عليكم أن تلاحظوا هذه النعم الإلهية لعلكم تتذكرون وحدانية ربكم وقدرته القاهرة، فلا تعبدوا إلا إياه، ولا تخضعوا إلا له جل جلاله.

وهذه الآية ترشدنا إلى الصنائع، والاكتساب، والزراعة، والحياكة، وأنواع الصناعة؛ كما أنها تنبهنا إلى الشتر والنستر، وأن كشف العورة سوء وعار

الإنس، وهم الكفار والمشركون وعِبَادُ القُبُور والأرواح؛ ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾^(١).

فأولياءُ الشَّيْطَانِ هم أصحابُ الوسواس والخرافات والطُّعْيَانِ مِنْ أَهْلِ الطَّوَاغِيتِ وَالذُّجُلِ وَالنَّفَاقِ، فنعوذ بالله مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّ أَوْلِيَائِهِ مِنْ الْإِنْسِ وَالْجَانِّ.

فيا ابنَ آدَمَ! إذا لم تفهم هذا الخطابَ الإلهي ولم تعرف هذا الأمرَ الرباني؛ فأنت خارج عن حيزِ الأدمية، فتكون أسيراً بيدِ الشَّيْطَانِ، فهو يلعبُ بك كيف يشاء، وقد أخبر الله تعالى أَنَّ الشَّيْطَانَ وَبِيلَهُ يَرُونِ بَنِي آدَمَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَيُؤَسِّسُونَهُمْ وَيُضِلُّونَهُمْ، وأما ابنُ آدَمَ فلا يرى الشَّيْطَانِ عَلَى حَقِيقَتِهِ وَصُورَتِهِ، وإنَّ رَأَاهُ عَلَى غَيْرِ صُورَتِهِ كَالْحَيَّةِ وَالشَّيْخِ الْمُتَصَوِّفِ وَنَحْوِهِمْ!

وعلى أي حال؛ فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ إِنَّمَا يُؤَثِّرُونَ عَلَى مَنْ أَطَاعَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعِبَادَةِ الْقُبُورِ وَالْأَرْوَاحِ، لَا الْمُؤْمِنِينَ الْمُؤَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُؤَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ، وَعَدَّنَا يَا رَبَّنَا مِنْ وَسْوَاسِ الشَّيَاطِينِ وَدَسَائِلِهِمْ، سِوَا شَيَاطِينِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَجْمَعِينَ.

الآية التاسعة فيها أيضاً: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾^(٢).

(١) الأعراف: ٣٠.

(٢) الأعراف: ٣١.

هَذَا النَّدَاءُ وَالْخُطَابُ الْإِلَهِيُّ عَامٌّ شَامِلٌ لِجَمِيعِ بَنِي آدَمَ رِجَالاً وَنِسَاءً، وَيَدُلُّ عَلَى بَعَثَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى جَمِيعِ الْبَشَرِ.

فَسَتَرُ الْعَوْرَةِ لَازِمٌ عَلَى جَمِيعِ بَنِي آدَمَ رِجَالاً وَنِسَاءً، وَهَذَا أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الْإِسْلَامِ؛ لِحِفْظِ كِرَامَةِ الْبَشَرِ، وَرَفْقِهِمْ عَلَى سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ.

وَالَّذِينَ الْإِسْلَامِيُّ إِنَّمَا شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِإِصْلَاحِ الْبَشَرِ دِيناً وَدُنْيَا، فَهُوَ طِبُّ الْخَالِقِ الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ، وَلِذَا قَالَ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، بَلِ الزَّمُوا الْإِعْتِدَالَ وَالْإِقْتَصَادَ.

﴿إِنَّهُ﴾ تَعَالَى ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾؛ أَي: إِنَّ رِئْكَمَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ النِّعَمِ لِمَتَقَنِّتِكُمْ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ فِي أَمْرِهِمْ كُلِّهِ، بَلِ يَعَانِيهِمْ عَلَى الْإِسْرَافِ.

فهذه الآية يُرْشِدُ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ عَامَّةً إِلَى الْإِقْتِسَادِ فِي الْمَعِيشَةِ، وَتَبْدِيرِ الْمَنْزِلِ عَلَى اجْتِنَابِ مَا خَطَرَهُ الشَّرْعُ مِنَ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْدِيرِ وَالْبَخْلِ وَالتَّقْتِيرِ.

فَتَدَبَّرْ أَيُّهَا الْآدَمِيُّ كَلَامَ رَبِّكَ الْحَكِيمِ وَتَفَهَّمْهُ إِنَّ كُنْتَ مِنْ بَنِي آدَمَ.

وَقَدْ سَمَى اللَّهُ الْحَكِيمُ اللَّبَاسَ زِينَةً، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا تَصَرَّى عَنِ اللَّبَاسِ يَكُونُ أَقْبَحَ مَنْظَرًا وَأَشْنَعَ مَظْهَرًا مِنَ الْكَلْبِ وَالْخَنَزِيرِ؛ كَمَا هُوَ غَيْرُ خَفِيِّ عَلَى أَهْلِ الْعَقْلِ وَالْدِّينِ.

وكذلك الأكلُ والشربُ؛ لِأَجْلِ حِفْظِ الْحَيَاةِ وَالْقُوَّةِ وَالصَّحَّةِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَحْتَدِلُّ بِالْإِعْتِدَالِ وَالتَّوَسُّطِ، وَأَمَّا إِذَا أَكَلَ فَوْقَ الشَّيْعِ، أَوْ شَرِبَ فَوْقَ الرُّيِّ؛ فَتَفْسَدُ مَجْدَتُهُ، وَتَتَغَيَّرُ صَحَّتُهُ، فَيُبْتَلَى بِأَمْرَاضٍ مُهْلِكَةٍ كَمَا لَا يَخْفَى.

وكذلك الإفراط والتفريط في اللباس والبناء والاساس والجماع ، فكُلها مُضِرٌّ ومهلكٌ ، والخيرُ كُلُّ الخيرِ في التوسط والاقتصاد ، فتنبّه .
حكاية تناسب المقام :

وهي ما ذكرها العلامة إبراهيم الأزرقي في كتابه «تسهيل المنافع»^(١) :
«روي أنه اجتمع عند كسرى أنوشروان أربعة من الحكماء : عراقي ، ورومي ، وهندي ، وسوداني ، فقال كسرى لهم : ليصِفْ لي كُلَّ واحدٍ منكم الدواء الذي لا داء معه .

فقال العراقي : الدواء الذي لا داء معه أن تشرب كل يومٍ على الرّيق ثلاث جرعاتٍ من الماء الساخن .

وقال الرومي : الدواء الذي لا داء معه أن تصِفْ كل يومٍ قليلاً من حَبِّ الرُّشَادِ^(٢) .

وقال الهندي : الدواء الذي لا داء معه أن تأكل كل يومٍ ثلاث حباتٍ من الهليلج الأسود^(٣) .

والسوداني ساكتٌ ، وكان أحذقهم وأصغرهم سنّاً .

(١) ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» (١ / ٤٠٧) ، وقد طبع الكتاب طبعات كثيرة ، أولها سنة ١٣٠٤ هـ ، فانظر : «دخائر التراث العربي الإسلامي» (ص ٣٣٥) .
(٢) هو نوع من البقول .
(٣) قال في «المعجم الوجيز» (ص ٢٩) : «شجرٌ ينبت في الهند وكابل والصين ، ثمرة على هيئة حب الصنوبر الكبار» .

فقال له الملك : ألا تتكلم ؟

فقال : يا مولانا ! إن الماء الساخن يذيب شحم الكلى ويُرخي المعدة ، وحَبُّ الرُّشَادِ يهيج الصفراء ، والهليلج الأسود يهيج السوداء .

فقال : فما الذي تقول أنت ؟

فقال : يا مولانا ! الدواء الذي لا داء معه أن لا تأكل إلا بعد الجوع ، فإذا أكلت ؛ فارفع يدك قبل الشبع ؛ فإنك لا تشكو علة إلا علة الموت .

فقالوا كلهم : صدق ، والاحتماء في وقت الصحة خيرٌ من شرب الأدوية عند المرض .

قلت : وتصديقه في قوله تعالى : ﴿كُلُوا واشربُوا ولا تسرفوا﴾ .

الآية العاشرة فيها أيضاً : ﴿يا بني آدم إنما يأتيتكم رُسُلٌ منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾^(١) .

هذا النداء والخطاب الإلهي عالمٌ أيضاً لكافة بني آدم منذ بعث الله تعالى إليهم الرسل عليهم الصلوات والتسليمات ، وهذا يؤدّن بأن الله تعالى قد خاطب كل أمة على لسان رسولها ، وبين لهم أصول دينهم ، فمن اتقى ما نهى الله تعالى عنه ، وأصلح نفسه بما أوجب الله تعالى عليه ؛ فلا خوف عليهم ممّا يترتب على التكذيب والمعصية من عذاب الدنيا والآخرة ولا هم يحزنون عند الجزاء يوم القيامة .

(١) الأعراف : ٣٥

فيا آدمي! إن كنت من بني آدم؛ فاجتهد في فهم خطاب ربك؛ لأنك أهل لذلك، ولا تضيع أهليتك فتكون من الخاسرين الهالكين.

وهذه الآية كقولہ تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(١)، فندبر.

الآية الحادية عشرة في الأعراف أيضاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمَّا تَأْتُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُوْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٢).

هذا خطاب عالم لجميع البشر من العرب والعجم، وجهه إليهم محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم العربي الأمي بأمر الله تعالى، ينشئهم به أنه رسول الله تعالى إليهم كافة، لا إلى قومه العرب خاصة، فهو كقولہ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(٣).

الله ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فله التصرف والتدبير في العالم كله، وهو رب العالمين، لا شريك له، فلا إله إلا هو، ولا معبود [بحق] إلا هو؛ كما أنه لا خالق إلا هو، ولا رب إلا هو.

﴿فَأَمَّا تَأْتُوا﴾ يا أيها الناس من أي أمم كنتم؛ عرباً أو عجماً، شرقاً أو غرباً ﴿بِاللَّهِ الْوَاحِدِ فِي رُبُونِيَّتِهِ وَالْوَهَّيَّةِ، وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ الْمَمْتَازِ بَأَنَّهُ الْأُمِّيَّ الَّذِي بَعَثَهُ

(١) يونس: ٦٢.

(٢) الأعراف: ١٥٨.

(٣) سبأ: ٢٨.

في الأميين العرب رسولاً إلى الخلق أجمعين؛ يعلمهم الكتاب والحكمة، ويذكهم، ويعطهم من خرافات الشرك والزنازل والجهل والتفريق والتعادي بعصبيات الأجناس واللغات والأوطان^(١)؛ ليكونوا بهديته أمة واحدة يتحقق بها الإخاء العام في البشر.

فيا أيها الناس! اتبعوا هذا النبي لعلمكم تهتدون إلى ما فيه سعادتكم في الدارين.

ومما يدخل في اتباعه ﷺ: تعلم لغته التي هي لغة الكتاب الإلهي الذي أوحاه الله تعالى إليه، وأمر جميع من أتبعه ودان بدينه أن يتبعه به، وأن يتلوه في الصلوات وغير الصلوات؛ مع التدبر والتأمل في معانيه، وذلك موقوف على إتقان لغته، وهي العربية الفصيحة، فيجب على المسلمين أن يبلغوا الدعوة إلى كل قوم بلغتهم، حتى إذا ما هدى الله تعالى من شاء منهم ودخل في الإسلام؛ علموه أحكامه ولغته، كذلك كان يفعل الخلفاء الراشون في خير القرون وما بعدها، إلى أن تغلبت الأعاجم على العرب، وسلبوهم الملك، كأبي مسلم الخراساني^(٢)؛ فإنه منع عن تعلم العربية، وعزز من يتكلم بها أو يعلمها.

والحال أن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى الناس كافة، وأوجب عليهم أن يتعلموا لسانه بقدر ما يطيقونه، ولا شك أن لكل فرد من أفراد بني آدم أهلية تعلم العربية وتعلم معناها، ولهذا أمر الله تعالى رسوله أن يخاطبهم ويأمرهم وينهاهم فيتبعوه ويمثلوا أمره.

(١) بل وعصبيات المذاهب والأحزاب!

(٢) انظر: «البداية والنهاية» (١٠ / ٦٧ - ٧٤) لابن كثير، وما سيأتي (ص ١٢٠).

وجملة القول: أنَّ إقامة دين الإسلام متوقفة على فهم لغة كتابه المنزل من ربِّ العالمين، وسبَّه نبيه المرسل رحمةً للعالمين.

والماعقل يفهم من هذه الآيات المحكمة أنَّ القرآن هدايةٌ دينيةٌ عربية، وأنه حكومةٌ دينيةٌ عربية، عربية اللسان عامة لجميع شعوب نوع الإنسان، وقد قضى الله تعالى أن يوحد به السنة جميع الأمم، فيجعلهم أمةً واحدةً بالمقاييد والعبادات والآداب والشُّرع واللغة؛ ليكونوا يتَّعَمِّتَ إخواناً.

وقد كتب رسول الله ﷺ كُتُبَهُ إلى قيصر الروم وكسرى الفرس ومقوقس مصر بلغة الإسلام العربية، وكذا الخلفاء الراشدين والصُّحابة والتابعون رضي الله عنهم صدَّعُوا بهذا الأمر، ونشروا هذا الدين بلغته.

فالآية الجليلة تصرِّح بأنَّه يجب على كلِّ فردٍ من أفراد الإنسان أن يعلم أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أرسل محمداً ﷺ إلى جميع الثقلين؛ الإنس والجن، وأوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاقته، وأن يحلُّوا ما حَلَّلَ الله ورسوله، ويحرِّموا ما حرَّم الله ورسوله، وأن يوجبوا ما أوجبه الله ورسوله، فمن لم يؤمن به؛ فهو كافر.

وهذا أصل متفق عليه بين المسلمين أجمعين.

واعلم أنَّ الله تعالى ورسوله ﷺ إنما علَّمَا الأحكام بالصفات المؤثرة فيما يحبه الله تعالى وفيما يبيِّضه، ولم يخصَّ العرب بنوعٍ من أحكام الشُّرع، إذ كانت رسالته ودعوته لجميع البرية عامة، وإنما نزلَ الله تعالى القرآن بلسانهم، وهذا لأجل التبليغ؛ لأنَّه بلغ قومه أولاً، ثم بواسطتهم بلغ سائر الأمم، وأمره الله تعالى بتبليغ قومه أولاً، ثم بتبليغ الأقرب فالأقرب إليه؛ كما أمر بجهاد

الأقرب فالأقرب؛ كما ذكره الإمام أحمد بن حنبل في رسالته «إيضاح الدلالة في عموم الرسالة»^(١).

الآية الثانية عشرة في سورة يونس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَنَيْتُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

قد خاطب الله تعالى النَّاسَ كلَّهم؛ عربهم وعجمهم، أحرَّهم وأسودَّهم وأبيضهم؛ أن ضرَّ بغيكم وظلمكم وشرككم وكُفركم راجعٌ على أنفسكم، فنستحقِّقون غضبَ الله ولعنته وعذابه يوم القيامة، وإنما تتمتعون عدَّةَ أيامٍ في الحياة الدنيا الفانية كالحيوان والوحوش، ثم بعد الموت تُرجعون إلى الله، فيُخبركم بأعمالكم الظَّاهرة والباطنة، فيجازيكم عليها؛ إن خيراً فيخير، وإن شراً فشر، فالناس كلُّ فردٍ منهم مخاطبون ومكلفون ما دام عاقلًا بالغا.

فتدبَّر أَيُّهَا الإنسان حتى لا نصيرَ من أهلِ الخسران.

يا أَيُّهَا الطَّالِمُ الباغي! إنما تَبْنِي في هذه الحياة الفانية عدَّةَ أَيَّامٍ زائلة، ثم تدوَّق عذابه وعقابه أبد الأبدن، وذُخْر الدَّاهرين، بلا انقطاع في دارِ الجزاء.

فالآية قد دلَّت على أنَّ البغي يُجازى أصحابه عليه في الدنيا والآخرة، أمَّا في الآخرة؛ فلا شكَّ فيه البتَّة؛ لأنَّها دارُ الجزاء بلا مراءٍ، وأمَّا في الدنيا فمشاهد معلوم؛ لأنَّه تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا بَنَيْتُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾.

(١) وهي مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل المنبرية، فانظر (٢ / ٩٧-١٥٢) منها.
(٢) يونس: ٢٣.

ويؤيده ويفسره قول رسول الله ﷺ: «مسا من ذنب يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعه الرحم»، رواه البخاري في «الأدب المفرد»، والترمذي، وابن ماجه^(١).

وعن أنس رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث هن رواجع على أهلها: المكْر والنكْت والبغي»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بُغِيَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٢)، ﴿وَمَنْ نَكَتْ فَإِنَّمَا يَنْكُتْ عَلَى نَفْسِهِ﴾^(٣). رواه أبو الشيخ، وابن مردويه^(٤).

والمراد: نكْت المهود مع الله تعالى، وكذا مع الناس.

(١) رواه: البخاري في «الأدب المفرد» (ص ٦٧)، والترمذي (٢٥١٣)، والطبري (٨٨٠)، وأبو داود (٤٩٠٢)، وابن ماجه (٤٢١١)، وابن حبان (٢٠٣٩)، والحاكم (٢ / ٣٥٦)، وأحمد (٥ / ٣٦ و ٣٨)؛ عن أبي بكره القفي؛ بسند صحيح.
وهو في «الإمام»... (٢٠٣٩٠) يسر الله تمامه.

(٣) الفتح: ١٠.

(٤) رواه الخطيب في «تاريخه» (٨ / ٤٥٠) من طريق مروان بن صبيح عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس.

قال الذهبي في «الميزان» (٤ / ٩٠) بعد أن ساقه من طريق أبي نعيم في ترجمة مروان: «لا أعرفه، وله خبر متكرر». ثم أورد له هذا الحديث!

ووافقه الحافظ ابن حجر في «اللسان» (٦ / ١٦)، ووقع في النسخة غلط يصحح من أصله.

وأورد الحديث السيوطي في «الدر المنثور» (٣ / ٣٠٣)، وزاد نسبته للعلمي، ومنه أخذ المصنف تخريجه!

وقد جُرِبَ أَنَّ البغي من أقوى أسباب العداوة والبغضاء بين الأفراد، وإيقاد نيران الفتن والثورات في الأقطار، والباغي لا يعيش، ولا يدوم، ويتلّ عرشه عاجلاً.

وأما بغي أهل أوروبا على أهل آسيا وظلمها عليهم؛ فبسبب ظلم وبغي أهل آسيا على أنفسهم؛ فإنهم غيروا أمر الله، وأشركوا بعبادة الله، واعتمدوا على غير الله من الأموات والأرواح، وتلوثوا بفساد الأخلاق والتقاطع والتخاذل وترك كل ما هدى الله تعالى إليه في كتابه من أسباب السيادة والاستخلاف في الأرض كما نبهنا عليه مراراً، ومن يستخديمونهم من ملوكنا وأمرائنا وحكّامنا هم أشدّ علينا منهم أنفسهم، بل لم يسودونا ولم يغلبونا في قطر من أقطارنا إلا بمساعدة ساداتنا وكبرائنا إياهم علينا، ولو نبأنا نحن إلى الله؛ لتاب الله علينا، ولكن أين نوثنا وقد وُجد في زماننا من هم أشدّ شركاً وكُفراً بالنعم والمُئتمِر الواحد الأحد جلّ جلاله، وهم قوم يدعون غير الله من الأموات في أشدّ أوقات الضيق والشدة والخطر، ويدعون مع ذلك أنهم مسلمون، ويصلون ويحجون، بل يدعون أنهم العلماء والعرفاء والسادات الكاملون؛ لأنهم يظنون بكلمة التوحيد الموروثة بألسنتهم، وهم لا يقولون معناها، ولا يراعون حدودها وحقوقها، والله تعالى يقول: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١).

والعبد الضعيف قد كنت ألفت رسالة في هذه المسألة، وسميتها: «حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت المدة»^(٢)، وهي مطبوعة في

(١) محمد: ١٩.

(٢) وقفت عليها قديمة متآكلة الأوراق، وهي من محفوظات خزانة أخينا الشيخ ربيع ابن هادي.

مصر منشورة، وكذا تفسيري على سورة فاتحة الكتاب «أوضح البرهان في تفسير أم القرآن»، وهذا مطبوع في مكة في مطبعة أم القرى، وكذا رسالتنا المسماة «مفتاح الجنة لا إله إلا الله»^(١)، وكذا «البرهان الساطع في تبرؤ المتبرع من التابع» المطبوعان في مصر، ففي كلها تحقيق هذه المسائل حق التحقيق، فعليك بمطالعتها أيها الطالب للحق، وبالله التوفيق.

الآية الثالثة عشرة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وهذا النداء والخطاب عام شامل أيضاً لعامة الناس كلهم.

وهذا الذي جاء من الله تعالى إنما هو القرآن، وهو موعظة وتذكرة من ربكم الرحيم، وشفاء لما في الصدور والقلوب من أمراض الشكوك والشبه والكفر والشرك والتفاني والمقائد الفاسدة الزائفة، ويحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، ولكنه إنما ينتفع به المؤمنون المصدقون العاقلون، وفي حقهم يكون شفاء وهدى ورحمة.

فآمنوا بالله ورسوله وهذا الكتاب واهتدوا بهديه، وهذا لا شك خير وأفضل من أموال الدنيا وزخارفها الفانية كلها، ولكن أكثر الناس لما لم يؤمنوا بهذا الكتاب ولم يهتدوا بهديه؛ ابتلوا وتلونوا بالشرك وعبادة الأوثان والدجل

(١) وقد جددت طبعها قريباً بتعليقات وتحقيقات مفيدة إن شاء الله، نشر المكتبة الإسلامية، عمان.

(٢) يونس: ٥٧.

والخرافات، فاستحقوا النار وبش المصير.

واعلم أن هذا الكتاب جامع لكل ما يحتاج إليه البشر؛ من موعظة حسنة لإصلاح أخلاقكم وأعمالكم الظاهرة والباطنة، وحكمة بالغة لإصلاح أخفيا أنفسكم وشفاء أمراضها الباطنة، وهداية واضحة للضوابط المستقيمة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة، ورحمة خاصة للمؤمنين هي شجنة^(١) من رحمة رب العالمين العامة للخلق أجمعين؛ يتراحمون بها فيما بينهم، فتكمل بها رحمته تعالى لهم ورحمته تعالى للعالمين برسوله إليهم.

نحسب الله تعالى هذه الكلمات الأربع: «موعظة»، «شفاء»، «هدى»، «رحمة»؛ لتعظيم أمرهن وكمالهن، فيجب الاتمات بها إيماناً وتسليماً؛ لأنها من مالِك أمر الناس ومربيهم بفضلهم ورحمته وعليه حكمته:

الأولى: الموعظة؛ أي: الرصية بالحق والخير واجتناب الباطل والشر بأساليب الترغيب والترهيب التي يرق لها القلب، فتبعث على الفعل أو الترك.

الثانية: شفاء ما في الصدور؛ أي: شفاء جميع ما في القلوب من أدواء الشرك والكفر والتفاني والجهل وسائر الأمراض النفسية التي يضيق الصدر بها؛ من شك في الإيمان، ومخالفة للوجدان، وإضمار للحقد والحسد والبغى، والعدوان، وحب للباطل والظلم والشر، وبغض للخير والحق والعدل.

الثالثة: الهدى، وهو بيان الحق المنقذ من الضلال في الاعتقاد بالبرهان

(١) أي: مشتقة من الرحمن. انظر: «مقاييس اللغة» (٣ / ٢٤٨)، وهذا التعبير مأخوذ من حديث نبوي صحيح، رواه الإمام مسلم (٢٥٥٥) عن عائشة. وفي الباب عن عدد من الصحابة.

وفي العمل بيان الحكم والمصالح في أحكام الأعمال.

الرابعة: الرحمة للمؤمنين، وهي ما تأثيره لهم هداية القرآن، وتفضي على قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة، فمن آثارها: إغاثة الملهوف، وبذل المعروف، وكف الظلم، ومنع التعدي والبغي... وغير ذلك من أعمال الخير والبر ومقاومة الشر.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(١)، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالضَّبَرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾^(٢)، وهذه الرحمة لا توجد على كمالها إلا في المؤمنين المهتدين، ولا يحرمها إلا الكافرون المأذونون.

وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم من أرحم الناس بإخوانهم المؤمنين، مع شدتهم على الكافرين المعاندين؛ كعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي». رواه أبو داود، والترمذي^(٣).

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) البلد: ١٧.

(٣) رواه: أبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٢ / ٣٠١ و ٤٦٦)؛ من طريق منصور بن المعتمر عن أبي عثمان مولى المغيرة عن أبي هريرة.

وهذا سند حسن؛ لحال أبي عثمان؛ فقد روى عنه جمع، وثقه ابن حبان، وصححه له جماعة.

وأورد الحديث الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١ / ٤٧٨) وسكت عنه، وهو دليل الحسن عنه غالباً.

وقال ﷺ: «الرَّاجِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مَّنْ فِي السَّمَاءِ». رواه الترمذي، وأبو داود^(١).

وقد خاطب الله تعالى بهذه الآية أمة الدعوة المحمدية، وهم جميع الناس.

فموعظة القرآن وما فيه من شفاء أمراض الكفر والتفاني والذائل، وهدية إلى الحق والفضائل، موجّهات إلى جميع الناس، وخص المؤمنين بما تنبؤ الثلاث من الرحمة؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بها.

فيا أيها المؤمنون! انتفعوا بمواعظ ربكم، واشتشفوا بها من أمراضكم بسلوك سبيلها؛ كي تكونوا أهلاً لرحمة الله الرحيم، فتفوزوا بسعادة الدارين.

الآية الرابعة عشرة فيها أيضاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ

(١) رواه: أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٢ / ١٦٠)؛ من طريق عمرو بن دينار عن أبي قابوس عن ابن عمر.

وقال الترمذي: «حسن صحيح».

وتعني الحافظ ابن حجر في «الإمتاع بالأربعين المتباينة بشرط السماع» (ص ٦٤) بقوله: «وكانه صححه باعتبار المتابعات والشواهد، وإلا؛ فأبو قابوس لم يرو عنه سوى عمرو ابن دينار، ولا يعرف اسمه، ولم يوثقه أحد من المتقدمين».

قلت: وقد وثقه ابن حبان، فكان الحافظ لم يعتد به! وهو به - في مثله - حقيق!

وانظر: «المجلس الأول من مجالس ابن ناصر الدين» (ص ٥٩ - ٦٩)، و«السلسلة الصحيحة» (رقم ٩٢٥).

ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(١).

يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ آمراً بإيَّاهُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ صِحَّةِ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ الْحَنِيفِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيَّ، وَلَكِنِّي عَلَى يَقِينٍ أَنَّ مَا جِئْتُ بِهِ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَأَنَا لَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ أَنْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوِ الرُّوحَانِيِّينَ أَوِ الْأَوْلِيَاءِ أَوْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ، وَلَكِنْ إِنَّمَا أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ، وَأَنَا مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وهذا الخطاب عام لجميع البشر؛ عربهم وعجمهم، مغربيهم ومشرقيهم، فأكثرُ الناس من الهند والصين والجايبين والإفريقيين والأوروبيين والأمريكان والروسين وأمثالهم لما لم يفهموا كلامَ الله ربهم ولم يعتنوا به؛ لم يعرفوا ربهم حق المعرفة، فأشركوا به شركاء من العلويين والسُفليين؛ تقليداً لأبائهم، أو اكتفاءً بقولهم وآرائهم، فهؤلاء هم الذين لما يرون يوم القيامة أنَّ الحيوانات المُجَمَّمة تصيرُ تراباً بعد القصاص؛ يقولون: يا ليتني كنْتُ تراباً! وأنى لَهُ ذلك؟ بل مصيره إلى النارِ وبئسَ المصير! لماذا؟ لأنهم ضيعوا أهليتهم للإيمان بالله تعالى وفهم كلام ربهم العليم الحكيم. ففتنه أيُّها الإنسان! ولا تُضَيِّعْ أهليتك في الخسران.

(١) يونس: ١٠٤.

(٢) كما حكاه سبحانه عنهم في النبا: ٣٧ - ٤٠، وانظر ما سبق (ص ٢٦).

الآية الخامسة عشرة فيها أيضاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾^(١).

وهذا الخطاب عام أيضاً، قد أمر الله تعالى رسوله محمد ﷺ أن يخبر الناس كلهم ويقول لهم: إِنَّ الدِّينَ الَّذِي جَاءَكُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ فِيهِ، فَمَنِ اهْتَدَى بِهِ وَأَمَنَ وَاتَّبَعَهُ؛ فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ الْإِتِّبَاعَ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَمَّا مَنْ ضَلَّ عَنْهُ وَلَمْ يَهْتَدِ بِهِ وَلَمْ يَتَّبِعْهُ وَتَمَادَى عَلَى كُفْرِهِ وَشُرْكَه وَعَتَادَهُ بِاتِّبَاعِ آبَائِهِ وَأَحْبَارِهِ وَرَهْبَانِهِ؛ فَإِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

فَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ قُلْ لَهُمْ: مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ وَمَوْكَلٍ حَتَّى تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ بِهِ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ، وَالْهُدَايَةُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَزَوَّقَهُ التَّوْفِيقَ؛ يَكُونُ مِنَ الْمُحْظَوِّينَ وَأَهْلًا لِرَحْمَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَرِضَا وَجْهِهِ، وَأَمَّا مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ تَعَالَى؛ فَهُوَ مِنَ الْمَحْرُومِينَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْجَنَّةِ، بَلْ يَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ الْهَالِكِينَ، الَّذِينَ هُمْ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ.

الآية السادسة عشرة في سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَنْذِرْ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ اأَوَّلَمَ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا نَكُم مِنْ زُوالِهِ﴾^(٢).

(١) يونس: ١٠٨.

(٢) إبراهيم: ٤٤.

قد أمر الله تعالى محمداً ﷺ أن يُبَيِّنَ للناس كلهم ويخوفهم عذاب يوم القيامة؛ ليجهلوا في تخلص أنفسهم منه.

وهذا الخلاص إنما يحصل بالإيمان بالله ورسوله وكتابه، والاهتداء به، وأتباعه؛ لأن الظالمين والكافرين سيُندَمُونَ ذلك اليوم لما يرون العذاب، ويقولون: ربنا أخرنا إلى أجل قريب؛ نُجِبْ دَعْوَتَكَ، وَنُؤْمِنُ بِكَ، وَنَتَّبِعَ الرَّسْلَ مُحَمَّدًا ﷺ فَمَنْ قَبْلَهُ، وَلَكِنْ لَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا وظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فِي دَارِ التَّكْلِيفِ، وَافْتَنَرُوا بِدُنْيَاهُمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنْ شُؤْنِ الْمُلْكِ وَالرِّيَاسَةِ وَالْمَالِ وَالجَاهِ وَالْأَنْبِيَاءِ، فَيَقَالُ لَهُمْ: أَوَلَمْ تَكُونُوا أَهْلَ الظَّالِمُونَ الْمُعَانِدُونَ الْكَافِرُونَ الْمُنْكَرُونَ مَعْرُودِينَ وَمَفْتُونِينَ؟ وَتَدْعُونَ أَنْكُمْ عَلَى الْحَقِّ؟ وَتَقْسِمُونَ أَنْكُمْ مُسْتَمْرُونَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقِيدَةِ وَالْمَذْهَبِ وَالْعَمَلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ؟ فَالْيَوْمَ لَا يَنْفَعُكُمْ التَّوْبَةُ وَلَا التَّوْبَةُ؛ لِأَنَّهُ يَوْمَ الْجَزَاءِ.

الآية السابعة عشرة فيها أيضاً: «هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ أُولُو الْأَلْبَابِ»^(١).

يعني أنَّ هذا القرآن العربيّ بلاغٌ للناس كلهم؛ عربهم وعجمهم، شريفهم وغريبهم، يُبلِّغُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ؛ مِنْ إِنْسٍ وَجِنٍّ؛ لِيُخْرِجَ بِهِ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، مِنَ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالشُّكِّ وَالشِّرْكِ وَالْخِرَافَاتِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ وَفَهِمَ مَا فِيهِ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّوَاهِي وَالْحُكْمِ الْإِلَهِيِّ؛ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً، وَمَنْ تَدَبَّرَهُ وَتَذَكَّرَهُ؛ يَعْلَمُ يَقِيناً

(١) إبراهيم: ٥٢.

أَنَّ اللَّهَ إِلَهُ وَاحِدٌ، لَا مَعْبُودَ [يَحَقُّ] سِوَاهُ، كَمَا أَنَّهُ لَا خَالِقَ سِوَاهُ، وَلَا رَازِقَ سِوَاهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

فَيَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنْ فَهِمْتُمْ كَلَامَ رَبِّكُمْ الرَّؤُوفِ اللَّطِيفِ الرَّحِيمِ الْحَكِيمِ؛ فَلَكُمْ الْحِطُّ الْأَوْفَرُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَإِلَّا فَأَنْتُمْ مِنَ الْمُحْرُورِينَ الْخَابِرِينَ.

وهذا الأمر الإلهي يرشدنا إلى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ عَمُوماً، وَالْعُلَمَاءِ وَرُتَّةِ الْأَنْبِيَاءِ^(١) خُصُوصاً، أَنْ يَبْلُغَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ كَلَامَ الْقُرْآنِ إِلَى مَنْ يَلِيهِمْ مِنَ النَّاسِ، وَيُفْهَمُوهُمْ مَعْنَاهُ، وَيُتَّبِعُوا نَتَائِجَ الْعَمَلِ وَالْإِيمَانِ بِهِ، وَيُوضِّحُوا وَخَامَةً حَالِ مَنْ كَفَرَ بِهِ وَخَالَفَهُ أَوْ جَهِلَ مَعْنَاهُ.

وهذا هو الواجب على كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ.

وأما إِذَا لَمْ يُؤَدُّوا هَذِهِ الْوُظُفَةَ، وَتَسَاهَلُوا فِيهِ، أَوْ ضَيَّعُوا أَعْمَارَهُمْ فِي الْفَلَسَفَةِ وَالْأَدْبِيَّاتِ كَمَا هُمْ عَلَيْهِ الْيَوْمَ؛ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ وَعَامَّةَ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، فَتَنَبَّهُ وَتَدَبَّرْ.

الآية الثامنة عشرة في سورة النحل: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»^(٢).

(١) قطعة من حديث رَوَاهُ: أَبُو دَاوُدَ (٣٦٤١)، وَابْنُ مَاجَةَ (٢٢٣ وَ ٢٦٨٣)، وَأَحْمَدُ (١٩٦ / ٥)؛ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.
وأوله: وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَلْتَمِسُ مِنْهُ عِلْماً، وَهُوَ مُخْرِجٌ فِي «الْإِنْتَامِ» (٢١٧٦٣).
(٢) النحل: ٤٤.

وهذا خطاب لرسول الله محمد ﷺ؛ أمراً إياه ليبين للناس كلهم؛ عريهم وعجيبهم، ما أنزل الله تعالى إليه من القرآن، لعل هؤلاء الناس يتفكرون فيه، ويتدبرون معانيه، ويستفهمون بإرشاداته، فيهدوا، فيفوزوا بالنجاة والسعادة في الدارين.

فأنت يا رسولي محمد ﷺ تفصل لهم ما أجيّل، وتبين لهم ما أشكل فالنبي ﷺ قد بين للناس كلهم كل ما في الذكر الحكيم من الأوامر والزواجر والمصالح، فالأحاديث النبوية قولية وفعلية كلها بيان لما في القرآن الحكيم.

فعليك أيها الإنسان أن تتعلم القرآن والأحاديث النبوية بالتدبر والتفكير والفهم والتأمل؛ لتقت على حقائق الدين والإسلام كما هي، وتكون من المحظوظين الفائزين، رزقي الله تعالى وإياك فوز الدارين.

فمن لا يعلم معنى القرآن، ولم يتدارس أحاديث رسول الله ﷺ، ولم يطلع على كتب السنة والصحاح والمسانيد والسني؛ فهو لم يعرف من الدين والإسلام إلا اسمه، كمن اغتر بالقشر الخالي عن اللب، وهذا لا شك من المحرومين؛ لأنه محروم عن فهم الدين، ومحروم عن فهم كلام رب العالمين، ومحروم عن فهم معاني أحاديث رسول الله ﷺ.

فتدبر أيها الإنسان بماذا يمتاز الإنسان عن الحيوان، وبماذا يمتاز الموحد المؤمن عن المشرك الكافر.

الآية التاسعة عشرة في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ ضَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾^(١).

أي: بينا للناس كلهم - عريهم وعجيبهم - الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق، وشرحناه وسطناه من كل وجه؛ من العبر والحكم والأحكام والوعيد والوعيد؛ ليستعملوا عقولهم، ويفهموا ذلك، ولكن أبى أكثر الناس عن الإيمان به، وتدبر معانيه، إلا كفوراً؛ أي: جحوداً للحق وإعراضاً عنه، فبدّلوا نعمة الله كُفراً، واعتدوا على ما كتب أسلافهم من الفلسفة والسفسطة^(٢) من الأشعار والدواوين والأغلوطين^(٣)، وظنوها حكماً وديناً وفضلاً وكمالاً، وبذلك صاروا محرومين عن فهم كلام رب العالمين، وتمادوا على كفرهم وضلالهم وشركهم وهم لا يشعرون، ولهذا يقولون يوم القيامة حين يلقون في جهنم: ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾^(٤).

فمن كان في هذه الحياة الدنيا أعمى عن حُجج الله وآياته وبياناته فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً^(٥)؛ عياداً بالله من ذلك.

(١) الإسراء: ٨٩.

(٢) انظر في بيانها «المنتقى النفيس» (ص ٦٥ - ٦٧).

(٣) هي ما يغلط به من المسائل. «مختار الصحاح» (ص ٤٧٨).

(٤) وفي النهي عنها حديث لا يصح، رواه: أبو داود (٣٦٥٦)، وأحمد (٤٣٥ / ٥)، والطبراني في «الكبير» (١٩ / ٣٨٠)، وسعيد بن منصور في «سننه» (١١٧٩)، وغيرهم؛ عن معاوية، وفي سننه عبدالله بن سعد، وهو مجهول، وهو مخرّج في «الإمام» (٢٣٣٧).

(٥) الأنعام: ٢٣.

(٥) إشارة إلى الآية ٧٢ من سورة الإسراء.

فهذه الآية تنفيذٌ أنه يجب على كل إنسان معرفة ربه، والإيمان به ورسوله، ومعرفة كلامه معرفة تامة، وهذا لا يختص به شخص دون شخص، وفرد دون فرد؛ كما لا يخفى، فتدبر.

والعجب أن كثيراً ممن يدعون العلم والدين ويقرؤون القرآن كثيراً لا يفهمون من معاني القرآن إلا شيئاً يسيراً، ولا يعتنون بفهم معانيه اعتناءهم بفهم كتب الفلسفة والمعميات والألغاز، بل يعتقدون أن فهم معانيه متعذر في هذه الأزمنة؛ لانسداد باب الاجتهاد، وإنما يعرف معنى القرآن والحديث الأئمة المجتهدون، وهم قد انقرضوا منذ تاريخ أربع مئة عام، فنحن لا نعمل إلا بما قاله وكتبه من قبلنا من أئمتنا، فبذلك صاروا محرومين عن فهم كلام ربهم الرحمن الرحيم، فلماذا ترى أن أكثرهم ابتلوا بالشرك الأكبر والكفر الأقيح؛ كدعاء الأموات والاستمداد من أهل القبور وهم لا يشعرون؛ كما لا يخفى على من له أدنى عقل ودين.

الآية العشرُونَ في سورة الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ (١).

فيا أيها الإنسان! إن ربك جل جلاله قد بين للناس في هذا القرآن طريق الحق، ووضح الأمور كلها وفصلها؛ كيلا تضل فتشقى، وأنت تكثير الجدال

(١) الكهف: ٥٤-٥٥

والمعارضة للحق بالباطل، وتقول: إن آباءنا وأسلافنا ما كانوا يعرفون الدين والإسلام قبل أن تعرفه أنت، وإن الشيخ الفلاني كان أعلم منك؛ لأنه كان سيداً عظيماً، وأكبر منك سناً.

فهذه المجادلات الباطلة صار تقليدهم الجامد لأبائهم سبباً لتزكيتهم الإيمان بالله وحده، فهم لا يرجعون ولا يتوبون إلا أن تأتيتهم سنة الأولين - وهي إهلاكهم إن لم يؤمنوا -، أو يأتيتهم العذاب قبلاً؛ كما أهلك قوم نوح بالطوفان وأغرقهم أجمعين.

وهذا ابن نوح رسول الله ﷺ لما لم يؤمن ولم يتب؛ لم ينفعه كونه ابن رسول الله، ففيه عبرة عظيمة للذين يعتمدون على النسب، ويفتخرون بأنهم الأسباط أو الشرفاء، ولا يؤمنون بالله وحده، ولا يمتثلون أمره.

ولهذا قال علي رضي الله عنه:

إِنَّ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ هَا أَنَا ذَا لَيْسَ الْفَتَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي

وقيل:

وَلَا يَنْفَعُ الْأَصْلَ مِنْ هَاطِمٍ إِذَا كَانَتِ السُّفْسُ مِنْ بَاهِلَةٍ
وكما أهلك قوم عاد وثمود وقوم نوح وفرعون وهامان وقارون، وكما أهلك أبا جهل وشيبة وربيعة، وكما أهلك كسرى وقبصر، وهكذا كل ظالم معاند يهلكه الله تعالى ويأخذه أخذ عزيز مقتدر.

فيا أيها الناس! تعلموا كلام ربكم، واتعظوا بمواعظه، واستغفروا على ما مضى من الذنوب، فإن تبتم؛ تاب الله عليكم، وإن أصررتكم على ما أنتم عليه،

واقتنبتم بزخارفكم واختراعاتكم، أو ما علمتم أنها استدراج فتكون سبباً لنداماتكم حيث لا ينفعكم الندم.

الآية الحادية والعشرون في سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

وهذا خطاب عام لجميع الناس، يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم، وأوجدكم من العدم، وصوّرکم فأحسن صوّرکم، وركّب فيكم العقل والفهم والإدراك؛ أي: فاحذروا عقابه بطاعته، فأمنوا به، ووحّدوه، وخصّصوا العبادة له تعالى وحده، ولا تُشركوا به شيئاً؛ لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا، ولا ولياً من الأولياء، ولا تتخذوا له تعالى ندًا، ولا تكونوا ممن يعبد الله على حرف، ولا تجادلوا في الله ودينه بغير علم؛ لأن زلزلة الساعة شيء عظيم.

وهذه الساعة آتية قربة لا ريب فيها، فاحذروا، ولا تتبعوا كل شيطان مريد؛ من الرهبان والأخبار الكاذبين أموال الناس بالباطل، وشيوخ الطرق الدجالين، والسادات الملجدين، والرؤساء الجاهلين، فاتقوا - أيها الناس - ربكم وحده لا شريك له.

فالناس كلهم مخاطبون ومكلفون بفهم هذا الخطاب وأمثاله من الخطابات العمومية، فمن فهمه وعمل به؛ فقد فاز في الدارين، وصار من المحظوظين، وأما من أعرض عن فهمه ولم يعمل به؛ فقد صار من المحرومين الخاسرين،

(١) الحج : ١.

وكذا من غفل ببعضه وخالف بعضه؛ أكثر من يدعي الإسلام من مسلمي هذه الأعصر.

الآية الثانية والعشرون في سورة الحج أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّفُوسٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّفَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ لِّتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ الآية^(١).

وهذا الخطاب عام أيضاً لجميع بني آدم؛ أحمرهم وأبيضهم، وشرفهم وغريبتهم، وإعلام منه تعالى أن كل فرد منهم قد خلقهم الله تعالى وأصله من تراب، وهو آدم أبو البشر عليه الصلاة والسلام، ثم من بعده من نطفة مني يمى. فريث الله تعالى الناس كلهم إلى أن يستعملوا عقولهم، ويستدلوا بوجود أنفسهم وسائر الموجودات على وجود الله تعالى خالقهم ووجدانيته وقدرته وعلمه، وهذا لا يحصل إلا بفهم كلامه العربي المنزل منه تعالى على رسول الله ﷺ.

الآية الثالثة والعشرون فيها أيضاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾^(٢).

أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يخاطب الناس كلهم قائلاً: إنما أنا

(١) الحج : ٥.

(٢) الحج : ٤٩.

لكم نذير مبين؛ أي: إنما أرسلني الله تعالى إليكم جميعاً؛ نذيراً لكم، ومخوفاً
إياكم بين يدي عذاب شديد، فآمنوا بالله وحده، ولا تشركوا به شيئاً؛ لا في
الرُّبُوبِيَّةِ، ولا في الخالقِيَّةِ، ولا في الألوهِيَّةِ والعبادة.

وأما إن لم تؤمنوا ولم توحّدوا؛ فالله تعالى يعذبكم عذاباً شديداً في نار
جهنّم خالدين فيها أبداً، وليس إليّ من حسابكم من شيء، فأمركم إلى الله
وحده، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، فالذين آمنوا وعملوا
الصّالحات لهم مغفرة ورزق كريم، وأما الذين سعوا في آيات الله معاجزين
يُطِطُونَ النَّاسَ عَنْ مُتَابِعَةِ النَّبِيِّ ﷺ والعمل بسنته؛ فأولئك أصحاب النار.

الآية الرابعة والعشرون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ
إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ
الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾^(١).

يخاطب الله تعالى عامّة الناس؛ عربهم وعجمهم، ذكرهم وأنثاهم،
عالمهم وجاهلهم، ويأمرهم بالاستماع له وتفهم ما يقول من المثل.

أن الذين تدعون في عبادتكم أو طلباتكم ونضائ حاجاتكم من دُونِ اللَّهِ
من الملائكة أو الكروبيين أو الروحانيين أو الأنبياء والأولياء أو أيّ مدعو كان، لن
يستطيعوا أبداً، ولا يقدرون قطعاً، أن يخلقوا ذُبَاباً، ولو اجتمع أولهم وآخرهم
لأجل ذلك، والحال أنّه أصغر المخلوقات وأضعفها، وإنما خلقه الله تعالى
لإدلال الجبارين والمتكبرين. ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ

(١) الحج: ٧٣.

ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾.

فيا أيّها الناس! إن كان الأمر هكذا؛ كيف ظنّتم في بعض المخلوقين
واعتقدتم أنّه بضرركم أو ينفعكم أو يقيّدكم من عذاب الله، فعبدتموهم، ونذرتهم
له، أو توجهتم إليه، فاتخذتم هذه الأنداد وهذه الأصنام وهذه الأوثان وهذه
القبور التي بنيت عليها القُبُور والنبات الشامخات^(٢)، وجلستم متوجهين إليها،
راجين منهم وسائلين إليهم وخائفين منهم، وقد أخذ الشيطان عقولكم وزين لكم
الشرك بالله فأشركتم بربكم وأنتم لا تشعرون؛ لأنكم جهلتم معاني كتاب ربكم
الحكيم العليم، وأخرجتم أنفسكم عن حيز الإنسانية إلى خضيض الحيوانية،
بل سعيير الشيطانية، فمثلكم يقولون يوم القيامة حينما يرون الحيوانات تصير تراباً
يساقون إلى جهنّم: يا ليتنا كنّا تراباً؛ لأنكم ظلمتم أنفسكم بتضييعكم أهليّكم
للإيمان بالله وفهم خطابهم، فلا تلوّموا إلا أنفسكم أيّها المجرمون، وتفكروا اليوم
في هذه الأمور تائبين؛ لتدرك ذلك قبل الفوات.

الآية الخامسة والعشرون في سورة الروم: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمْ إِلَّا
مُبْطِلُونَ﴾^(٣).

وهذا التمثيل عام لجميع الناس؛ ليعتبروا ويتعظوا فيهدتوا ويتنفعوا،

(١) وفي كتاب «معارج الألياب في مناهج الحق والصواب» للشمسي تفصيل هذه
المسألة، فانظره بتخريجي، نشر مكتبة المعارف، الرياض.
(٢) الرعم: ٥٨.

ولكن أكثرهم [لم يتعظوا ويهتدوا ويتنفعوا] من خُبث عقيدتهم وتقليديهم لاسلامهم الجاهلين الخاسرين الذين اتخذوا الخرافات والتراث ديناً، ويقولون في حق الرسل الذين جاؤوا بالبينات والحجج الواضحات: ليس هؤلاء إلا مُبطلون مزورون كذابون، كذلك يطعن الله على قلوب الذين لا يعلمون، ولا يطلون علم الدين، ولا يجتهدون لفهم كلام رب العالمين، بل يصرون على الخرافات التي اعتقدوها، والتراث التي ابتدعوها، كما لا يخفى. فتدبر.

الآية السادسة والعشرون في سورة لقمان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَخْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرُّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(١).

وهذا خطاب ونداء عام لكافة البشر؛ أسودهم وأبيضهم وأصفرهم، قد أمرهم الله تعالى بأن يتقوا ربهم الذي خلقهم، ويؤمنوا به، وبكتابه الذي أنزله، ونبيه الذي أرسله، وأمرهم أن يخشوا عذاب يوم الجزاء، ولا يغترون بأولادهم وأموالهم وكثرة أتباعهم؛ فإن في ذلك اليوم لا يخزي والد عن ولده ولا مولود عن والده شيئاً، ولا يسأل حميم حميماً، فقريب في الجنة وقريب في السعير.

وهذا وعد من الله حق لا ريب فيه، فلا تغرركم زينة الحياة الدنيا، وأموالها، وأولادها، وعماراتها الشامخة، وحكوماتها المستبدة، والمذاهب المتبدعة، والطرق المخترعة، وجميع المريدين والأتباع والتلامذة؛ فإنها كلها فانية زائلة، بل غالبها وبالأعلى أربابها، ففي ذلك يقول المغرور الكافر بالله

(١) لقمان: ٣٣.

وكتابه ورسوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي . هَلَكْتُ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾^(٢).

فيا أيها الإنسان! اتق الله حق التقوى، واجتهد في فهم كلام رب العالمين، وامتنال أمره، حتى لا تكون من المحرومين الخاسرين؛ لأن الإنسان - والله العظيم - لفي خسر وخسران؛ إلا الذين جمعوا الأوصاف الأربعة وأصفوا بها، فمن جمعها فهو الناجي الرابع الفالح وصاحب الحظ العظيم.

ولا شك أن ذلك كله موقوف على معرفة معاني القرآن معرفة صحيحة، وهذا لا يحصل إلا بالتعلم، والإنسان أهل لذلك، ولهذا قد خاطبهم الله تعالى وأمرهم ونهاهم، وأما إذا لم يعرف الإنسان معنى كلام ربّه معرفة صحيحة؛ فلا يمكن له عبادة الله حقاً وصدقاً، فلا ينفعه قيامه في الأماكن المقدسة، ولا الطواف حول الكعبة؛ فإن أبا جهل وأبا لهب كانا من ساكنيها، فتدبر.

نحن قد شاهدنا وتجربنا في هذا العصر أن كثيراً من الدجالين، وإن زُطِنوا^(٣) برطانة العرب، ولكنهم يعتقدون أن الرسول ﷺ صلى الله عليه وسلم يعلم الغيب، وأن روح عبدالقادر الجيلاني^(٤) يتصرف في العالم، ويغيث من استغاث به، وهو الغوث الأعظم... وهكذا له أمثلة كثيرة!

ولا شك أن هذا الاعتقاد هو الشرك الأكبر، الذي لا يغفره الله تعالى

(١) الحاقة: ٢٨ - ٢٩.

(٢) تكلّموا.

(٣) توفي سنة (٥٦١هـ)، طوّل الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٢٠ / ٤٣٩ - ٤٥١) ترجمته، وخصمها بقوله: «وفي الجملة: الشيخ عبدالقادر كبير الشأن، وعليه مأخذ في بعض أقواله ودعاويه، والله الموعّد، وبعض ذلك مكذوب عليه». قلت: فمعظم هذه الأحوال التي جيّكت حوله هي من جهل من يتسبون إليه!

أصلاً، ومع ذلك هم مقيمون بالبلاد المقدسة والحرمين الشريفين، فإذا، من لم يفهم القرآن فهماً صحيحاً، ولم يتدبر ولم يتفكر فيه؛ لا ينتفع به كما لا يخفى، فيكون القرآن حجة عليه، ولا يغتر بأقوال الناس إلا المغرور المفتون.

الآية السابعة والعشرون في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

فكافة الأدميين - عربهم وعجيبهم - مكلّفون بالإيمان بمحمد رسول الله ﷺ، وأنه رسول الله، وأن القرآن أنزله الله تعالى إليه وحياً بواسطة جبريل عليه السلام؛ بشيراً للمؤمنين بالرضا والرضا والرضا، ونذيراً للكافرين والزنادقة الملحدين باللعنة والنيان، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك، لغلبة الجهل عليهم، فيخالفون لهذا الرسول، فلا يتبعون سنته، ولا يتعلمون دينه وكلامه، ولو كانوا يعلمون حقيقة الأمر؛ لأمنوا به، وأتبعوا النور الذي أنزله الله تعالى إليه، وتعلموا وتفهموا كلامه بالاعتناء التام، فنبّه.

الآية الثامنة والعشرون في سورة فاطر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ تَتَّقُونَ﴾^(٢).

(١) سبأ: ٢٨

(٢) فاطر: ٣.

هذا الخطاب عامٌ أيضاً لجميع الناس؛ شرقهم وغربهم، عالمهم وجاهلهم، وقد أمرهم الله تعالى جميعاً أن يذكروا ويتذكروا بنعم الله التي أنعمها عليهم؛ فإنه هو الذي خلقهم، ورباهم، ورزقهم، وهما لهم الأسباب، هل من خالق غير الله؟ كلا؛ لا خالق إلا هو وحده لا شريك له، ولا متصرف في الكون إيجاداً وإعداماً إلا هو وحده، فلا تعبدوا إلا هو وحده؛ فإنه المستحق للعبادة حقاً.

فإن كان الأمر في الواقع هكذا؛ فأتى توفكون أنتم أيها المنكرون الجاهلون، وتشاركون به تعالى في عبادته غيره، فتدعون غيره، وترجون من غيره، وتخافون من غيره، وتندرون لغيره، وتحجون لبيت غيره وتطوفون بمرقديه؟ أما تفيقون من سكرتكم؟ أما تيقنون عند حدكم في العبودية له تعالى وحده؟

ولما جهل الناس خطاب ربهم، فضلوا وأضلوا كما هو الشائع الدائع؛ صاروا يعبدون الأصنام والأوثان والأنداد والقبور والمشاهد والأرواح؛ لأنهم ضيعوا عقولهم بتقليد أخبارهم وروايتهم ورسائلهم، فصاروا من المحرومين، وإن ظنوا في هذه الحياة الدنيا أنهم من المحظوظين، والظن لا يُغني عن الحق شيئاً.

الآية التاسعة والعشرون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ . إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١).

(١) فاطر: ٥ - ٦.

هذا خطاب عام أيضاً لكافة البشر أجمعين، وتنبه لهم أن لا يغتروا بهذه الحياة الدُّنيا وزينتها ودولتها وشركتها؛ فإنها كلها ذبَّةٌ فانيةٌ زائلةٌ، وإنما الباقي ما أعدَّه الله تعالى لأوليائه المؤمنين في دار الآخرة من الخير العظيم، ولا يغرنكم الشيطان، ويصرفكم عن الإيمان بالله وحده، وأتباع الرسول ﷺ؛ لأنه هو العدو المبين لكم؛ يجتهد في إهلاككم الأبدى الدائم، فلا تطيعوه أصلاً، بل اتخذوه عدواً؛ لأنه إنما يدعو ويرغب جزئه ومن يطيعه ليكونوا كلهم من أصحاب السعير.

نسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والاتباع لطريق رسوله سيِّدنا محمد ﷺ.

فيا أيها الناس! إن وعد الله حق، فاستعملوا عقولكم، وتعلموا كلام ربكم، وتفهموا خطاب مولاكم؛ طالبين منه التوفيق للعمل به.

الآية الثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ الْوَحِيدَ الَّذِي هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١).

بخاطب الله تعالى عامة الناس كلهم؛ نبيهم ووليهم، وسعيدهم وشقيهم، وكبيرهم وصغيرهم، وغنيهم وفقيرهم، ومملوكتهم ومملوكهم؛ أن كلهم فقراء محتاجون إليه تعالى في وجودهم وحياتهم، وفي جميع حركاتهم وسكناتهم، وأما هو تعالى؛ فهو غني عن العالمين كلهم، فلا تنفعه عبادة العابدين، كما أنه لا يضره كفر الكافرين وشرك المشركين، وإنما

(١) فاطر: ١٥.

ضُررُ قُهرهم وشُرُكهم على أنفسهم، كما أن منفعة طاعتهم وعبادتهم لأنفسهم، والله تعالى حميدُ الفعَالِ في جميع ما يفعلُه ويقدرُه وينشُرُه.

فيا أيها الناس! أطيعوا ربكم، وامتلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وتعلموا كلامه، وتفهموا خطابه؛ لتفوزوا بسعادة الدُّنيا والدين والآخرة.

فيا خسارة من فاته فهم كلام ربِّه! ويا شقاوة من شغل نفسه عن فهم خطاب ربِّه بالفلسفة والسفسطة^(١) والأشعار والألغاز والأساطير والخرافات والترهات!

الآية الحادية والثلاثون في سورة يس: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَإِنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَلَمَّا تَكُونُوا تَعْمَلُونَ﴾^(١).

وهذا خطاب عام لجميع بني آدم بصيغة الاستفهام الإنكاري، وأمر منه تعالى بأنه قد أمر بني آدم أن لا يعبدوا الشيطان، وأن لا يطيعوه في مخالفة الله ومعاصيه؛ لأنه عليه اللعنة عدو مبين لجميعكم، إنما قصده إغواؤكم وإهلاككم بعصيان ربكم الرحمن الذي خلقكم ورزقكم، فاعبدوه وحده.

ألا تعلمون أن الشيطان قد أضل من قبلكم أناساً كثيرين؛ كقوم نوح وإبراهيم وهود وصالح وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام بتزيين الشرك

(١) انظر ما سبق (ص ٦٥).

(٢) يس: ٦٠ - ٦٢.

لهم . وترغيبهم إلى عبادة يَغوْث ويعوف وِدَّ وسواعٍ ونَسْرٍ^(١)؛ كما رُزِنَ للمتأخرين من هذه الأمة عبادة عبدِ القادرِ الجيلانيِّ حتَّى سَمَوْه واعتقدوه غَوْثاً أعظمَ ، وعبادة بهاءِ الدِّينِ النقشبندِيِّ^(٢) واعتقدوه دافعَ البلاءِ ، وعبادة مُعينِ الدِّينِ الجِشنيِّ^(٣) وأحمدَ البدويِّ^(٤) ، وهكذا في كلِّ إقليمٍ وقطرٍ .

فبذلك حصلَ الشيطانُ مراده ، ألا وهو الشُّركُ الأكبرُ باللهِ في عبادته ، بل في ربوبيته وصفاته .

فيا أيُّها النَّاسُ ! ألا تنتبهون من هذه الجهالةِ المهلكةِ ، وتتفكرون في خلقِ السماواتِ والأرضِ ، وفي خلقِ أنفسكم ؟ أفلا تعقلون ؟ أفلا تبصرون ؟ أفلا تستعملون عقولكم ؟!

الآيةُ الثانيةُ والثلاثونُ في سورة الزمر: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^(١) .

يعني : بيِّنا للناسِ كلَّهم - عربهم وعجمهم - في هذا القرآنِ العربيِّ كلَّ شيءٍ بضربِ الأمثالِ لعلَّهم يتذكرون ويتفكرون ويتدبرون ، فيعملوا بإرشاداته ونصائحه ومواظله ؛ لأنَّه قرآنٌ واضحٌ البيان ، لا اعوجاجَ فيه ، ولا انحراف ، ولا

(١) انظر : موارد الأمان . . . (ص ٤٤٦ - ٤٥٤) وتعليقي عليه .

(٢) هما من يعظمهما جملة الأعاجم .

(٣) انظر كتاب «السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة» ؛ ففيه فوائد مهمة حول هذه الشخصية الغلقة!!

(٤) الزمر: ٢٧ - ٢٨ .

لنِّس ، ولا تعقيد ، بل هو بيانٌ ووضوحٌ وبرهانٌ ، وإنَّما جعله اللهُ تعالى كذلك لعلَّهم يتَّقون ، ويحذرون ما فيه من الوعيد ، ويعلمون بما فيه من الوعد .

ولا شك أنَّ الذي لا يفهمُ معناه لا يتذكَّر ولا يتعبَّر ، فلا انتفاعَ به موقوفٌ على فهمِ معانيه فهماً صحيحاً مستقيماً ، بلا عِوَجٍ ولا تأويلٍ ولا تحريفٍ ، فيجبُ على كلِّ الناسِ فهمُهم وتعلُّمُهم والاعتقادُ والعملُ بموجبِهِ ، وألَّا يكونَ محروماً من الإنسانيةِ كما صارَ محروماً من رحمةِ اللهِ وجنتِهِ ، فتنبَّه .

الآيةُ الثالثةُ والثلاثونُ فيها أيضاً : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنْتَ بِمُكِيلٍ﴾^(١) .

يقولُ اللهُ تعالى مخاطباً رسولهَ محمداً ﷺ : إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِهَدَايَةِ جميعِ الناسِ مِنِ الإنسِ والجنِّ والشرقيِّ والغربيِّ ؛ لتنزيهم به حقاً ، فمَن اهتدى وعملَ بما فيه ؛ فمَنفعته راجعةٌ إلى نفسِ ذلكِ المهتدي ، وأما مَنْ ضلَّ وعاندَ وكفرَ ولم يهتدِ به ؛ فإنَّما ضرُّ ضلاله وكفره وجهله على نفسه ، ولستَ أنتَ يا محمدُ موكلًا بهم أن يهتدوا ، وأن يقبلوا ويتعلَّموا ما فيه .

فيا أخي ! إنَّ كانَ اللهُ تعالى أنزَلَ هذا القرآنَ لِهَدَايَةِ جميعِ الناسِ وإرشادهم ؛ فهل يهتدي ويسترشد وينتفعُ مَنْ لا يعرفُ معناه حقَّ المعرفة؟ كلا ، والتراجُعُ لا تُوْثِي تمامَ المعنى أبداً ، فإنَّ جهلَّتْ معاني القرآنِ ؛ فقد ضلَّلتْ ضلالاً مُبيناً ، كأكثرِ الناسِ الذين يعتقدون أنَّ أرواحَ الأولياءِ يعلمون الغيبَ ،

ويتصرفون في الكون، فينبغون من يستغيث بهم، ويضرون أعداءهم، ومع ذلك يدعون أنهم على شيء؛ أي: أنهم عارفون واصلون إلى الله، وأنهم من محبي أولياء الله! ألا إنهم هم الكاذبون والخاسرون؛ لترتيبهم الاهتداء بكلام رب العالمين، واكتفائهم بكلام أناس غير معصومين!

الآية الرابعة والثلاثون في سورة الجاثية: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١).

يعني أن هذا القرآن بصائر للناس كلهم عامة، ولكن إنما ينتفع به من فتح بصره إليه ووجه بصيرته إلى تدبره وتفهم معانيه؛ يعني: أن كونه بصائر وإرشادات عام لعامة البشر؛ شرقهم وغربهم، وأما كونه هدى ورحمة؛ فخاص لقوم يوقنون به، فيعتنون بفهمه وتفهمه.

فالناس كلهم مكلفون بهذا كما لا يخفى، فمن علمه كله وعمل ب كله؛ فهو السعيد في الدارين جميعاً، وأما من علم بعضه وعمل بموجبه؛ فإنه ينتفع على قدره؛ كالإفرنج الذين اعتنوا بما يتعلق بالصنائع، والطبايع، والآلات الحديد، وعدة القوة، والحساب، والهندسة، والتجارة، والسياسة، فتالوا منها على قدر استعدادهم وسعيتهم كما لا يخفى.

وبالجملة؛ فإن معرفة معاني القرآن لازمة على كل إنسان؛ عربهم وعجمهم، وهذا لا شك فيه ولا ريب.

(١) الجاثية: ٢٠

الآية الخامسة والثلاثون في سورة الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِالْإِحْسَانِ إِحْسَانًا خَمَلْتَهُ أُمَّهُ كُرْهًا وَوَضَعْتَهُ كُرْهًا وَخَمَلَهُ وَفَصَلَّهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ الآية^(١).

فالإنسان من حيث إنه إنسان موصى من قبل ربه وأمور بالإحسان إلى الوالدين، فيجب على كل إنسان معرفة هذه الوصية الرثائية، والعمل بموجبها كما لا يخفى، وكما قال الله تعالى في سورة الإسراء^(٢): ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَٰهًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُولُغُنَّ عُتُوكَ الْكِبَرِ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْفَ لَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَخَفَضْ لَهُمَا جَنَاحَ الدَّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا ضَالِّينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا ذِكْرُكَ الْآيَةِ﴾^(٤).

فالإنسان مأمور قطعاً بالإحسان إلى الوالدين وخدمتهما وإرضائهما بما يستطيع، وحرام عليه إيذاؤهما وجفاؤهما وترك خدمتهما، فلماذا قد عد رسول الله ﷺ عقوق الوالدين^(٥) وإيذاءهما من الكبائر والموبقات والمهلكات السبع.

وقد قرّن الله تعالى شكره بشكر الوالدين، وقد ثبت في الصحيح أن الولد البار لوالديه ينال الله رضى الله تعالى، ويكون مجاب الدعوة^(٦)، وهذا هو عين

(١) الأحقاف: ١٥.

(٢) الإسراء: ٢٣ - ٢٥.

(٣) لقمان: ١٤.

(٤) كما رواه: البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧)؛ عن أبي بكرة.

(٥) لعلة يشير إلى قصة الثلاثة الذين أطبقت عليهم صخرة في الغار فدعا كل منهم =

الآية السادسة والثلاثون في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

يخاطب الله تعالى كل الناس جميعاً؛ معلماً إياهم أنه تعالى خلق جميعهم من ذكر وأنثى، وجعل منها زوجها، وهما آدم وحواء عليهما السلام، وجعلهم شعوباً وقبائل.

وأفاد تعالى أن جميع الناس في الشرف بالنسبة الطيبة سواء، لا فضل لعربي على عجمي^(٢) ولا لأبيض على أسود، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي الإيمان بالله، وطاعة الله تعالى، ومتابعة رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾، لا بالأحساب والأموال والأتباع

بصالح عمله، فمما دعا به أحدهم بزه بوالديه، ففرج الله عنهم كربهم.

وسيشير المصنف رحمه الله إلى الحديث الوارد في قصتهم (ص ١٨) فراجع.

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) كما أخرجه أحمد في «مسنده» (٥ / ٤١١) من طريق إسماعيل بن علية عن سعيد الجريزي عن أبي نضرة عن سمع رسول الله ﷺ.

وسنده صحيح، إذ رواية ابن علية عن الجريزي قبل الاختلاط.

وتفصيل تخريجه في «الإتمام لتخريج أحاديث المسند الإمام» (٢٣٥٣٦).

وفي الباب عن عده من الصحابة، فانظر: «مجمع الزوائد» (٨ / ٨٤)، و«الدر المنثور» (٦ / ٩٨).

والأولاد، ولذا قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». رواه مسلم وابن ماجه^(١).

فهذا قد أفادنا الله تعالى أن دين الإسلام مبني على المساواة من حيث الإنسانية والمعيشة الدنيوية ومعاملتها، وإنما يمتاز الفاضل عن المفضول عند الله يوم الدين، فالأكرم ها هنا هو المتقي الذي اتقى الشرك والظلم والكفر والمعاصي، والله تعالى عليم وحكيم وخبير بما في الصدور.

فانظر يا أخي كيف خاطب الله تعالى الناس جميعاً؛ أي: الجنس البشري كله على اختلاف دينه ولغاته وألوانه وتلدانه، ثم أراد أن يربط الناس جميعاً برابطة أقوى من رابطة القرابة والدم، فدعاهم إلى اعتناق دين واحد، وعبادة إله واحد؛ تدعوهم الفطرة السليمة إلى الإيمان به، فيؤلف بين قلوبهم.

فالله تعالى يدعو العالم كله إلى دين واحد، وإلى لغة واحدة، وهو تعالى قد حتم القراءة في الصلاة والعبادات كلها باللغة العربية، فالأمم التي دخلت

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) (٣٤)، وابن ماجه (٤١٤٣)، وأحمد في «مسنده» (٢ / ٢٨٤ و ٢٨٥ و ٥٣٩)، وفي «الزهد» (ص ٥٩)، والبيهقي في «شرح السنة» (٤١٥٠)، وابن حبان (٣٩٤)، وأبو نعيم (٤ / ٩٨ و ٧ / ١٢٤)، وابن المبارك في «الزهد» (٥٤٠)، من طريق جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة.

وقد أعل الحديث ابن أبي حاتم في «علله» (١٨٩٥) بالوقف، فقال: «إنما هو عن أبي هريرة موقوف، حدثنا به أبو نعيم عن جعفر، موقوف».

قلت: لكن الأصم نويح على رقيه.

رواه مسلم (٥٦٤) (٣٣) أيضاً من طريق أسامة بن زيد عن أبي سعيد مولى عبدالله ابن عامر بن كثر عن أبي هريرة مرفوعاً.

ثبت الرفع، ولله الحمد.

في الإسلام. تسارعَتْ إلى تعلُّم اللغة العربية وجذبتها وإجادتها.

ألا ترى الأدلَّس كيف ازدهرت فيها لغة العرب الفُصْحى ازدهاراً رائعاً؟
وبخارى وما وراء النهر كيف نمت فيها لغة الضَّاد؟ والشاهد الإمام أمير المحدثين
محمد بن إسماعيل البخاري، والإمام مسلم بن الحجاج، وأبو عيسى الترمذي،
وأبو داود السجستاني، وأبو عبد الرحمن النسائي، وأبو الليث الفقيه السمرقندي،
وأبو بكر الفُقَّال الشاشي، وبرهان الدين علي المرغيناني صاحب «الهداية»^(١)،
وملك العلماء الكاساني صاحب «البدائع»^(٢) . . . وأمثالهم رحمهم الله تعالى.

ولكنَّ الخلف قد خالفوا السلف، فغيروا، فغيَّر الله عليهم.

وقد كان رسول الله ﷺ خطب يوم فتح مكة قائماً على باب الكعبة وقال:
«يا معشر قريش! إن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء،
الناس من آدم، وآدم من تراب»، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ
مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ . . . الآية.

كذا في «البداية والنهاية» لابن كثير (٤ / ٣٠١)^(٣).

(١) هو من أشهر كتب الأحناف، و«نصب الرتبة» تخريج لأحاديثه.

(٢) هو «بدائع الصنائع»، مطبوع متداول.

وتراجم هؤلاء العلماء مشهورة معروفة.

(٣) روى الحديث: أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٦)، وأحمد (٢ / ٣٦١).

و(٥٢٤) عن أبي هريرة.

وسنده حسن.

وقد صحَّحه شيخ الإسلام ابن تيمية في «إقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٣٥).

الآية السابعة والثلاثون في سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى
جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَنْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١).

يقول الله تعالى: معظماً لأمر القرآن، ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي أن
تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه؛ لما فيه من الوعد الحق، والوعيد
الأكيد، فإذا كان الجبل في غلظه وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع
وتصدع من خوف الله عز وجل؛ فكيف يلقى بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم
وتخشع وتتصدع أفئدتكم من خشية الله وأنتم قد أمرتم الله تعالى بفهمه
وتدبره؟!

فتفكروا أيها الناس! ولا تضيّعوا أهلكم، وأنتم المكلفون بفهم هذا
القرآن والاعتبار بآياته ومواعظه، فإذا تفكرتم وتدبرتم، تعلمون يقيناً أنه لا إله إلا
الله وحده لا شريك له، ولا معبود سواه؛ كما أنه لا خالق سواه، ولا رب سواه،
بل كل ما سواه من الملائكة والمقرَّبِينَ والأنبياء والصديقين والأولياء كلهم
مخلوقون ومربوبون ومحتاجون في حياتهم ومماتهم وحشرهم ونشْرهم إلى الله
تعالى الغنيَّ القادر جلَّ جلاله.

فيا أيها الناس! حيث إنكم جهلتم معاني كلام ربكم، ابتليتم بالذَّاء
الغضال، بحيث صرتم لا تفرّقون بين الخالق والمخلوق، والرَّبِّ والمربوب،
فتعبدون الله وتعبدون المخلوق، وتدعون الله وتدعون المخلوق، فمثلاً تقولون
حينما تقومون من مقعدكم: يا الله! يا رسول الله! وهذا هو الشرك الأكبر الذي

(١) الحشر: ٢١.

لا يغفره الله تعالى أبداً، وذلك أن الله تعالى حي قريب مجيب يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات، وأما رسول الله ﷺ؛ فقد مات، وروحهُ الشريف في أعلى عُلَيين، لا يعلم الغيب، ولا يسمع النداء والدعاء، فإذا نداءً ودعاً في هذه الدنيا هباءً، بل إذا اعتقد القائل بأنه يعلم الغيب أو يسمع النداء؛ فقد أشرك بالله العظيم؛ لتسويته بين الخالق والمخلوق، وبعضهم يقول من نهاية جهله وسخافة حُفَّه: إنه يحب رسول الله، وهذا من محبته، والحال أنه قد خالفه وعصاه بتسويته برَبِّ العالمين الذي لا شريك له، ومحبة رسول الله ﷺ إنما تحصل باتباع سنته، والصلوة والسلام عليه في كل حين.

فيا أيها الإنسان الجاهل! لو تأملت أدنى تأمل، وقلت: يا الله! صل على رسول الله، أو: اللهم صل وسلم على رسولك محمد، أو ما أشبه ذلك؛ لكنت أتياً بالصواب وداعياً بالحق.

الآية الثامنة والثلاثون في سورة الانفطار: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ (الآيات^(١)).

وهذا خطاب تهديد من الله تعالى لكل بني الإنسان: ما خدَعَكَ ومَسَّوَلَ لك الباطل حتى أضعت ما وجب عليك من عبادة ربك وطاعته، ومعرفة أمره ونهيه، وغرَّبَكَ إمهالي إياك، وغرَّبَكَ الشيطان بإيقاع الأمان في قلبك، وغرَّبَكَ الدنيا وزينتها، وغرَّبَكَ الجاه والنسب، حتى نسيت ربك الذي خلقك، وأشركت به في عبادته ودعائه، وسأويت بينه وبين بعض مخلوقاته، ولم تنفكر في نفسك

(١) الانفطار: ٦-٧.

ماذا كنت؟ وماذا تصير؟ ولم تدبر كلام الذي خلقك وجهك إليك ويخاطبك وأمرك ونهاك به، وأنت ساهٍ لاهٍ، فيا أسفى عليك يا عدو نفسك.

فيا أيها الإنسان! إن الله تعالى ربك الحكيم، قد خلقك على هذه الصورة، ومع ذلك أنت ما تعرفه، وتكره، وتكره يوم الجزاء، والحال أن عليك ملائكة مراقبين ومحافظين، يعلمون كل ما تفعل وتقول، ويكتبون كل ما يصدر منك، فيجازيك الله تعالى على ذلك، فيدخل الله تعالى المؤمنين الموحدين المخلصين الأبرار في جنات النعيم، ويجازي الله تعالى الفجار الكفار المشركين في نار الجحيم، ويضليهم على رؤوسهم منكوسين أبد الأبدن ودهر الدهرين، خالدين فيها أبداً، وهذا إنما يكون في يوم الدين يوم الجزاء، وهذا اليوم لا يملك أحدٌ لاحد فيه شيئاً؛ لا والد لولد، ولا عالم لتلميذ، ولا شيخٍ لمرشد، بل ولا نبيٍّ لأتية إلا بإذن الله تعالى وأمره؛ لأن الأمر كله لله، لا شريك له، وأنت أيها الإنسان الجاهل! تغتر بشيخك، أو بمن تعتقده ولياً، وتظن أنه ينفَعُك أو ينقذك من النار ويدخلك الجنة، وإنما هذا صادر من نهاية جهلك، وغاية حماقتك، ولماذا هكذا؟ لأنك محرومٌ من فهم كلام الله رب العالمين، مكتفٍ بالترهات والخرافات ودجل الدجالين، فنتبه.

الآية التاسعة والثلاثون في سورة الانشقاق: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾^(١).

وهذا الخطاب عامٌ لجميع بني الإنسان؛ عربهم وعجمهم؛ يخاطبهم

(١) الانشقاق: ٦.

الله تعالى منها إياهم، فيقول: إنك أيها الإنسان ساع إلى ربك سعياً، وعامل عملاً، فستلاقي ما سعت وعملت من خير وشر؛ يعني: إننا أرشدناك إلى ما فيه سعادتك في الحياة وبعد الممات، فإن أنت عملت بإرشادنا؛ تكون سعيداً، فتعطى كتابك ببينك، وتكون من أهل اليمن، وأما إذا عاندت وعصيت أمرنا أو جهلته؛ فأنت الشقي، فتعطى كتابك من وراء ظهرك أو شمالك، فتكون من أهل الشمال، وتلقى في جهنم سعيراً.

فيا أيها الإنسان! إنك المكلف المخاطب بالإيمان والأعمال، فإن ضيعت أهليتك؛ فأنت أحسن من الحيوان، ولا ينفعك أبناؤك وأموالك ومنصبك وجاهلك التي كنت أنت مغروراً بها ومسروراً؛ لأنه قد نسي ربه، ونسي الرجوع إليه، والحال أنه تعالى بصير به.

الآية الأربعون في سورة الطارق: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝﴾^(١).

وهذا أمر من الله تعالى للإنسان، وكل بني آدم، أن ينظرَ نظر العبرة والاعتبار؛ أنه ممَّ خُلِقَ؟ فليعلم أنه خُلِقَ من ماء دافق؛ أي: فوار خارج بالقوة، وهو المني والطفة، يخرج من صلب الرجل وصدر المرأة عند فيضان الشهوة بينهما، وهذا الماء هو بذر الإنسان، يزرعه الرجل في أرض رحم المرأة، فيخلق الله تعالى منه هذا الإنسان الذي يتكبر ويتختر ويقول أنا وأنا، فينسى ربه الذي خلقه، ويكفر به، ويشرك في عبادته، ولا يؤمن به ولا بكتابه ولا برسوله

(١) الطارق: ٥ - ٧.

ولا باليوم الآخر، ولا يتفكر أن الذي خلقه من ماء دافق لم يخلق عبثاً، بل إنما خلقه ليعرفه ويعبده وحده لا شريك له، ثم يحية ويعيده، فيجازيه على عقيدته وعمله؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وإنما يمهّلهم في الدنيا ويستدرجهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدير.

●●●●●

فاعلم أن هذه الأربعين آية كل واحدة منها موجهة من الله رب العالمين إلى كل فرد فرد من أفراد بني آدم، لا يخرج من هذه الخطابات الصريحة أحد منهم، سواء كانوا عرباً أو عجماً أو من أي جنس كان؛ فارسياً أو هندية، تركياً أو صينية، جاوياً أو جابانياً، رومياً أو بربرياً، حبشياً أو إفريقيّاً، فكلهم مخاطبون بهذه الخطابات، ومأمورون ومكلفون بهذه الأوامر، وهم أهل لذلك، ولو لم يكونوا أهلاً؛ لما خاطبهم الله تعالى، وحيث أنه تعالى خاطبهم وناداهم وأمرهم ونهاهم؛ فقد ثبت أنهم أهل لفهم ذلك والعمل به.

ولا يخرج عن هذا الخطاب أحد من البشر، حيث إنهم بالغون وعاقلون، فلا يخرج أحد أصلاً إلا الصبي والمجنون، وأما العجزة؛ فلا تكون مُسْقِطَةً للتكليف وتوجيه الخطاب وفهمه، فتنبه.

وهذه الخطابات الموجهة إلى كافة بني آدم بلفظ: (وَأَنْتُمْ)، و(كُمْ)، ترجب على كل البشر معرفة كلام ربهم، ولا تغدر أحد بالجهل به^(١)، فهو مسؤول عن إضاعته أهليته.

(١) بتفصيل فقهي عقدي ليس هذا مكانه، وقد أوردنا بعض إخواننا بالتأليف.

ولا شك أن كل إنسان أهل لمعرفة ذلك بالتعليم، وهذا هو الحد الفارق بين الإنسان والحيوانات البهيم، فالإنسان من حيث إنه إنسان قابل للفهم، وأهل للعلم والمعرفة، ومن هذا أخذ الله تعالى العهد من ذرية آدم بأجمعهم، وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟﴾^(١)، فأجابوا بـ ﴿بلى﴾، و﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ؟﴾^(٢).

فتفكر وتدبر وتأمل أيها الإنسان! هل ينادي الله تعالى ويخاطب ويأمر وينهى من لا يفهم الخطاب؟ كلا؛ تعالى الله وتقدس عن العبث، وعما يقوله الظالمون علواً كبيراً، وعما يعتقده المبطلون تنزهاً وتقديساً.

والله العظيم؛ إن الذين يجهلون كلام ربهم، ولا يجتهدون في فهمه ومعرفته؛ فهم المحرومون عن فضل ربهم، والمحرومون من هدايته وتوفيجه وجنته ورضوانه، وهم الذين إذا ألفوا في نار جهنم؛ قال لهم خزنتها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟﴾^(٣) فيقولون: بلى؛ قد جاءتنا النذير، ولكن ما صدقناهم، ولم نعتن بكلامهم!

مع أن هؤلاء المحرومين بتفلسفون في العلوم الفلسفية تفلسفاً، ويدققون تدقيقاً، ويشقرون الشعرة مئة شق، ويعتنون بالأمور الدنيوية والزخارف الفانية اعتناءً عظيماً، ولكن مع ذلك يجهلون كلام ربهم، وأوامر إلههم، فهل يُعذرون بهذا الجهل؟! كلا؛ أبداً لا يُعذرون قطعاً؛ كما روى الإمام البخاري في كتاب

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) يس: ٦٠.

(٣) كما في سورة الملك: ٨.

الرفاق من «صحيحه»^(١) عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أَنَّ قَالَ: «تَرْفَعُ الْأَمَانَةَ، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَخَذَهُ! وَمَا أَعْلَمَهُ! وَلَيْسَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ» الحديث.

وفي «الدرر المنيرة»^(٢) عن «مصنف ابن أبي شيبة» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَجْتَمِعُونَ وَيَصَلُّونَ فِي الْمَسَاجِدِ وَلَيْسَ فِيهِمْ مُؤْمِنٌ».

وفي حديث آخر مرفوع^(٣): «يَأْتِي زَمَانٌ لَا يَبْقَى مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا رُسْمُهُ، وَلَا مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا اسْمُهُ، فيقولون: إِنْهُمْ مُسْلِمُونَ، وَلَا يَعْرِفُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ حَقِيقَتَهُ، وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ مَعَانِيهِ إِلَّا الْبَعْضَ الْبَهِيسَ».

فكل هذا حجة عليهم.

(١) برقم (٦٤٩٧)، واللفظ فيه مختلف جداً، مع طوله، لكن المعنى إجمالاً متفق، فاعمل المصنف يرويه من ذاكرته.

(٢) (٦ / ٥٣).

وهو في «المصنف» (١٩٤٣٢)، و«المستدرک» (٤٤٢ / ٤)؛ بسند صحيح عنه. ورواه ابن عدي (٣ / ١٠٣٨) من الطريق نفسه مرفوعاً، ولا يصح، فقيه رواد بن الجراح؛ صدوق، اختلط بأخرة فترك، وفي حديثه عن الثوري ضعف شديد، فالمحفوظ الموقوف.

، ويعني عنه - مرفوعاً - ما رواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٧٧٣) عن ابن مسعود: «يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ يَجْلِسُونَ فِي الْمَسَاجِدِ جُلُوعاً جُلُوعاً، إِمَامُهُمُ الدُّنْيَا، فَلَا تَجَالِسُوهُمْ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِيهِمْ حَاجَةٌ». وسنده حسن.

(٣) ولكنه ضعيف جداً؛ كما شرحه مطرلاً شيخنا الألباني في «الضعيفة» (١٩٣٦)، وانظر أيضاً «مشكلة المصانيع» (١٩٣٦) وما سيأتي (ص ٣٣٠).

رفع
عبد الرحمن (التجدي)
(أسكنه الله الفردوس)

فصل [الآيات والخطابات القرآنية الموجهة إلى المؤمنين]

وأما الآيات والخطابات والأوامر الموجهة إلى المؤمنين خاصة؛
فكثيرة جداً، لا تحصى على قارىء القرآن، وإنني أذكرها هنا لزيادة البيان،
وجباً لكلام ربنا الرحمن؛ لأن من أحب شيئاً، أكثر ذكره، وإنني أحب ربي
وأحب كلامه، ثم أحب رسوله محمداً ﷺ، وأحب كلامه وأحاديثه أيضاً.

أهل الحديث هم أهل الرسول. وإن

لَمْ يَصْحَبُوا شَخْصَهُ أَفَاسُهُ صَحْبُوا^(١)

وهذا هو الواجب على كل مؤمن ومؤمنة.

ثم بعد ذكر الآيات أُبين ما يتعلق بها من أحاديث رسول الله ﷺ؛
قولية وفعلية، وما ثبت عن الصحابة والسلف الصالحين رضي الله تعالى
عنهم، وجعلنا منهم، وحشرنا في زميرهم؛ بفضلِهِ ومنه آمين.

●●●●●

الآية الأولى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا

(١) سبق لإبراهيم (ص ٤٣)

فيا أخي! بعد أن عَلِمْتَ أَنَّ هذه الخطابات العامة لكافة بني البشر، فهم
بأجمعهم مكلفون بفهم ذلك، والإيمان به، والعمل بموجبه، وبذلك قد قامت
الحجة عليهم، وخصوصاً في هذه الأزمنة الحاضرة، منذ أَلْهِمَ اللهُ تعالى لهم
اختراع هذه الآلات الحديثة (المذياع = الراديو)، فهي تبليغ الأصوات من الشرق
إلى الغرب في حينها، فهم بأنفسهم يتلون القرآن بأصوات موسيقية ونغماتٍ
مصرية^(١)؛ لأغراضهم السياسية، أو للتجارة واكتساب الأموال، فهذه يقيمون
حجة الله على أنفسهم، وهم لا يشعرون، حتى لا يبقى لهم مجال لأن يقولوا ما
جاءنا من رسول. ولا نذير، فسبحان الله الخالق الحكيم.

وإنما كرر الله تعالى هذه الخطابات العمومية في مواضع كثيرة من كتابه
للتقريب؛ كي يقرر الحجة عليهم، ويؤكد تأكيدها، فتنبه وتدبر ولا تكن من
الغافلين المحرومين، والمفتونين الهالكين.

●●●●●

(١) لهمم بهندون، وإلى الحق يرجعون.

وَقُولُوا انظُرْنَا واسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١).

هذا خطاب قد خاطب الله تعالى به المؤمنين بأن لا يقولوا مثل ما قاله اليهود في معاملة رسول الله ﷺ من سوء الأدب، بل عليهم أن يراعوا معه الأدب، ويستمعوا لما يقوله ويلقى إليهم، وأما إساءة الأدب مع رسول الله ﷺ في المخاطبة معه؛ فأنز من آثار الكفر الذي يستحقون به العذاب الأليم، فيجب الاحتراش منه؛ بترك الألفاظ الموهمة للمساواة المنافية للأدب.

ولا شك أن من يعامل أستاذة ومرشده معاملة المساواة في القول والعمل يقل احترامه له، وتزول هيئته من نفسه، حتى تقل الاستفادة منه أو تنعدم؛ لأن المدار في التربية على التأسي والقدوة؛ مثلاً: إن من أراه مثلي لا أراه إماماً وُقدوة لي، فإن رضىته بالمواضعة والتقليد وكذبتي المعاملة؛ فأني قيمة لهذا الرضى؟!

والميزة بما في الواقع ونفس الأمر، وهو أن من اعتقد أن فلاناً فوقه علماً وكمالاً، وأنه في حاجة للاستفادة من علمه وإرشاده وأخلاقه وأدابه؛ فإنه لا يستطيع أن يسوي نفسه به في المعاملة القولية والفعلية.

ولماذا كان ذلك كذلك؟ لأن رسول الله ﷺ إنما يتكلم عن الله عز وجل؛ لسعادة من يستمع ويعقل ويأخذ ما يؤمر به بالأدب، ويسأل عما لا يفهمهم بالأدب، ومن فاته هذه السعادة؛ فهو الشقي.

واعلم أن لمن جاء بعد رسول الله ﷺ حفظاً من هذا الأدب، وليس هو

(١) البقرة: ١٠٤.

خاصاً بمن كان في عصره ﷺ من المؤمنين، فهذا كتاب الله الذي كان يتلو عليهم، وكان يجب الاستماع له والإنصات لأجل تدبره، هو الذي ينلى علينا بعينه، لم يذهب منه شيء، وهو كلام الله الذي به كان الرسول رسولاً تجب طاعته والاهتداء بهديه.

فانظر يا أيها المؤمن إلى الذي يقابله الآخرون به؛ إنهم يلغطون في مجلس القرآن، فلا يستمعون، ولا ينصتون، ومن أنصت واستمع؛ فلما نصبت طرباً بالصوت، واستلذاً بتوقيع نغمات القارئ، وإنما يفعلون ذلك في مجالس الغناء بلا فرق، ولا يلتفتون إلى شيء من معانيه إلا ما يزونه مدعاة لسرورهم مع الغفلة عما فيها من العبرة، أليس هذا أقرب إلى الاستهانة بالقرآن منه بالأدب اللائق الذي ترشد إليه هذه الآية الكريمة وأمثالها وتوعد على تركه بجعله مجاوراً للكفر الذي يسوق صاحبه إلى العذاب الأليم؟!

الآية الثانية فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ^(١)﴾.

قد خاطب الله تعالى المؤمنين؛ عزهم وضمهم، وأمرهم بأن يستعينوا بعلى تكميل الإيمان والثبات عليه بالصبر على جهاد النفس وعلى طعن الأعداء وسفاهة السفهاء؛ فإن أهل الحق يعاديه أهل الباطل وأحزابه، ويؤذونهم في سبيل الحق والدعوة إلى الدين والتوحيد، خصوصاً توحيد الألوهية وتوحيد العبادة والمدافعة عنه وعن أنفسهم، فهو سبحانه وتعالى يأمرهم بالصبر على

(١) البقرة: ١٥٣.

ذلك كله، والدوام والاستمرار على الجهاد بالسَّانِ والبيان والبيان، والصبر على ذلك بالطَّوع والرغبة؛ فإنه تعالى وَعَدَ أَنَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ، والمُشْرِكُونَ يُؤْذِنُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْهُمْ فِي كُلِّ عَصْرِ وَزَمَانٍ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَسْتَعِينُوا فِي مَقَاوِمِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَفِي سَائِرِ مَا يَعْرِضُ لَهُمْ مِنَ الْمَصَائِبِ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ.

أَمَّا الصَّبْرُ؛ فقد ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ سَبْعِينَ مَرَّةً، وَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْأَنْبِيَاءَ كُلَّهُمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَظَمِ أَمْرِهِ، وَكَثْرَةِ نَتَائِجِهِ.

وقد جعل الله تعالى التواصي به في سورة العنكبوت^(١) مقروناً بالتواصي بالحق، إذ لا بدَّ للدَّاعي إِلَى الْحَقِّ مِنْهُ.

والمراد بالصبر في هذه الآيات كلها: مَلَكَ الثَّيَابِ وَالْإِحْتِمَالِ الَّتِي تَهْوُنُ عَلَى صَاحِبِهَا كُلِّ مَا يَلَاقِيهِ فِي سَبِيلِ تَأْيِيدِ الْحَقِّ، وَنَشْرِ الدِّينِ وَالتَّوْحِيدِ.

وإنما يظهر الصبر في ثبات الإنسان على عمل اختياري يُقَصِّدُ بِهِ إِثَابَ حَقٍّ، أَوْ إِزَالَةَ بَاطِلٍ، أَوْ الدَّعْوَةَ إِلَى عَقِيدَةٍ، أَوْ تَأْيِيدَ فَضِيلَةٍ، أَوْ إِجَادَ رِسَالَةٍ إِلَى عَمَلٍ عَظِيمٍ؛ لِأَنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالصَّالِحِ الْعَامَّةِ، هِيَ الَّتِي تَقَابِلُ مِنَ النَّاسِ بِالْمَقَاوِمِ وَالْمُحَادَّةِ الَّتِي يَعرِضُ فِيهَا الصَّبْرُ وَمُصَارَعَةُ الشَّدَائِدِ، فَالثَّابِتُ عَلَى الْعَمَلِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ هُوَ الصَّابِرُ وَالصَّبَّارُ، وَلَيْسَ كُلُّ مُتَحَمِّلٍ لِلْمَكْرُوهِ مِنَ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ مَعَهُمْ، وَيُشْرِكُهُمُ بِالْفَوْزِ، وَالثَّابِتُ عَلَيْهِمْ، بَلْ لَا يَدُّ مِنَ الْعَمَلِ لِلْحَقِّ وَالثَّيَابِ فِيهِ، وَعَلَى ذَلِكَ جَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ عَلَيْهِمُ الرِّضَى وَالرَّضْوَانُ، حَتَّى فَازُوا بِعَاقِبَةِ

(١) «وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ».

الصبر المحمود، ونَصَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مَعَ قَلْبِهِمْ وَصَعَّفَهُمْ عَلَى جَمِيعِ الْأَمْرِ مَعَ قُوَّتِهَا وَكَثْرَتِهَا، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بِالصَّبْرِ فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ.

وَالْمُتَحَمِّلُ لِلْمَكْرُوهِ مَعَ السَّامَةِ وَالضَّجَرِ لَا يُعَدُّ صَابِرًا، وَهُوَ شَأْنُ مُتَنَحِّلِي الْعِلْمِ وَمُدْعِي الصَّلَاحِ فِي هَذِهِ الْأَزْمَةِ، تَرَاهُمْ أَضْعَفَ النَّاسِ قُلُوبًا، وَأَشَدَّهُمْ اضْطِرَابًا إِذَا عَرَّضَ لَهُمْ شَيْءٌ عَلَى غَيْرِ مَا يَهْوُونَ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَمِثْ عَلَى عَمَلِهِ بِالصَّبْرِ؛ لَا يَتِمُّ لَهُ أَمْرٌ، وَلَا يَثْبُتَ عَلَى عَمَلٍ، لَا سِوَا الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ؛ كَرِبِّيَّةِ الْأَمْرِ، وَالْإِنْتِقَالِ بِهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.

وَجِهَ الْحَاجَةُ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ عَلَى تَأْيِيدِ الْحَقِّ وَالْقِيَامِ بِأَعْيَانِهِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ، وَأَمَّا الْحَاجَةُ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِالصَّلَاةِ؛ فَوُجَّهَهَا خَفِيٌّ مُحْجُوبٌ، لَا يَكَادُ يَنْكَشِفُ إِلَّا لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَهِيَ التَّوَجُّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَحُضُورُ الْقَلْبِ مَعَهُ سَبْحَانَهُ، وَاسْتِغْرَاقُهُ فِي الشُّعُورِ بِهَيْبَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكَمَالِ سُلْطَانِهِ، وَهِيَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا: «وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ»^(١)، وَلِأَنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَالْإِنْسَانَ خَلِيقٌ مُلَوَّنٌ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزَعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا، إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ^(٢).

وليست هذه الصلاة هي الصورة المعهودة من القيام والركوع والتلاوة باللسان فقط، والذي نشاهد من المعتادين عليها الإصرار على الفواحش والمنكرات، وارتكاب الآثام والسيئات.

(١) البقرة: ١٧٥.

(٢) كما في سورة الماعج: ١٨ - ٢٣.

وإن الله تعالى مع الصَّابِرِينَ، ولم يَقُلْ: معكم؛ ليفيد أن معونته إنما تمنحهم إذا صار الصَّبرُ وصفاً لازماً لهم، ولكن أكثر من يدعي الإيمان حيث إنه جاهل بمعنى كلام ربِّه، فهو محروم من حقيقة الإيمان الصحيح، والصلاة الصحيحة، فلماذا صار محروماً من نتائج الإيمان والصَّبر والصلاة، فتدبر وكُنْ من المؤمنين الصادقين.

الآية الثالثة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُم لَإِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١).

قد خاطب الله تعالى المؤمنين؛ أمراً بإياهم بالاكل من الحلال الطيب من رزق الله، ولا يضيِّقوا على أنفسهم - مثل متخذي الأنداد - بترك الاكل من الطيبات؛ كترك أكل اللحم، فكلوا واشكروا لله الذي خلق لكم هذه الأشياء، وسهّل عليكم أسبابها؛ بأن تبعوا سنن الحكيمه في طلب هذه الطيبات واستخراجها واستعمالها فيما خلقت لأجله، والشاء عليه جلّ جلاله وعظم نواله، وأن هذه الطيبات من فضله وإحسانه لعباده، والشاء عليه جلّ جلاله وتأيير فيها، ولذلك قال: ﴿إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: إن كنتم تخصصونه بالعبادة والاعتقاد بالانفراد بالسلطة والتأثير؛ فاشكروا لله جلّ جلاله أنّه خلق هذه النعم وأباحها لكم، فلا تجعلوا له أنداداً تطلبون منهم الرزق، أو ترجعون إليهم في التحليل والتحرير، أو ترجون منهم جلب المنافع أو دفع المضار، وإلا كنتم كافرين بالله؛ كالذين من قبلكم؛ جهلوا معنى عبادة الله تعالى، فاتخذوا بينهم

(١) البقرة: ١٧٢.

وبينه وسطاء في طلب الرزق، ورؤساء يحلون ويحرمون.

ومن الشكر له تعالى استعمال القوى التي غدّيت بتلك الطيبات في نفع أنفسكم وأنفسكم، وليس من الطيبات ما يأخذ شيوخ الطريقة من مرديهم من التذوُّر، بل هو من الخبائث والسُّخْت.

ولا يفهم هذه الآية حق فهمها إلا من كان عارفاً بتاريخ الملل والأمم عند ظهور الإسلام وقيله؛ فإنّ المشركين وأهل الكتاب كانوا ورعاً وأصنافاً؛ يحرمون على أنفسهم أشياء، ويعبدون أنفسهم بصوم الدهر، وقد ورثوا هذه الأشياء عن آبائهم الوثنيين، الذين يرون أن التقرب إلى الله تعالى محصور في تعذيب النفس، وترك حظوظ الجسد.

وقد تفضل الله تعالى على هذه الأمة المحمدية بجعلها أمة وسطاً؛ تعطي الجسد حقّه، والروح حقّها، فأحلّ لنا الطيبات؛ لتسبغ نغمه الجسدية علينا، وأمرنا بالشكر عليها؛ ليكون لنا منها فرائد روحانية عقلية، فلم تكن جسمانية محضاً كالأنعام، ولا روحانية خالصة كالملائكة.

فالمؤمنون مكلفون بمعرفة هذه الأشياء، فإذا لم يعرفوها؛ فقد ضيعوا صفة الإيمان، وصاروا من المحرومين من فضائل الإيمان وفهم كلام الله تعالى؛ القرآن.

الآية الرابعة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ

ذلك فله عذاب أليم . ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون^(١).

هذا خطاب خاص من الله تعالى، موجّه إلى المؤمنين، فمن كان مؤمناً؛ فليُعرف خطاب ربه الحكيم العليم؛ فإنه تعالى أرشد عباده المؤمنين إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم في حياتهم ومماتهم، ودنياهم ودينتهم.

وقد فرض الله تعالى الحكيم على المسلمين الحدود؛ من القصاص والرجم والضرب، ولا شك أن القصاص بالعدل والمساواة هو الأصل الذي يربي الأمم والشعوب، وأن تركه بالمرّة يُغري الأشقياء بالجرائم على سفك الدماء، فقتل القاتل هو الذي يربي الناس في كل زمان ومكان، ويمنعهم من القتل؛ إلا إذا رضي أولياء المقتول، وغفروا بعاطفة الرحمة، أو ملاحظة المصلحة بأخذ الدية، فلا تمنعه الشريعة الإلهية، بل ترغّبهم إليه.

وقوله تعالى: ﴿الْحَرْ بِالْحَرْ﴾ الآية، مفهوم اللفظ غير مراد على إطلاقه؛ لأنه قد جرى العمل من عهد رسول الله ﷺ إلى الآن على قتل الرجل بالمرأة، ومنطوق الآية أن الحر يقتل بالحر... إلخ، وأما كون الحر يقتل بالعبد، والرجل بالمرأة؛ فهذا يؤخذ من لفظ القصاص، وصريح النص بالنفس.

ففي إقامة القصاص الحياة الطيبة، وصيانة الناس من اعتداء بعضهم على بعض، وأمرهم بالقتل؛ ليقال القتل أو ينتهي؛ لأن من علم أنه إذا قتل نفساً يُقتل بها؛ يرتد عن القتل، فتُحفظ الحياة، وأما الاكتفاء بالدية أو بالجس والنفي؛ فلا يرد كل أحد عن سفك دم خصمه.

(١) البقرة: ١٧٨ - ١٧٩.

فالآية خطاب وأمر للمؤمنين كلهم، فيجب عليهم أن يستعملوا عقولهم في فهم خطاب ربهم؛ ليعرفوا دقائق الأحكام، وما فيها من المنفعة للأنام، فمن ينكر أو لا يعمل بإجراء القصاص بعد هذا البيان؛ فلا عقل له ولا تبتان، فالحكومات الإسلامية الحاضرة - كمصر وسورية والعراق وإيران وأفغان وتركيا وغيرها - وإن ادّعت أنها إسلامية، ولكنها محرومة من العدل؛ بسبب عدم فهمها معاني القرآن، فاعتبروا يا أولي الألباب والأبصار!

الآية الخامسة فيها أيضاً: ﴿وَمَا إِلَهاَ الَّذِينَ آمَنُوا كَتَبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كَتَبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

قد عاظم الله تعالى المؤمنين كلهم، وأعلمهم أنه قد فرض عليهم الصيام كما كان مفروضاً على الأمم السابقة، فأفاد أنه ركن من أركان الدين، وأنه من أقوى العبادات وأعظم ذرائع التهذيب، وفيه إشعار بوحدانية الدين في أصوله ومقاصده، لا تدخل فيه الكيفية والكمية، وإنما فرض الله تعالى الصيام؛ لأنه يستمد به العبد المؤمن لتقوى الله تعالى، والله غني عن عمن عملنا، وما كتب علينا الصيام إلا لمتفعبتنا.

ومعنى (لعل) الإعداد والتهيئة، وإعداد الصيام نفوس الصائمين لتقوى الله تعالى أنه أمر موكول إلى نفس الصائم، لا رقيب عليه فيه إلا الله تعالى، وسر بين العبد وربه لا يشرف عليه أحد غير سبحانه، فإذا ترك الإنسان شهوته ولذاته لأجل امتثال أمر ربه مدة شهر كامل في السنة؛ لا جرم أنه يحصل له

(١) البقرة: ١٨٣.

من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل مَلَكَه المراقبة لله تعالى ، والحياء منه سبحانه وتعالى أن يراه حيث نهأه ، وفي هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله تعالى أكبر معد للنفوس ومؤهل لها لسعادة الروح في الآخرة وفي الدنيا أيضاً .

انظر: هل يُقَدِّمُ مَنْ تَلَابَسَ هذه المراقبة قلبه على غش الناس ومخادعتهم؟ هل يسهلُ عليه أن يراه الله تعالى أكلاً لأموال الناس بالباطل؟ هل يحتال على الله تعالى في منع الرُّكَاة ، وغدَمَ هذا الركن الركن من أركان دينه؟ هل يحتال على أكل الرُّبَا؟ هل يفتري المتكرات؟

كلاً؛ إن صاحب هذه المراقبة لا يسترسل في المعاصي ، إذ لا يطولُ أمد غفلته عن الله تعالى ، وإذا نسي وألَمَ بشيء منها ؛ يكون سريع التذكُّر ، قريب الفيء والرجوع بالتوبة الصحيحة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْتَرُونَ﴾^(١) .

وهذا هو روح الصَّوم وسره ؛ يورث هذه المراقبة ، وهذا هو معنى كون العمل لله تعالى .

ويؤيدُ هذا ما ورد من الأحاديث المتَّفَق عليها ؛ كقوله ﷺ : «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاجْتِسَابًا ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»^(٢) .

فيا أيها العبد المؤمن ! أنت المخاطبُ بفهم هذه الأشياء ، والعمل بها ،

(١) الأعراف : ٢٠١ .

(٢) رواه : البخاري (٤ / ٩٩) ، ومسلم (٩٥٧) ؛ عن أبي هريرة .

(٣) وانظر كتابنا وصفة صوم النبي ﷺ في رمضان (ص ٢٣ - الطبعة الثانية) ، ففيه زيادة فائدة .

والتَّحَلِّي بتقوى الله تعالى في سرِّكَ وجهرك ، وأما إذا لم تفهمه ، ولم تجتهد في تفهمه ؛ فأنت المحروم من فضل ربِّك ، كما صرت محروماً من فهم كلامه الذي وجهه إليك ، فتنبه وتدبر ولا تكن من المحرومين ؛ كأكثر من يدعي الإسلام من المسلمين الجغرافيين اليوم .

الآية السادسة فيها أيضاً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كُلَّهٖ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾^(١) .

قد خاطب الله تعالى المؤمنين كافةً وعامةً - عربهم وعجمهم ، شريقهم وغريبهم - أمراً يُبَاهِم بأن يدخلوا في حقيقة المسالمة والاتحاد عاقمة ، ويكونوا عباد الله المؤمنين إبتواناً .

وبهذا يرشيدنا الله تعالى إلى أن شأن المؤمنين الاتِّفاق والاتِّحاد والمسالمة ، ولهذا قد قال رسول الله ﷺ : «المسلم من سلِم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هَجَرَ ما نهى الله عنه»^(٢) .

وقد شرَّفَ الله تعالى أهل الإيمان بهذا الخطاب .

و«السلم» : المسالمة ، والانقياد ، والتسليم ، والسلام ، والصلح ، ودين الإسلام .

(١) البقرة : ٢٠٨ .

(٢) رواه البخاري (١ / ٥٠) ، بلفظه ، ورواه مسلم (رقم ٤٠) مقتصراً على الشطر الأول .

فمعنى الآية: تمسكوا واعملوا بجميع شرائع الإسلام.

فهذا يوجب علينا أن ننظر في جميع ما جاء به الشارع^(١) محمد رسول الله ﷺ في كل مسألة؛ قولاً وعملاً، وأن نفهم المراد من ذلك كله، لا أن يأخذ كل واحد بكلمة ويجعلها حجة على الآخر، أو تحكيم الاحتمال بلا حجة ولا دليل، أو تعصب للمذاهب.

والله تعالى يرشدنا بهذه الآية أن نكون نحن المسلمين على منهج واحد في الدين، ونحن نجد في كلام كثير من علمائنا مثل هذا الكلام، والدعوة إلى الاتفاق، ولكن يسد فشو الجهل، وتعصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التي إليها يتسبون، ويواجهها يعيشون ويكرمون، وتأييد الأمراء لهم؛ استعانة بهم على إخضاع العامة، وقطع طريق الاستقلال العقلي والنفسي على الأمة؛ لأن هذا أعون لهم على الاستبداد.

وهذه الآية تنهى على ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾^(٢)؛ أي: أجزاء، حيث آمنوا ببعض وكفروا ببعض، ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ تَنَالُهُمُ الْجُمُوعُ﴾^(٣)، وإنكار على الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض؛ أي: يعملون ببعضه على أنه دين ويتركون بعضاً بالتأويل أو دعوى التسخير.

ولا شك أن الأخذ بالقرآن والدين بجمليته واجب على كل مؤمن، وكذا

(١) من الألفاظ المنهي عنها عند علمائنا. انظر تعليقي على «الفتاوى المهمة» نشر دار ابن الجوزي.

(٢) الجبر: ٩١.

(٣) الجبر: ٩٢.

فهم معناه، وفهم هدايته، فتدبر.

وهذه الآية كآية: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(١)، وكآية: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^(٢).

ولكن؛ يا أسفا! نحن قد خالفنا كل هذه النصوص، ففترقنا، وتنازعنا، وشاق بعضنا بعضاً بشبهة الدين، إذ اتخذنا مذاهب متفرقة؛ كل فريق يتعصب لمذهب، ويعادي سائر إخوانه المسلمين لأجله؛ زاعماً أنه ينصر الدين وهو يخذله بتفريق كلمة المسلمين، هذا سني يقاتل شيعياً، وهذا شيعي ينازل إباضياً، وهذا شافعي يُغري التنازع على الحنفي، وهذا حنفي يقيس الشافعية على الذمية، وهؤلاء مقلدة الخلف يحادون من أتبع طريق السلف^(٣)، وسببه الانحراف عن الصراط المستقيم؛ بسبب الجهل بمعنى كلام رب العالمين؛ اتباعاً لخطوات الشيطان الرجيم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾^(٤)؛ أي: لا تسيروا سيره، ولا تتبعوا سبله في التفرق في الدين.

وتسبل الشيطان وخطواته هي كل أمر يخالف سبيل الحق والخير والمصلحة العامة.

ولا شك أن الذين يتبعون سبيل الله لا يتفرقون في الدين؛ قال الله عز

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) الأنفال: ٤٦.

(٣) وهؤلاء الحزبيون المعاصرون يقع بعضهم ببعض، ويشتم بعضهم بعضاً، ويمزق بعضهم بعضاً!! فلا قوة إلا بالله.

(٤) الأنعام: ١٤٢.

وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (١).

وأهل الحق إذا ذُبحَ فيهم تنازع يرجعون حالاً إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد ﷺ.

فالآيات يُفسَّر بعضها بعضاً، وطريق الحق هو التوحيد والوحدة والإسلام، وطرق الشيطان هي منارات التفرق والخصام، والشيطان يزيّن طريقه.

فيا أيها المؤمن! تفهّم خطاب ربك العليم الحكيم واعمل به؛ تكن سالماً من العذاب والنكال في الدنيا والآخرة، وإلا تكن خاسراً من حزن الشيطان الرجيم، فتنبّه.

الآية السابعة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين من عباده؛ أمراً إياهم بإتقان الأموال في سبيل الله ومريضاته، وإعلاء شرعه وكلماته، ونشر دينه ومصالح عباده المؤمنين، وتربية الأيتام والعاجزين، مما رزقهم الله تعالى في هذه الحياة الدنيا، قبل فوات الفرصة، ولا يغثروا بذخّل الدجالين الذين يفتنون الناس بأنهم وأسلافهم يشفعون في حقهم يوم القيامة، ويفسئون الله العليّ العظيم والغنيّ الحكيم بالمخلوقين من الأمراء والحكام؛ بأنهم بإرشائهم إياهم يستميلونهم؛

(١) الأنعام: ١٥٩.

(٢) البقرة: ٢٥٤.

رعاية لماليهم ودوليتهم، فيظنّ العير المفتون أنّ دار الآخرة كذلك!

فالله تعالى رب العالمين يبهّم بأنّه لا ينفع يوم القيامة لا الأخلاء ولا المشايخ ولا المال ولا السلطان، وإنما ينفع العبد المؤمن إيمانه وعمله الصالح الخالص لله عز وجل، فلا تكفروا نعم الله بالبلخ وتترك الإنفاق في مرضاة الله، ووضعيها في غير موضعها.

والوثنون كانوا يظنون أنّ الإنسان يمكن أن ينجو في الآخرة بفداء يقتدي به أو شفاعة من سلفه السرائين؛ كذاب الأمراء والسلاطين، وفصاري هذا الاعتقاد أنّ سعادة الآخرة هي كالمعروف للعامة من سعادة الدنيا، فمن كان يطلب في الآخرة السعادة؛ فعليه أن يعتمد على أحد المقرئين عند الله؛ ليشفع له هناك.

وقد ردّ الله جلّ جلاله عليهم ردّاً ظاهراً، وأمر المؤمنين مخابياً إياهم أن يطلبوا مرضاة الله بإتقان أموالهم في سبيل الله في هذه الحياة الدنيا، ولا يكونوا كافرين بأصل الدين؛ فإنه لا ينفع يوم القيامة بيع ولا خلة ولا شفاعة.

والحاصل أيها العبد المؤمن! لا تعتمد على مالك، وتجاركت، وجاهك، وشيخك، وأبائك، وعلمك، وفضلك؛ فإنه لا ينفعك شيء من ذلك، بل يكون وبالاً وحسرة عليك، وإنما ينفعك إيمانك بالله، وامتثال أمره خالصاً له، والكافرون لنعم الله وفهم كلامه وامتثال أمره هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم وهم لا يشعرون.

الآية الثامنة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَاةً النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن الأخلاق الذميمة مما يبطل الصدقات والحسنات، ألا وهو المنّ والمنة والأذى، نهى المؤمنين خاضعاً بعد أن رغب إلى الإنفاق في سبيل الله وإعلاء كلمته ومصالح المسلمين؛ لأن الذي يتشغى بما اتفق ونصدق يوم القيامة إنما هو المؤمن بالله واليوم الآخر، المخلص لله تعالى وحده.

ثم مثل الله تعالى الذي يراني أو يؤمن بالتراب والعباء الذي على الحجر الأملس؛ يظن الرائي أنه تراب يصلح للزرع ونحوه، ولكن إذا جاء المطر الشديد؛ أزاله بالكلية، وترك الحجر صلباً، فهكذا لا يقدر المراني والمَنَّان على شيء مما كسب يوم القيامة، حينما يكون أحوج إليه؛ لأن الله تعالى لا يهدي القوم الكافرين إلى الحق، ولا ينور بصرتهم ويصيرتهم؛ لعدم صلاحيتهم للفضل والرحمة.

فيها أيها العبد المؤمن! أنت المخاطب بهذه المواعظ والنصائح، فعليك أن تفهمها وتعيظ بها، وإلا تكن جاهلاً غافلاً، بل كافراً (٢).

ومن نتيجة هذا الجهل نرى أكثر الناس يراوون في الأعمال،

(١) البقرة: ٢٦٤.

(٢) بجمودك لأوامر ربك.

وينظرون بالصلاح والدين لأجل الناس والمصالح الدنيوية، ولذا قل النفع والانتفاع فيما بين الأمم في هذه الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فمعدوم النفع بالكلية؛ لأن شرط قبول العمل ونفعه في الآخرة كونه صادراً عن الإيمان بالله تعالى، ومخلصاً لله تعالى، والمراني والمَنَّان ليس بمخلص، والكافر ليس بمؤمن، «والله لا يهدي القوم الكافرين»؛ لعدم صلاحيتهم، وخيب طيبتهم على ما يعلمه الله تعالى، فتعود بالله من الشرك والكفر والرياء وكل ما يخبط العمل؛ كما نستعيد به تعالى من الشيطان وخطواته وسوايسه والشرك والتفاني.

واعلم أن الإنفاق في سبيل الله من أشق الأمور على النفوس، لا سيما إذا اتسعت دائرة المنفعة الدينية، وأما الإنفاق لهوى النفس؛ فسهل، ولذا ترى الإنفاق لنشر علم الدين قليلاً، وأما لما يُنظر فيه المنفعة الدنيوية من الحساب والفلسفة والإنكليزية؛ فتجده كثيراً معتنى به كل الاعتناء.

المنّ: هو أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه؛ يظهر به تفضله عليه. والأذى أعم منه، ومنه أن يذكر المحسن إحسانه لغير من أحسن إليه، وهذا ربما يكون أشد عليه مما لو ذكره له، أو يتناول عليه بسبب إنبائه عليه. وكل واحد من المنّ والأذى كاف وحده لإحباط العمل وعدم استحقاق الثواب على الإنفاق.

وقد خصّ الله تعالى المؤمنين بهذا الخطاب وأمثاله، ونهاهم نهياً صريحاً أن يبطلوا صدقاتهم بالمنّ والأذى؛ مبالغة في التنفير عن هاتين الرذيلتين.

وقد مضت سنة الله عز وجل بأن الإيمان هو الذي يهدي قلب صاحبه إلى الإخلاص ووضع النفقات في مواضعها، فالكافر بمقتضى هذه السنة محروم

من هذه الهداية التي تجمع لصاحبها بين صلاح القلب والعمل ، وسعادة الدنيا والآخرة .

الآية التاسعة فيها أيضاً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ حَمِيدٌ﴾ (١) .

فقد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ، أمراً إياهم أن يتقوا ويتصدقوا من أطيب أموالهم ، كما أمرهم في الآية السابقة بأن يتقوا بخلوص نياتهم ، وحسن طوياتهم ؛ لنفع عباد الله ؛ طالباً ثوابه من الله عز وجل .

والطيب : هو الجيد المستطاب ، وضده الخبيث المستكبر ، ولذلك قال في مقابل هذا الأمر : ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ ، والطيب الحلال ، والخبيث الحرام .

فينبغي أن يعطي المركزي من أوسط أمواله ، بل من أعلاها ، لا من خشفه وورثته ، ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (٢) .

وكيف تقصدون إعطاء المال الخبيث والحرام والريء الذي في سبيل الله ولستم ترضون لأنفسكم أن تأخذوه إلا إذا تساهلتم مع غمض العين ؟

وأهداء الريء يُشعر بقلّة احترام المُهدى إليه ، ولا شك أن ما يُذل في

(١) البقرة : ٢٦٧ .

(٢) آل عمران : ٩٢ .

سبيل الله وابتغاء مرضاته هو كالمعطي له ، فيجب على المؤمن أن يجعله من أجود ما عنده وأحسنه ؛ ليكون جديراً بالقبول ؛ فإن الذي يقبل الريء مُقبضاً فيه إنما يقبله لحاجته ، والله تعالى لا يحتاج أصلاً ، بل غني عن ذلك وعن كل الأشياء ، ولذلك قال : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ .

ولم يبق بعد هذا الترغيب والترهيب والتعليم الكامل والتأديب الشامل إلا أن يكون المؤمن بهذا الهدي أشد الناس رغبة في الصدقة والإنفاق في سبيل الله بحسب سعته وحاله ، وأن يكون في بذله مُخلصاً متحرراً من مواقع الفائدة ، مبتعداً بعد البذل عما يذهب بصرته من الممن والأذى والرياء ، ولكأنك تجد كثيراً من اللابسين لباس الإيمان يتقلبون في النعم وهم أشد الناس لها كفاً ، إذ كانوا أشد الناس إسكاً وبخلأ .

فاعتبر أيها المؤمن ! وتفهم خطاب رب العالمين ، ولا تضيع أهلك فيما لا فائدة فيه من الأشعار والمدائح والخرافات والترهات وسفاسف الخيالات ، فتكون من المحرومين الهالكين .

الآية العاشرة فيها أيضاً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِخَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (١) .

فقد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين أمراً إياهم بأن يتقوه ، ثم أمرهم بترك ما بقي من الربا الذي كانوا يرايونه في الجاهلية ويتحرزون عنه كل

(١) البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩ .

فبعد هذه التصوص ؛ ألا يجب على المسلمين أن يجتهدوا في فهم كلام ربهم ، ولا ريب أن العمل بلا علم وفهم لا يكون صحيحاً مستقيماً ، ولكن المسلمين في ظلمات الجهالة منغمسون ، وفي رغبات التقليد ملتزمون ، فلماذا تراهم من فهم كلام ربهم محرومين ، وهذه مصيبة عظيمة ابتلي بها المسلمون ، ف ﴿ إِنَّا لِلّهِ وَأَنَا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (١)

(١) البقرة: ١٥٦.

وقد أمر الله تعالى بكتابة الدين والإشهاد عليه وأخذ الرهن إذا لم يتيسر

الاستيثاق بالكتابة والإشهاد، وذلك أن من يصيغ ماله بإهمال المحافظة عليه لا يكون محموداً عند الناس ولا مأجوراً عند الله؛ لأن المال وقاية للحياة والبرّض، وإنما اللازم اكتسابه من طرق الجَلِّ، وإنفاقه في سبيل الخير والبرّ؛ قال الله العزيز الحكيم: ﴿وَلَا تُؤْثِرُوا شُفْعَاءَ أَمْوَالِكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ (١)؛ أي: تقوم وتثبت بها منافعكم ومصالحكم.

والذي الذي أمر الله بكتابه عام يشمل الفرض والسلم وبيع الأعيان إلى أجل، وحيث إن الله تعالى أمر المتدائنين بالكتابة؛ فهذا يستلزم عليهما تعلم الكتابة وإتقانها؛ لأن ما يتوقّف عليه الشيء الضروري ضروري.

وقد أرشد الله تعالى إلى أن يكون بين المتعاملين كاتب يكتب بالعدل بلا ميل ولا حيف، والعدل في الكاتب يستلزم كون الكاتب عالماً بالحقوق والشروط، فالعدل يهدي الكاتب إلى العلم، وأما العلم فلا يهدي إلى العدل، فلهذا لا يقع الفساد من العدل، وإنما يقع الفساد من العلماء الفاعدين لصفة العدالة كما لا يخفى.

وبهذا قد أرشد الله تعالى الأمة الأمية إلى نظام المدنية العليا؛ لحفظ الحقوق والأحكام فيها، حتى لا يقع التنازع، ثم أكد تعالى ذلك بقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا أَنْ تَكْتَبَ صُغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلٍ﴾؛ أي: لا تملأوا ولا تضجروا أو لا تكتسبوا من كتابة الدين والحق، سواء كان قليلاً أو كثيراً.

فهذا دليل ظاهر على أن الكتابة يُعْمَلُ بها، وأنها من الأدلة التي تُعْتَبَرُ عند استيفاء شروطها، ودليل أيضاً على أن الكتابة واجبة في القليل والكثير، ففي

(١) النساء: ٥.

الآية إرشاد إلى عدم التهاون بشيء من الحقوق أن يذهب سدى، وهي قاعدة عظيمة من قواعد الاقتصاد، والعمل بها آية الكياسة والعقل.

﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية؛ الخطاب للمؤمنين، والإشارة في ﴿ذَلِكُمْ﴾ إلى جميع ما ذكر من الأحكام لا لواحد منها، ﴿وَأَقْرَبُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَنْ لَا تُزَيَّلُوا﴾، وأقرب إلى انتفاء ارتياب بعضكم ببعض؛ فإن هذا الاحتياط في كتابة الحقوق، والإشهاد عليها، وتقوى الله، والعدل من المتعاملين والكتاب والشهداء، يمنع كل ريبة، وكل ما يترتب على الارتياح من المفاسد والعداوات والمخاصمات.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ لَا تَكْتُبُوهَا﴾؛ أي: نقداً بنقد، وبدأً بيد؛ بأن يأخذ المشتري المبيع والبائع الثمن، فلا حرج في ترك كتابتها ولا إثم.

ففي نفي الجناح إشارة إلى أن كتابة ذلك أولى وأضبط، فهو إرشاد إلى استحباب ضبط الإنسان لماله وإحصائه لما يرد عليه وما يصدر عنه، وذلك من الكمال المدني، ومن أسباب ارتقاء أمور الكسب والتجارة، ولم يجعل الله تعالى هذا حتماً؛ لأنه مما يشق على غير المرتقين في المدنية، والترخيص فيه دليل على وجوب كتابة الدين المؤجلة، فتنبه.

ثم حتم الله تعالى بالموعظة التي تعين النفس على الامتنال في جميع الأعمال، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: اتقوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه، وهو تعالى يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم، وهو سبحانه العليم بكل شيء؛ فإذا

شرع شيئاً؛ فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد وجلب المصالح لمن أتبع شرعه.

وكثر الله لفظ الجلالة لكمال التذكير وقوة التأثير^(١).

فحيث إن الله خاطب المؤمنين أمراً بإنهم بكتابة الدين وحفظ الحقوق؛ يجب على كل مؤمن عاقل بالغ معرفة هذا الخطاب والعمل بمقتضاه، وليس فيه حرج أصلاً؛ لأن الإنسان قابل للتعليم والفهم، وإن كان يرى في بادية الرأي حرجاً وصعباً، ولكن في الحقيقة هو عين السهولة والسعة واليسر، فالتعلل بالهرج باطل، كما أن التعلل بالهرج في تحريم أنواع الشرك والمعاصي واجتنابها باطل، فكما أنه لا يجوز أن يكون أحد من البشر مشركاً بنوع ما من أنواع الشرك، كذلك لا يجوز أن يغتر في شيء من الحقوق.

فالحق المحتم عليك أيها الإنسان أن لا تصح أهلك لفهم خطاب ربك الذي هو أرحم لك من نفسك ومن والدك، وألا تكون محروماً كالمحرومين من المشركين والمجوس وعبدة الأوثان وسدنة القبور وعبادها، فتكون من أهل الخسران.

ولكن الأسف كل الأسف أن المسلمين محروم أكثرهم من هذه المزية الإنسانية والكمالات المدنية؛ فإن أكثرهم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة،

(١) ومن عجب أن كثيراً من الصوفية - ويتابعهم بعض من عوام المسلمين السذج ومثقتهم - يستدلون بهذه الآية: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ على أن التقوى نور العلم، لذلك تراهم يجتهدون في العبادة؛ تاركين العلم وطلبه! وهذا كله خطأ لغة ومعنى، بل الصواب في تفسير الآية ما ذكره المصنف.

وخصوصاً أهل البدو وأهل القرى، حتى إن من علمائهم من لا يعرف الكتابة، فلهذا قد ضاعت الحقوق فيما بينهم، وكثر التخاصم والدعوى، فشاغ الظلم والعدوان، وأكثر هؤلاء إنما يقرؤون القرآن للتعيش في المحافل والمآتم، ولا يعرفون من معانيه شيئاً، فصار أكثرهم كمثلي الحمار يحمل أسفاره، فداستهم الطائفة التي اتقت هذه الأمور، وعملت بما يتعلل بإصلاح شؤون الحياة البشرية؛ كالإنكليز والأمريكان والروس والفرنسيين، والقرآن الكريم وإن كنا نحن مؤمنين بأنه كلام الله تعالى ونحفظه وتلوّه ونحتمه، ولكن عن فهم معانيه جاهلون، فهو حجة علينا ونحن غافلون.

فيا أيها المسلم! اتق الله من غفلتك، واستعمل عقلك، وتدبر وتفهم كلام ربك؛ لتكون عبداً لله مخلصاً، فيحكك كل حاجاتك دنيًا وأخرى، وينصرك على أعدائك نصراً مبيناً، ﴿أليس الله بكاف عبده﴾^(٢)، ﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾^(٣).

الآية الثانية عشرة في سورة آل عمران: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾^(٤).

قد خاطب الله تعالى المؤمنين محذراً بإنهم عن فتن أهل الكتاب ودسائسهم، وكذا سائر الكفار؛ لأن مقصود الكفار إنما هو إدخالكم في الكفر

(١) الزمر: ٣٦.

(٢) محمد: ٧.

(٣) آل عمران: ١٠٠.

كَأَنفُسِهِمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبْغِيَ مِلَّتَهُمْ﴾^(١).

وقد عَلِمَ بِلَا شَكٍّ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ سَلَكُوا سُبُلَ التَّأْوِيلِ فِي الْكِتَابِ فَحَرَّفُوهُ وَانْصَرَفُوا عَنْ هِدَايَتِهِ إِلَى تَقَالِيدِ وَضَعُوهَا لِأَنفُسِهِمْ، فَإِذَا أُطْعِمُوهُمْ وَسَلَكْتُمْ مَسَالِكَهُمْ فَإِنَّكُمْ تَكْفُرُونَ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ.

والحاصل أَنَّ طَاعَةَ أَهْلِ الْكُفْرِ - أَيِ كَافِرٍ كَانَ - يَرُدُّكُمْ آخِرًا إِلَى الْكُفْرِ، فَالْإِسْلَامُ فِي غَدَمٍ إِطَاعَتِهِمْ، فَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يَطْلُبَ كَافِرًا، وَلَا يَسْكُنَ مَعَهُ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَقْصِدُ إِخْرَاجَ الْمُؤْمِنِ عَنْ إِيمَانِهِ، وَلِهَذَا تَرَى الَّذِينَ أُطَاعُوا الْكُفْرَ وَانْخَدَعُوا بِعَطَايَاهُمْ قَدْ انْسَلَخُوا مِنَ الْإِيمَانِ كَلْبًا أَوْ جُرْتِيًا؛ بِإِذْخَالِهِمْ فِي السُّبُلِ الْمُحَمَّدِيَّةِ مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ كَالرُّهْبَانِيَّةِ، وَالطَّرِيقَةِ الْمُحَدَّثَةِ، وَالْمَذَاهِبِ الْمُخْتَرَعَةِ، وَالْإِنْتِزَاعِ عِنْدَ اللَّقَاءِ، وَاعْتِقَادِ تَصَرُّفِ الْأَرْوَاحِ، وَأَنَّهَا تَعْلَمُ الْغَيْبَ، فَتُعِينُ مَنْ تَحِبُّهُ مِنْ مَخْلَصِيهِ، وَتَضُرُّ مَنْ تُبْغِضُهُ، فَكُلُّ هَذَا نَتِيجَةُ جَهْلِهِمْ بِمَعَانِي أَوْامِرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاسْتِغْلَاطِهِمْ بِغُرُبَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ عِبَادَةِ الْقُبُورِ وَالْأَرْوَاحِ، وَسِدَّةِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ.

الآية الثالثة عشرة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا . وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ

(١) البقرة: ١٢٠.

تَهْتَدُونَ﴾^(١).

قد خاطبَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ، وَنَادَاهُمْ أَمْرًا بِإِيَابِهِمْ بِأَنْ يَقْوُوا حَقَّ تَقْوَاهُ؛ أَيُّ: بِالْعَوَا فِي التَّقْوَى حَتَّى لَا تَتْرَكُوا مِنَ الْمُسْتَطَاعِ مِنْهَا شَيْئًا.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ أَيُّ: اسْتَمِرُّوا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَحَافِظُوا عَلَى أَعْمَالِهِ حَتَّى الْمَوْتِ؛ لِأَنَّ الْمَرَّةَ يَمُوتُ غَالِبًا عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ، فَإِذَا عَاشَ عَلَى الْيَقِينِ وَالتَّقْوَى حَقَّ التَّقْوَى وَالْإِحْسَانَ مَعَ الْإِسْلَامِ؛ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ بِفَضْلِ اللَّهِ الَّذِي أُجْرَى هَذَا مِنْ شَيْئِهِ، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾^(٢)، وَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اعْمَلُوا؛ فَكُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(٣).

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا مَا بِهِ يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، فَقَالَ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾؛ حَبْلُ اللَّهِ هُوَ الْقُرْآنُ؛ كَمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٤)، فَمَنْ كَانَ مُعْتَصِمًا بِهِ؛ كَانَ أَخَذًا بِالْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا الْجَمَاعَةُ فِي نَفْسِ الْإِعْتِصَامِ؛ فَهُوَ يَوْجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَجْعَلَ اجْتِمَاعَنَا وَوَحْدَتَنَا بِكِتَابِهِ، إِلَيْهِ نَجْتَمِعُ، وَبِهِ نَتَّحِدُ، لَا بِجَنَسِيَّاتٍ تَبْغِيهَا، وَلَا بِمَذَاهِبٍ تَبْتَدِعُهَا، وَلَا بِمَوَاضِعَاتٍ نَضْمُهَا، وَلَا بِسِيَاسَاتٍ نَخْتَرُهَا.

(١) آل عمران: ١٠٢ - ١٠٣.

(٢) الليل: ٥ - ٧.

(٣) رواه: البخاري (٥٤٤ / ٧)، ومسلم (٢٦٤٧)؛ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ.

(٤) انظر تخریج الحديث الوارد فيه في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (رقم ٢٠٢٤).

لشيخنا الألباني.

وانظر: الدر المنثور (٢ / ٢٨٤ - ٢٨٦).

ثم نهانا عن التفرق والانقسام بعد هذا الاجتماع والاعتصام؛ لما في التفرق من زوال الوحدة، التي هي مُعْقِدُ الْعُرَّةِ وَالْقُوَّةِ، وبالْعُرَّةِ يعتز الحق فيعملو في العالمين، وبالقُوَّةِ يُحْفَظُ هو وأهلُه من هجمات الوثنيين وكيد الكائدين، وهذا كقولهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١).

فمن هذه السبل المتفرقة إحداث المذاهب والشيع في الدين، ومنها عصبية الجنسية الجاهلية.

وقد اعتصم أهل أوروبا في هذا العصر بالعصبية الجنسية كما كانت العرب في الجاهلية، فسرى سُمُّ ذَلِكَ إلى كثير من مُتَفَرِّجَةِ الْمُسْلِمِينَ، فحاول بعضهم أن يجعلوا في المسلمين جنسيات وطنية؛ مخادعين للناس بأنهم بذلك ينهضون بالوطن، ويعلنون شأته؛ كالأتراك الكماليين^(٢)، فبذلك انخلعوا عن الدين وهم لا يشعرون.

فيا أيها المسلمون! أما تفيقون من سكرتكم؟ وأما تنبهون من غفلتكم، فترجعون إلى كتاب ربكم، وتعلمون أمر مولاكم، فتعصمون بحبله المتين، وتنالون العز والسعادة في الدنيا والدين والأخرة؟ وإلا فيا حسرة عليكم في الدارين! وتكونون العوبة في أيدي المستعمرين البلاشفة^(٣) والإنكليز والأمريكان.

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) نسبة إلى كمال أتاتورك، الذئب الأغر، الذي كان من أسباب تفويض الخلافة العثمانية، وقد هلك قديماً، قاله الله... وقد سار على نهجه ونسقه كثيرون!

(٣) نسبة إلى الثورة البلشفية في روسيا في أوائل هذا القرن.

ولا تغفروا أيها الإخوة المؤمنون برهات المشايخ الدجالين، وأرباب المذاهب الخوانين؛ فإنها لا تُسَمِّنُ ولا تُغْنِي من شيء، وإنما هي عين الضلال والخسران، فتنبه.

الآية الرابعة عشرة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْثَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى المؤمنين وباطنهم بهذه الآية، فنهاهم عن اتخاذهم الأحياب والأصدقاء والوزراء وأهل الشورى من غير المؤمنين؛ من المشركين والوثنيين وأهل الكتاب والملحدِين والزنادقة وعبدَةِ الأرواح والقبور.

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا﴾؛ أي: لا يوقعونكم في الفساد، أو يقصرون في مصالحكم.

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ في الحقيقة هم بمقتضى طبيعتهم يودون عنتكم ومشقتكم الشديدة ووقوعكم في الضيق والضنك، فبذلك يصلون إلى مقاصدهم.

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ﴾ وظهرت من كلماتهم الصادرة ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ من الحسد والعداوة وسوء القصد ﴿أَكْثَرُ﴾ وأشد؛ فإنهم يترصون بكم الدوائر، وهذا قطعي لا شك فيه.

(١) آل عمران: ١١٨.

فحاصل المعنى أن الله تعالى نهى المؤمنين أن يتخذوا لأنفسهم بطانةً وصاحب سرٍّ ومشورة من الكافرين؛ لأنهم لا يألونهم ما استطاعوا خيالاً وإفساداً لأنفسهم إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، ولأنهم يتمنون عنتكم ووقوعكم في الشدة والضرر الشديد والمشقة والضيق، فبذلك يحصلون مرادهم.

وقد أقام الله تعالى العلامات الفارقة بين من يصلح أن يتخذ بطانةً ومن لا يصلح أن يتخذ لخيانته وسوء عاقبة مباطنته، فاعتبروا إن كنتم تعقلون؛ فالذي يصلح للبطانة صاحب عقل ودين وحزم وحلقة ودراية وتجربة، وأما الذي لا يصلح؛ فأجنبي دخيل لا يتصل بصاحب الملك في جنس ولا دين، فمثله كمثل أجير في بناء بيت لا يهتم إلا باستيفاء أجرته إذا صدق في العمل، فهو إذا فقد العيش فارقه وارتد إلى منيته الذي ينتسب إليه، وهذا بمقتضى الطبيعة إذا خلا عن أغراض آخر.

ومن تتبع التواريخ التي تحكي لنا عن سيرة الله في خلقه وتصريفه لشؤون عباده؛ رأى أن الدول في نموها وبسطها ما كانت مصونة إلا برجال منها؛ يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم، وما كان شيء من أعمالها بيد أجنبي عنها، وأن تلك الدول ما انتفض مكانها، ولا سقطت في هوة الانحطاط؛ إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها، وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية في أعمالها؛ فإن ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار.

انظر إلى سقوط الدولة الأموية، ثم سقوط الدولة العباسية، ثم سقوط الدولة التركية العثمانية.

ولهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق من المسلمين،

حيث سلموا أمورهم ووكّلوا أعمالهم للأجانب عنهم، بل زادوا في مولاة الغرباء والثقة بهم، وغفلوا أنهم إذا اتّمتوا خانوا، وإذا عزّزوا أهانوا، يقابلون الإحسان بالإساءة آخراً، والركون إليهم بالجفوة، والثقة بهم بالخدعة.

أما أن لأمراء الشرق أن يدينوا بأحكام الله التي لا تنقُص؟!!

ألم يأن لهم أن يرجعوا إلى جنسهم ووجدانهم؟!!

ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدكم كتاب الله ويتنورون بنوره؟!!

ألم تنبههم الحوادث؟!!

فيا أيها الأمراء العظام! ما لكم وللأجانب عنكم؟! قد علمتم شأنهم؛

مكارون غدارون^(١)!

وعليكم أيها المسلمون أن تعلموا أولادكم معاني كتاب ربكم، فيفهموه ويعملوا به، في كل ما أرشد في الدين والدنيا والتجارة والسياسة والصناعة والهندسة، حتى يفوزوا بسعادة الدنيا، ويعيشوا أحراراً كراماً إلى أن يفوزوا بسعادة الآخرة أيضاً، ولا شك أن كلاً من سعادة الدنيا والآخرة لا تحصل بالأمانى بلا عمل، فعليكم بالعمل بالجد والاجتهاد.

الآية الخامسة عشرة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً

(١) ما أشبه اليوم بالأمس! فليرفعوا من أغتر بهؤلاء، وليرجع من تكذب معهم! ولينب

من وطأ لهم!

فإذا فعلوا ذلك؛ نالوا رضى الله ورضى الناس، وأمنوا عذاب الله وغضبه.

مُضَاعَفَةً وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ^(١) .

فيا أيها الإنسان المصنّف بصفة الإيمان! أعمل عقلك، وافهم كلام ربك، فلا تعامل بالربا، ولا تأكله أضعافاً مضاعفة بمرور الأشهر والسنين، ولا تظلم أخاك بأخذ ماله بغير حق؛ لأن دين الإسلام مبني على تهذيب النفوس، وإصلاح حال المجتمع، لا توفير ثروة بعض الأفراد من أهل الأثرة^(٢)، والإسلام دين إنسانية لا دين الفسوة واليخل واستغلال ضرورة المحتاج .

فيا أيها المؤمنون! اتقوا الله في أهل الحاجة والبؤس، فلا تحملوهم من الدين ما يخرب بيوتهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ في دنياكم بالتراحم والتعاون فتحابون، والمحبة أس السعادة، وأما الكافرون الذين قست قلوبهم، واستحوذ عليهم الطمع واليخل؛ فأعد الله تعالى لتعذيبهم نار جهنم^(٣) .

فأنتم أيها المؤمنون! لا تكونوا مثلهم، بل اتقوا الأعمال التي تصير سبباً لدخول فاعليها نار جهنم، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فيما نها عنه من أكل الربا، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ في الدنيا بما تفيذكُم الطاعة من صلاح مجتمعكم، وفي الآخرة بحسن الجزاء على أعمالكم؛ فإن الراحمين يرحمهم الرحمن جلّ جلاله .

(١) آل عمران: ١٣٠ - ١٣١ .

(٢) هي الأناثية وحسب اللغات .

(٣) قال المصنّف تعليقاً: وجهنم البلاشفة في الدنيا كما ابتلي بها أهل روسيا وبخارى، وأما في الآخرة فنار جهنم الدائمة، أعادنا الله تعالى منها .

الآية السادسة عشرة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا اللَّهَ لَذِينَ كَفَرُوا يَرْدُوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَقْبَلُونَهُمْ خَاسِرِينَ﴾^(١) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منيها إياهم أنهم إذا أطاعوا الكفرة رغبة فيما عندهم من المال والمنازل يردوهم عن دينهم، ويهدمون إيمانهم وهم لا يشعرون، فيقبلون خاسرين؛ كما هو شأن الكفار مع المسلمين في كل زمان ومكان؛ من وقعة أحد إلى الآن، وإلى يوم الدين؛ يعني: إذا أطعتم الكفار، وطلبتم منهم الأمان، وكانت حالكم معهم كحال المغلوب مع الغالب؛ يتولون عليكم حتى يردوكم عن دينكم استدراجاً، فتقبلوا خاسرين للدنيا والآخرة؛ كما صارت حال أمير فرغانة خديا خان، وأمير بخارى وخوارزم عبداً لآل أحمد خان، وعالم خان وإسفنديار خان^(٢) .

وكما نشاهد اليوم أن كثيراً ممن يدعي الإسلام يطبع الكفار ويميل إليهم وينخدع بهم؛ لما عندهم من المال، فينخلعون عن الدين باسم المدنية، ويسلمون أولادهم إلى مدارسهم، فهم يعلمونهم اللادينية والدهرية، وهم لا يشعرون، وإنما يكتفون بالاسم الخالي عن المعنى، فيهدمون الدين هدماً، كما هو مشاهد في أكثر البلدان، فإننا لله وإنا إليه راجعون .

الآية السابعة عشرة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا

(١) آل عمران: ١٤٩ .

(٢) هم بعض أمراء بلاد العجم في آخر القرن التاسع عشر الميلادي .

وما قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ خَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين - ناهياً إليهم - أن لا يكونوا كالكافرين في الاعتقاد الفاسد، والإفساد بين العباد، والكافرون يقولون: لو لم يُسافر فلان لم يمت، ولكن سافروا للتجارة أو للكسب أو للغزو فماتوا أو قُتلوا.

وقد قرّن الله تعالى هذا القول بالكفر؛ للإشعار بأن مثله لا ينبغي أن يصدر عن مؤمن؛ لأنه إنما يصدر عن الكافرين، وقولهم هذا باطل عقلاً ودينياً:

أما عقلاً؛ فإن هذا القول مخالف للمعقول، مصادم للوجود؛ فإن من مات أو قُتل فقد انتهى أمره، وصار قول: (لو كان كذا) عبثاً؛ لأن الواقع لا يرتفع، والحسرة على الفائت لا تفيد، ومن شأن المؤمن أن يكون صحيح العقل، سليم الفطرة، ولذلك قد وجه الله تعالى الخطاب إلى العقلاء، وبين أن أولى الأبواب هم يعقلونه ويتذكرون به ويقبلون هديته.

وقال الله تعالى فيمن لا إيمان لهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ^(٢)﴾.

وأما ديناً؛ فهذا القول يدل على جهل قائله بالدين، أو جحوده؛ فإن الدين يرشد إلى تحديد الأجل، وكونها بإذن الله تعالى كما لا يخفى.

(١) آل عمران: ١٥٦

(٢) الأعراف: ١٧٩

﴿وَاللَّهُ يُخَيِّ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: والحقيقة أن الله تعالى يُحيي من يشاء بمقتضى سُنته في بقاء أسباب الحياة، وإن طوى بالأسفار بساط كل بر، ونَشَرَ شراع كل بحر، وخاض معامع الحرب، وصارع الأهوال والخطوب، ويميت من يشاء بمقتضى سُنته في أسباب الموت، وإن اعتصم في الحصون المشيدة، وحرس بالجنود المجتدة.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فلا يخفى عليه ما تكونون في أنفسكم من الاعتقاد، وما يؤثر في قلوبكم من الأقوال والأحوال، فاحرصوا على أن يكون ترككم لأقوال الكفار ناشئاً عن طهارة نفوسكم من وساويهم.

فيا أيها المؤمنون! اجتهدوا في سبيل فهم كلام ربكم الحكيم، ولا تضيّعوا عمرتكم وحياتكم في القيل والقال من مقالات أصحاب الجحيم.

الآية السابعة عشرة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(١)﴾.

قد نادى الله تعالى المؤمنين وخاطبهم؛ أمراً إليهم بالصبر والدوام على امثال الأوامر، والانتهاز عن المناهي، مع تحمّل ما يلحق من الأذى، والمصابرة في مقابلة الأعداء الذين يقاومونهم؛ ليغلبوا على أمرهم، وربطوا الخيل كما يربطونها؛ استعداداً للجهاد في كل وقت وزمان.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ يكثر الله تعالى من هذه

(١) آل عمران: ٢٠٠

الوصية، ومع ذلك نرى المسلمين قد انصرفوا عنها بئس، حتى صار التقوى عند الناس هو الأهل الذي لا يعقل مصلحته ولا مصلحة الناس، والأبله الذي هو أجهل من جمار توما^(١)، ولا شيء أشأم من فهم التقوى بهذا المعنى، والتقوى: أن تقي نفسك من الله؛ أي: من غضبه وسخطه وعقوبته، ولا يمكن هذا إلا بعد معرفته ومعرفته ما يرضيه وما يسخطه، ولا يعرف هذا إلا من فهم كتاب الله تعالى، وعرف سنة نبيه محمد رسول الله ﷺ، وسيرة السلف الصالحين؛ مطالباً نفسه بالاعتدال بذلك كله، فمن صبر وصابر وربط لأجل حماية الحق وأهله، ونشر دعوته، وأتقى ربه في سائر شؤونته؛ فقد أعد نفسه بذلك للفلاح والفوز بالسعادة عند الله تعالى.

وإرادة الفلاح الدنيوي من هذه الآية ظاهرة؛ فإن الصبر ومصابرة الأعداء والمرايطة والتقوى كلها من أسباب الفوز على الأعداء في الدنيا؛ كما أنها مع حسن النية وقصد إقامة الحق والعدل الذي هو شأن المؤمن من أسباب سعادة الآخرة، وهذه الأعمال كلها اختيارية، داخلة في مقدور الإنسان، ولذلك أمر الله تعالى بها المؤمنين، فعمله إذاً هو سبب فلاحه.

فعليتكم أيها المؤمنون - سواء كنتم عرباً أو عجماً، شرقيين أو غربيين - أن تفهموا أوامر ربكم، فامتثلوها لعلكم تفلحون.

وأما الذي يجهل هذه الأوامر، ويقتصر على صور بعض العبادات، ويقف في التكايا والزوايا؛ فهو لا يفلح أبداً، ولا ينال الخلافة أصلاً، بل ينحصر في زوايا الحرمان خمولاً كما هو المشاهد، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

(١) هو حكيمة مشهورة، يضرب المثل بجهل حمارة!

الآية التاسعة عشرة في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَمْتَلِكُوهُنَّ لَتَذَرِيَنَّكُمْ مَا أَبْتَغَيْنَ نَمًا بِأَيْتِنَ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَتَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا^(١)﴾.

قد نادى الله تعالى المؤمنين، وخاطبهم بهذه الآية عامة؛ من غير فرق بين عالم وجهل، وعربي وعجمي؛ ناهياً إياهم عن العادات الجاهلية، والمعاملات الحيوانية، فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾؛ أي: لا يحل لكم أيها المؤمنون بالله وبما أنزل على رسوله محمد ﷺ أن تستمروا على سنة الجاهلية في هضم حقوق النساء، فتجعلوهن ميراثاً لكم كالأموال والعروض والعييد، وتتصرفن فيهن كيف تشاؤون، فإن شاء أحدكم تزوج امرأة من مات من أقاربه تزوج، وإن شاء تزوجها غيره، وإن شاء أمسكها ومنعها الزواج، وهذا هو العطل، والفضل: التضييق والتشديد؛ أي: لا يحل لكم إرث النساء ولا غصنهن لأجل أن تذهبن ببض ما آتيتوهن من ميراث أو صداق أو غير ذلك.

والخطاب لجميع المؤمنين لتكافلهم، فيضدق بما أعطوه للنساء من ميراث ومهر وزواج وغير ذلك.

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ﴾؛ أي: ظاهرة معلومة؛ كالزنا، والنشوز، وسوء الخلق الفاحش، فإذا أتيت بالفاحشة المبينة دون الظنة والشبهة، وكذا إذا نشز عن طاعتكم بالمعروف المشروع، ولم ينفع معهن التأديب، وساءت

(١) النساء: ١٩.

عشرتهن؛ فلكم حينئذ أن تعضلوهن لتهبوا ببعض ما اتبتموهن من صدقات وغيره.

﴿وعاشروهن بالمعروف﴾؛ أي: يجب عليكم أيها المؤمنون أن تحببوا عشرة نسايتكم، وهن يعاشرنكم كذلك.

فيا أيها المؤمن! أنت المخاطب بهذه الأوامر، وأنت الملزوم بالعمل بهذه الفضائل ومكارم الأخلاق، فعليك السعي للتعلّم حتى تفهم أوامر ربك، وترتقي من حيز الحيوانية إلى أعلى درجات الإنسانية، فتعيش سعيداً، وتصير عائلتك سعيدة، ويصير أولادك سعداء.

الآية العشرون فيها أيضاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ بينكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾^(١).

قد نادى الله تعالى المؤمنين وخاطبهم مخلصاً إليهم بالنهي عن أكل أموال إخوانهم المؤمنين بالباطل؛ أي: لا يأكل بعضكم مال بعضٍ بغير حق، وإنما أضاف الأموال للجميع للتنبيه على تكافل الأمة في حقوقها ومصالحها، كأنه تعالى يقول: إن مال كل واحد منكم هو مال أمتكم، فإذا استباح أحدكم أن يأكل مال الآخر بالباطل؛ كان كأنه أباح لغيره أكل ماله وهضم حقوقه؛ لأن المرة كما يدين يدان، فيجب على صاحب المال الجائز له بذله أو البذل منه

(١) النساء: ٢٩.

للمحتاج، فكما لا يجوز للمحتاج أن يأخذ شيئاً من مال غيره بالباطل، كالسرقة والغصب والنهب والغدر والغش، لا يجوز لصاحب المال أن يبخل عليه بما يحتاج إليه.

والإسلام لم ينج للمحتاج أن يأخذ ما يحتاج إليه من أيدي أصحاب الأموال بدون إذنهم وبدون رضاهم؛ لأن في ذلك مفسدة عظيمة، وتكال الكسالى على كسب غيرهم، فيه فساد نظام الاجتماع، وانحطاط البشر، فيؤدي إلى القوض في الأموال، والضعف والثواني في الأعمال، والفساد في الأخلاق والأداب؛ كما لا يخفى على أولي الألباب، فوجب أن لا يأخذ أحد مال أحدٍ إلا بحق، أو يبذل صاحب المال ما شاء عن كرم وفضل، فمتى يعود المسلمون إلى دينهم، ويكونون حجة له على جميع الملل؛ كما كان سلفهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم، فيقيموا المدنية الصحيحة في هذا العصر كما أقامها أولئك الأبرار في عصورهم؟

ويدخل في الباطل: الغصب، والسرقة، والغش، والبداع، والربا، والغبن، والتغريب، ونحوها.

﴿إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ بينكم﴾؛ أي: لا تقصدوا إلى أكل أموال الناس بالباطل، ولكن اقصدوا أن تربحوا بالتجارة التي تكون صادرة عن التراضي منكم، وتخصيص التجارة بالذكر دون سائر أسباب الملك لكونها أكثر وقوعاً وأوفقاً لذوي المروءات.

﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾؛ ظاهر الآية أن النهي إنما هو عن قتل الإنسان لنفسه، وهو الانتحار، والمتبادر من الأسلوب أن المراد لا يقتل بعضكم بعضاً،

وهو الأقوى، واختير هذا التعبير للإشعار بتعاون الأمة وتكافلها ووحديتها، فلا تقتلوا أنفسكم حقيقة بالانتحار، ولا مجازاً يقتل بعضكم لبعض، فبرئدنا الله تعالى إلى أنه يجب علينا أن نحترم نفوس الناس بجعلها كنفسنا، فاحترامنا لنفوسنا يجب أن يكون أولى، فلا يُباح بحال من الأحوال أن يقتل أحد نفسه؛ كأن يبخسها لستر يخ من الغم وشقاء الحياة، فمهما اشتدت المصائب على المؤمن؛ فإنه يصبر ويحتسب ولا ينقطع رجاءه من الفرج الإلهي، ولذا نرى يخ النفس والانتحار^(١) يكثر فيما بين الكفار، حيث يقل الإيمان، ويفشو الكفر والإلحاد، ومن فوائد الإيمان مدافعة المصائب والأكدار، فالمؤمن لا يتألم من يؤس الحياة كما يتألم الكافر.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾؛ لأن فيما نهاكم عنه حفظ دماosكم وأموالكم التي هي قوام مصالحكم ومنافعكم، فيجب أن تتراحموا فيما بينكم، ويكون كل منكم عوناً للآخرين على حفظ النفس، ومدافعة رزايا الدهر، ومن يرتكب تلك المنهيات عدواناً وظلماً فسوف نُصليه ناراً

ولا يشك ذو عقل وإيمان وله خبرة بمعاني كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ أن من جملة أكل أموال الناس بالباطل ما يأخذ مشايخ الطرق من مرديهم، وما يأخذ سدنة القبور من زائريها وتادريها، وما يأخذ ويأكل أصحاب التكايا والزوايا أصحاب البطالة والكسالى، وما يأخذ قراء القرآن

(١) وقد صرح عن النبي ﷺ قوله: «من قتل نفسه بحديدة؛ فحديده في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً». أخرجه: البخاري (١٠ / ٢٦١)، ومسلم (١٠٩)؛ عن أبي هريرة.

لأجل قراءتهم؛ بشرط إهداء ثواب القراءة لمن يريد المستاجر؛ كما هو مبين مشروح في كتب العلماء الأعلام.

الآية الحادية والعشرون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْياً إِلَّا غَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَأَسْتُمُ السَّاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾^(١).

قد خاطب الله تعالى عباده المؤمنين - غرباً كانوا أو عجماً - ناهياً إياهم عن قربان الصلاة وهم سُكَارَى لا يعلمون ما يقولون، وهذا التعليل للتهيؤ بفيد أن العلم بما يقوله الإنسان في الصلاة من تلاوة وذكر واجب أو شرط، والعلم فهمة، وهذا يدل على وجوب معرفة اللغة العربية على كل مسلم لفهم ما يقول في الصلاة.

فتبها أيها المسلم! وتدبر أيها المؤمن! هل لك من نصيب من فهم كلام ربك الحكيم؟ فإن كنت ذا نصيب؛ فاحمد ربك، واستزِد من ذلك، وأما إذا لم يكن لك نصيب منه؛ فأنت من المحرومين، فتب إلى الله توبة صحيحة، واجتهد في تعلم كلام ربك وفهمه بغاية جهدك، عسى الله تعالى أن يرزقك علماً نافعاً، وفهماً مستقيماً، وأما إذا لم تُتب، وأصررت على ما أنت عليه من الجهل؛ فأنت من الخاسرين في الدارين، ولا ينفعك ما تعلّمت من الفلسفة،

(١) النساء: ٤٣.

أو ما ضيّعت فيه عُمُركَ من دواوين الأشعار؛ كأكثَرِ البخاريين الذين ضيّعوا أعمارهم في ديوانٍ ميرزا بيدل، الذي يقرُّ في ديوانه أن أصل الإنسان كان قرداً^(١)، وأن اللحية للرجال ليس لها شيء غير التشويش! فلماذا ترى وتشاهد أكثرهم في أول حزب الشيوعية دخولاً حينما أعلنت روسيا الشيوعية^(٢)؛ لأن لهم قابلية تامّة لقبولها؛ كما لا يخفى على الخبير.

وأما باقي مسائل الجنبات والغتسال منها والتميم في حال المرض والسفر وعند عدم وجود الماء وكيفية؛ فمعلومة وبيّنة في كتب الفروع.

الآية الثانية والعشرون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٣).

قد نادى الله تعالى عباده المؤمنين وخطبهم عموماً؛ أمراً بإياهم بأن يطيعوا الله تعالى، والطاعة هي العمل بكتابه العزيز، ويطيعوا الرسول، وهي العمل بسنته؛ لأنه هو الذي بيّن للناس ما أنزل الله تعالى إلى الناس من الكتاب.

(١) كما قرّنته (١) نظرية دارون البائدة، التي تراجع عنها أصحابها وتركها أربابها، ومع ذلك؛ فلا تزال نسمع إلى الآن من يتغنّى بها من جهة المتشبهين بأسماء إسلامية!!
(٢) والآن... سقطت الشيوعية! وعلى يد من؟! على يد دعايتها ومؤسسيها، بعد أن أسقط في أيديهم، وعلموا من أنفسهم فسادها وكسادها، فالحمد لله الذي أراح المسلمين منهم.
(٣) النساء: ٥٩.

وقد أعاد الله تعالى لفظ الطاعة لتأكيد طاعة الرسول ﷺ؛ لأن دين الإسلام دين توحيد محض، لا يجعل لغير الله أمراً ولا نهياً ولا تشريعاً ولا تأثراً، والرسول ﷺ إنما يبيّن ما شرّعه الله تعالى لنا من الدين والشريعة.

مثال ذلك: أن الله تعالى هو الذي شرّع لنا عبادة الصلاة وأمرنا بها، ولكنه لم يبيّن لنا في الكتاب كيفيةها وعدّة ركعاتها، ولا ركوعها وسجودها، ولا تحديد أوقاتها، فينبغي رسول الله ﷺ بأمره تعالى إياه بذلك، فقال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(١).

واعلم أن أهل الجاهلية وأهل الكتاب كانوا يؤمنون بالجنّ والطاغوت، فيتحاكمون إلى الكهّان والأحبار، ويجعلونهم شارعاً، وطواغيتهم رؤسائهم الذين يحكمون فيهم بأموالهم، وكانوا يقولون: إن هؤلاء الرؤساء أعلم منا بالتوراة وبمصلحتنا.

قاله تعالى قد بين لنا حالهم، وفرّقه ببيان ما يجب أن ننسب عليه في الدين والشريعة والأحكام، حتى لا نضل كما ضلّ المشركون وأهل الكتاب الذين اتخذوا أفراداً منهم أرباباً إذ جعلوهم شارعين، فقال الله تعالى: ﴿اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

وقد اختلف المفسرون في أولي الأمر:

فمنهم من قال: هم الأمراء من المسلمين بشرط أن لا يأمرُوا بمعصية ومحرّم.

(١) رواه البخاري (٢ / ٩٢) عن مالك بن الحويرث.

ومنهم من قال: هم العلماء؛ لأن العلماء هم الذين يمكنهم أن يستنبطوا الأحكام غير المنصوصة من الأحكام المنصوصة.

ومنهم من قال: هم الذين يناط بهم النظر في أمر إصلاح الناس ومصالحهم.

والأقرب إلى الصواب أن أولي الأمر جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين، وهم العلماء والأمراء والحكام ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة، فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر أو حكم؛ وجب أن يطاعوا فيه، بشرط أن يكونوا مئة، وأن لا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسوله ﷺ التي عرفت بالتواتر، وأن يكون ما يتفقون عليه من المصالح العامة، وأما العبادات وما كان من قبيل الاعتقاد الديني؛ فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد، بل هو مما يؤخذ عن الله ورسوله فقط، ليس لأحد فيه رأي إلا أن يكون في فهمه.

وإذا لم يكن الأمر منصوباً في كتاب الله ولا سنة رسوله؛ فينظر فيه أولو الأمر إذا كان من المصالح، فيشاورون في تقرير ما ينبغي العمل به، فإذا اتفقوا وأجمعوا؛ وجب العمل به، وإن اختلفوا وتنازعوا؛ فقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ذلك بأن يعرض على كتاب الله وسنة رسوله وما فيهما من القواعد العامة، فما كان موافقاً لهما؛ علم أنه صالح لنا، ووجب الأخذ به، وما كان منافياً لعلم أنه غير صالح، ووجب تركه، وبذلك يزول التنازع وتجتمع الكلمة.

والغرض من هذا الرد أن لا يقع خلاف ولا نزاع في الدين والشرع، فلا

يُفْضَى إلى التفريق الذي يجعل المسلمين شيعاً ومذاهباً ويذيق بعضهم بأس بعض.

ولكن الأسف أن المسلمين لم يعملوا بالآية، بل استبدوا، فتفرقوا واختلفوا إلى أن تمزقوا وصاروا محكومين تحت سيطرة الإفرنج، ومردولين أسراء تحت أرجل المستعمرين، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

واعلم أن المسائل الدينية لا ينبغي أن يكون فيها تفرق ولا خلاف؛ لأن الله رب العالمين يقول: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(١)؛ لأن العمل فيها بالنص لا بالرأي، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَبْطِنُونَ مِنْهُمْ﴾^(٢)، فبين أن ما ينظر فيه أولو الأمر هو المسائل العامة؛ كمسائل الأمن والخوف، وأن العامة لا ينبغي لها الخوض في ذلك، بل عليها أن ترده إلى الرسول وإلى أولي الأمر، فهؤلاء يتولون استنباطه وإقناع الآخرين به.

فأولو الأمر لا يختص بالأمراء والفقهاء فقط^(٣)، بل هم العارفون بمصالح الأمة حسب اختلاف الزمان والمكان، ولا يكفي فيه معرفة أصول الفقه وفروعه.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ أي: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول،

(١) الشورى: ١٣.

(٢) النساء: ٨٣.

(٣) بل الأرجح والأصوب أنهم الأمراء والفقهاء، إذ لو فتحنا هذا الباب؛ لدخله من لم يحسنه بحجة أنه عارف بمصلحة الأمة!!

وَرُوِّوا الشَّيْءَ الْمُنَازَعُ فِيهِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ بَعْرُضِهِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِنْ كُنْتُمْ تَوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ صِدْقًا؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُؤْثِرُ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ شَيْئًا، وَالْمُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يَهْتَمُّ بِجَزَاءِ الْآخِرَةِ أَشَدَّ مِنْ اهْتِمَامِهِ بِحَقِّ الدُّنْيَا.

وفيه دليل على أَنَّ مَنْ لَا يُؤْثِرُ ابْتِغَاءَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى أَهْوَايِهِ وَحُظُوطِهِ، وَلَا سِيَّمَا فِي مَسَائِلِ الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ فِيهِ، لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إِيْمَانًا يُعْتَدُ بِهِ.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَخْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ وَاللَّهُ الْعَظِيمُ؛ لَوْ جَرَى الْمَسْلُومُونَ عَلَيْهِ لِمَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الشَّقَاءِ وَالتَّفَرُّقِ وَالانْحِدَالِ، فَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ سَعِدَ الْمُهْتَدُونَ بِهِ؛ كَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، وَكَيْفَ شَقِيَ بِهِ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَاسْتَبَدُّوا بِالْأَمْرِ؛ كَأَمْرٍ بُخَارَى.

وَحَمَلَ بَعْضُهُمْ ﴿أُولَى الْأَمْرِ﴾ عَلَى أَفْرَادِ الْأَمْرَاءِ وَالسُّلَاطِينِ مُطْلَقًا، حَتَّى الْجَاهِلِينَ الْجَائِرِينَ وَالْفَسَاقِ الظَّالِمِينَ!

وبعضهم على الْأُئِمَّةِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي الْفَقْهِ، ثُمَّ قَالُوا: إِنَّهُمْ قَدْ انْقَرَضُوا، وَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَخْلُقَهُمْ أَحَدٌ، فَلَا يَجُوزُ لِلْمَسْلُومِينَ غَرْضُ الْمَسَائِلِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْعَمَلِ بِمَا يَهْدِيَانِ إِلَيْهِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَقْلُدَ أَحَدًا مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ آرَائُهُمْ، حَتَّى فِي الْعِبَادَاتِ وَالْعَقَائِدِ، حَتَّى صَارَ الْحَنْفِيُّ يَمَكُتُ حَاضِرًا فِي الْمَسْجِدِ، وَيَقْرَأُ الْجَمَاعَةَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ مَثَلًا، وَالْإِمَامُ شَافِعِيٌّ أَوْ مَالِكِيٌّ أَوْ حَنْبَلِيٌّ، فَلَا يَقْتَنِدِي هَذَا الْحَنْفِيُّ الْحَاضِرَ مَعَهُمْ؛ لِزَعْمِهِ أَنَّهُ لَا يَصَحُّ اقْتِدَاؤُهُ خُلُقَهُ، فَيَنْتَظِرُ حَتَّى يَجِيءَ إِمَامٌ مَذْهَبِهِ فَيَأْتِمَ بِهِ.

يَا أَسْفَى عَلَى حَالِ الْمَسْلُومِينَ! إِنَّهُمْ قَدْ وَقَعُوا فِي دِينِهِمْ وَشَرِيْعَتِهِمْ عِنْدَ

الْكِتَابِ الَّتِي أَلْفَهَا الْمُقَلَّدُونَ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى وَمَا بَعْدَهَا، حَتَّى صَارَ النَّاسُ يَنْسَبُونَ كُلَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضُّعْفِ وَالسَّوْغَةِ وَالْجَهْلِ وَالْفَقْرِ إِلَى دِينِهِمْ وَشَرِيْعَتِهِمْ، وَقَدْ سَرَى هَذَا الْاِعْتِقَادُ إِلَى الَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ عِلْمَ أَوْرُوبَا وَقَوَانِينَهَا، فَمِنْهُمْ مَنْ مَرَّقَ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَفَضَّلَ تِلْكَ الْقَوَانِينَ عَلَى الشَّرِيْعَةِ؛ اِعْتِقَادًا مِنْهُمْ أَنَّ الشَّرِيْعَةَ هِيَ مَا يَعْرِفُهُ مِنْ كُتُبِ الْفَقْهِ، وَلَا يَعْرِفُ مِنَ الْقُرْآنِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ شَيْئًا؛ كَأَكْثَرِ الْأَثْرَاكِ الْكَمَالِيِّينَ، وَالتَّاتَارِ الرَّوسِيِّينَ، وَالْأَوْرُزْبَكِيِّينَ التُّرْكُسْتَانِيِّينَ.

فَمَا دَامَ الْمَسْلُومُونَ تَارِكِينَ الْعَمَلَ بِكِتَابِ اللَّهِ رَبِّهِمْ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَرَاضِينَ بِهَذَا الْجَهْلِ الْمَرْكَبِ؛ فَإِنَّ حَالَتَهُمْ لَا تَتَغَيَّرُ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْاِخْتِلَافِ وَالْاِسْتِغْفَاقِ وَالْإِسَارَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ، فَتَنْبَهَ.

وقد خاطبَ اللَّهُ تَعَالَى أُمَّةَ الْإِسْلَامِ كُلَّهَا بِإِقَامَةِ الْقَوَاعِدِ الْأَرْبَعِ الْمَنْصُوصَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِطَاعَةُ كِتَابِ اللَّهِ، وَإِطَاعَةُ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِطَاعَةُ أُولَى الْأَمْرِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَرَدَّ الْأَمْرَ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَالْوَاجِبُ عَلَى مَجْمُوعِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَطَالِبَتُهُمْ بِذَلِكَ، وَلَا يُتْرَكُ الْأَمْرُ فَوْضَى، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِأُولَى الْأَمْرِ مَجْمَعٌ عِنْدَ الْأُمَّةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُمْ بِصِغَةِ الْجَمْعِ فِي الْآيَتَيْنِ، فَلَا يَسْتَبْدُ وَاحِدٌ بِالرَّأْيِ، وَإِنَّمَا الْخُطَابُ فِي الْآيَةِ لِأُمَّةٍ الْإِجَابَةِ فِي الْإِسْلَامِ، وَهِيَ الْمَذْعَنَةُ لِأَمْرِ الْإِسْلَامِ وَنَهْيِهِ، الْعَالَمَةُ بِمَا لَا يَدُّ مِنْ عِلْمِهِ فِيهِ.

فَيَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ! مَتَى تَفْقَهُونَ مِنْ سَكْرَتِكُمْ؟ وَمَتَى تَفْتَحُ أَعْيُنَكُمْ؟ وَمَتَى تَفْهَمُونَ خُطَابَ رَبِّكُمْ فَتَعْمَلُوا بِهِ؛ فَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْمُخَاطَبُونَ، وَأَنْتُمْ الْمَكْلُفُونَ؟ أَمَّا تَخْلُجُونَ مِنْ جِهَالِكُمْ؟ أَمَّا تَسْتَحْيُونَ مِنْ إِصْغَاتِكُمْ أَهْلِيَّكُمْ؟ إِلَى مَتَى تَكُونُونَ

تحت حكم المستعمرين محكومين؟ وإلى متى تكونون عبيداً وإماء لعييد
مليكم، بل تفوضون من نهاية جهلكم أموركم إلى أرواح أموات لا تدرون
حالها؛ أي في أعلى عليين، أم في أسفل السافلين؟
فأف عليكم فأف عليكم إن لم تنوبوا مما أنتم عليه!!

الآية الثالثة والعشرون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ
فَإِنْفِرُوا نَجَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعاً﴾^(١).

قد نادى الله تعالى المؤمنين جميعاً، وخاطبهم كلهم عربهم وعجمهم؛
أمرهم إياهم أن يحتاطوا في أوطانهم من كيد الأعداء، فيأخذوا ويهيئوا ما ينقذهم
من شر الأعداء عند كيدهم وهجومهم، فيحافظوا على أمنهم الداخلي
والخارجي.

والأعداء الخارجيون هم المخالفون لنا في الدين، وأما الداخلون فهم
أصحاب الأغراض الفاسدة؛ من عشاق الجاه والرياسة، وأسراء الشهوة والهوى
مثلاً، وكذا أصحاب البدع والطرق والمذاهب المختلفة؛ فإنهم الأعداء
المفسدة في الملّة الإسلامية.

وأما أخذ الحذر؛ فإما بالمعاهدات مؤقتة، وإما باتقاء شرهم بالقوة
والأسلحة والاحتراس.

(١) النساء: ٧١.

(٢) هم العدو فاحذروهم!

ولا شك أن العدو إذا أيسر غرّة منا؛ هاجمنا وهُدنا، وإذا دعوناهم إلى
ديننا؛ عارضونا فيه؛ كما قال الله عز وجل: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ
وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ
اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ الآية^(١).

فعلى أهل النفوس المستعدة للفهم أن تبحث عن كل ما يتوقفت عليه
امتنال الأمر من علم وعمل، ويدخل في الاستعداد والحذر معرفة الأسلحة
والتخادع واستعمالها، وذلك يتوقف على معرفة الهندسة والكيمياء والطبيعة وجر
الانقلاب، فيجب تحصيل كل ذلك وإتقانه كما هو الشأن في هذه الأيام، وذلك
أنه تعالى أطلق الحذر، ولا يتحقق الامتنال إلا بما تتحقق به الوقاية والاحتراز في
كل زمن بحسب؛ من المدافع بأنواعها، والبنادق، والبرارج المدعّعة، وحاملة
الطائرات، وأنواع السلاح، وآلات الهدم، والطائرات، والدبابات، والقنبلات
الذرية المهلكة. وإنه يجب تحصيل العلم بصنع هذه الأسلحة، وما يلزمها،
وسائر الفنون الحربية، والمسلمون صاروا أقل الناس حذراً من الأعداء باعتقاد
القدر من غير علم بمعناه، حتى إن أكثر بلادهم ذهب من أيديهم وهم لا يتوبون
ولا يدركون ولا يتدبرون أمر الله في هذه الآية وما في معناها، ولا يمثلون إياه،
وإنك إذا ذكرتهم يقولون: القدر هكذا، فذلك يطلون الشرائع والأوامر الإلهية.

﴿فَإِنْفِرُوا نَجَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعاً﴾؛ أي: انفروا جماعة في إثر جماعة، بأن
تكونوا فصائل وفرقا، وهو الذي يتعين إذا كان الجيش كثيراً، أو كان موقع العدو
يقضي ذلك، وهو الغالب، أو انفروا كلكم مجتمعين إذا قضت الحال بذلك.

(١) الأنفال: ٦٠.

ويتوقف امتثال هذا الأمر على أن تكون الأمة كلها مستعدة دائماً للجهاد؛ بأن يتعلم كل فرد من أفرادها فنون الحرب، ويتمرنوا عليها بالعمل، ويدخل فيه اقتناء السلاح مع العلم بكيفية استعماله، والتمرن على الرمي بالمدافع وبندي الرصاص في هذا الزمان؛ كما كانوا يتمرنون على رمي السهام في الأزمنة السابقة.

وقد قصر المسلمون في هذا جداً جداً، وقد سبقهم إليه غيرهم، فيجب على الحكومات الإسلامية أن تقيم هذا الواجب بنفسها، لا أن تبقى فيه حالة على غيرها، ويجب على الأمة الإسلامية أن تواتيها وتساعدتها عليه، وأن تلتزمها إياه إذا هي قصرت فيه.

والذين يتسلطون عن الجهاد والدفاع هم منافقون، وليسوا بمؤمنين صديقين؛ لأنه لا هم لهم ولا عناية بأمر الدين، وإنما أكبر همهم شهواتهم، فليحاسب المسلمون أنفسهم في هذا الزمان، وليؤثروا بهذه الآية وما شابهها إيمانهم.

والعجب أن بعض الأمم التي لا تدين بالقرآن كأوروبا وأمريكا والبلاشفة أقرب إلى أحكامه في ذلك ممن يدعون أتباعه من أصحاب النكايا والزوايا والطرق والمذاهب، وإنما الغلبة والعزة لمن يكون أقرب إلى هداية القرآن بالفعل على من يكون أبعد عنها، وإن انتسب إليه بالقول؛ كالذين جعلوا القرآن مأكلاً ومكسباً وهم غافلون عن معناه والعمل به، فالقرآن حجة عليهم.

الآية الرابعة والعشرون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آَلَقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَتَّبِعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمِنَ اللَّهِ نِعَامٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُم فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين مرشداً إليهم أنهم إذا دخلوا في بلاد الكفر لا يحسبوا كل من يجدونه هناك كافراً فيقتلوه، بل عليهم أن يتبينوا ويتبينوا فيمن تظهر منهم علامات الإيمان والإسلام؛ كالشهادة أو السلام الذي هو تحية المؤمنين وعلامة الأمان والاستئمان، وأن لا يحملوا مثل هذا على المخاذعة، إذ زُعم أن يكون الإيمان قد طاف على هذه القلوب، وأن لم يكن يمكن فيها، فنهى الله تعالى عن إنكار إسلام من يدعي الإسلام، ولو بإلقاء تحيته، فكيف بمن ينطق بالشهادتين؟

ثم ذكر الله تعالى ما من شأنه أن يقوي الشبهة في نفس من يظن أن إظهار الإسلام لأجل النية، وهو ابتغاء عرض الحياة الدنيا، فهدى الله تعالى المؤمن بهذا إلى أن يتهم نفسه، ويفتش عن قلبه، ولا يبني الظن على مثله وهو، بل أوجب عليه أن يبني على الظاهر ويقبله حتى يتبين له خلافه.

قال ابن جرير^(٢): «قوله جل جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: يا أيها الذين صدقوا الله وصدقوا رسوله فيما جاءهم به من عند ربهم، ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: إذا سرتهم مسيراً لله في جهاد أعدائكم، ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾: فتأنوا في قتل من أشكل عليكم أمره فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره، ولا تستعجلوا على قتل

(١) النساء: ٩٤.

(٢) في جامع البيان (٥ / ٢٢١).

أحد؛ إلا على قتل من علمتموه يقيناً خرباً لكم ولله ولرسوله، ولا تقولوا لمن استسلم لكم فلم يقاتلكم مطهراً لكم إنه من أهل ملتكم ودعوتكم «لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا» فقتلوه؛ طلباً لمال الدنيا الزائل، وإنما أذن الله تعالى لكم في قتال الذين يقاتلونكم للدفاع عن الحق وإعلاء كلمته، ونشر هدايته، «فَمِنَ الَّذِينَ مَفَازُهُمُ كَثِيرٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ» جاحلين وكفاراً «فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ» بالهداية إلى الإسلام، فمنكم من أسلم لظهور حقيقة الإسلام له من أول وهلة؛ كأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، ومنكم من أسلم تقيّة أو لسبب آخر، ثم حَسُنَ إسلامه عندما خبر الإسلام وعرف محاسنه.

فظاهر حكم الآية أن كل من أظهر الإسلام يقبل منه ويُعد مسلماً، ولا يبحث عن الباعث له على ذلك، ولا ينتهم في صدقه وإخلاصه إلا إذا ظهر منه ما ينافيه من الكفرات والشركيات والزندقة والإلحاد، ولم يُثب منها بعد التعليم والتنبيه، بل عاند وأصر عليها، فحينئذ يقتل...

الآية الخامسة والعشرون فيها أيضاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا»^(١).

قد نادى الله تعالى وخطب المؤمنين عموماً - شرفهم وغربهم - أمراً

(١) النساء: ١٣٥

إياهم أن يكونوا في جميع معاملاتهم قائمين بالعدل، ويعاملوا غيرهم كما يعاملون أنفسهم، فيحسبون لهم ما يحسبون لأنفسهم.

والقوامون بالقسط هم الذين يقيمون العدل بالإتيان به على أتم الوجوه وأكملها وأدومها؛ فإن «قَوَّامِينَ» جمع قَوَّام، وهو المبالغ في القيام بالشيء، والقيام بالشيء هو الإتيان به مُستوياً تاماً لا نقص فيه ولا عجز، ولذلك أمر الله تعالى بإقامة الصلاة، وإقامة الشهادة، وإقامة الوزن بالقسط؛ لتأكيد العناية بهذه الأشياء.

وهذه العبارة أبلغ ما يمكن أن يقال في تأكيد أمر العدل والعناية به؛ أي إنَّكَ المبالغة والعناية بإقامة القسط على وجهه صفة من صفاتكم، بأن تتحرَّوه بالذقة التامة، حتى يكون ملكة راسخة في نفوسكم.

والقسط يكون في العمل؛ كالقيام بما يجب من العدل بين الزوجات والأولاد، ويكون في الحكم بين الناس ممن يوليه السلطان أو يحكمه الناس فيما بينهم.

وكان ينبغي أن يكون المسلمون يمثل هذه الهداية أعدل الأمم، وأقومهم بالقسط، وكذلك كانوا عندما كانوا مهتدين بالقرآن، وصدق على سلفهم الصالح قوله تعالى: «وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ»^(١)، ثم خَلَفَ من بعد أولئك خَلَفَ بُدُوا هداية القرآن وراء ظهورهم، حتى صارت جميع الأمم تُضرب المثل بظلم حكامهم، وسوء حالهم، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

(١) الأعراف: ١٨١.

والله تعالى عَمَّ الامر بالقسط؛ لأن العدل حفظ النظام، وقوام أمر الاجتماع، وعدم محاباة أحد في ذلك لغناه أو فقره أو قرابته؛ لأن العدل والحق مقدمان على الحقوق الشخصية وحقوق القرابة وغيرها.

وكانت محاباة الأقرين معهودة في الجاهلية؛ لأن أمرهم قائم بالعصبية، فنهى الله تعالى عن ذلك كله، وأمر بالعدل في كل حال، وأن يكونوا شهداء لله، وأن يتحرروا فيها الحق الذي يرضاه وأمر به من غير مراعاة ولا محاباة لأحد، ولا يكونوا كعض البخاريين الذين يقيمون الآن في الحرمين وغيرهما من البلدان؛ فإنهم وإن كانوا في الظاهر مسلمين، ولكنهم بالعصبية الجاهلية متلبسون، حتى إنهم يشهدون زوراً لجماعتهم، ولا يتحاشون عن ذلك، بل يفتخرون بذلك؛ كما هو مشاهد ومعلوم، فهم مشاقون لله والرسول، والناس عنهم غافلون.

﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾؛ أي: أيها المؤمنون! كونوا شهداء بالحق لوجه الله، وامتنال أمره، وأتباع شرعه، الذي تنال به مرضاته ومثوبته، ولو كانت الشهادة على أنفسكم؛ بأن يثبت بها الحق عليكم، ومن أقر على نفسه بحق؛ فقد شهد عليها؛ لأن الشهادة إظهار الحق؛ كما أقر ماعز رضي الله عنه بالزنا في حضرة رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله! طهرني^(١)! أو على والديكم وأقرب الناس إليكم؛ كأولادكم وإخوانكم؛ فإنه ليس من بر الوالدين ولا من صلة رحم الأقرين أن يعانوا على ما ليس لهم بحق بالإعراض عن الشهادة عليهم، أو ليها وتحريفها لأجلهم، وإنما البر والصلة في الحق

(١) رواه مسلم (١٦٩٥) عن تريدة.

والمعروف، والحق أحق أن يتبع.

ولا تحابوا الغني طمعاً في بره، ولا خوفاً من شره؛ كما هو شأن أكثر الناس اليوم، فهم محادون ومشاقون لله والرسول، ولا يفتقر عطفاً عليه ورحمة به.

فهل يتدبر المسلمون هذه الآية كما أمرهم الله تعالى بتدبر القرآن، فيقيموا العدل والشهادة بالحق؟ أم يعملون برأي أهل الحيل، فيركبون الظلم والعدوان، إلى أن يستحقوا غضب الله الدبان، فيسلط عليهم البلاشفة والطائفة الطاغية الذهرية، فتسوهم سوء العذاب في هذه الحياة الدنيا؛ كما سلط الله تعالى تلك الطائفة على بلاد الروس وبخارى وكازاخيا والتركستان وبعض بلاد الصين والهند لما غيروا وبدلوا أمر الله عز وجل؟ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى^(٢).

الآية السادسة والعشرون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾^(٣).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين كافة؛ أمراً بإيمانهم أن يجمعوا بين الإيمان به، ورسوله الأعظم محمد ﷺ خاتم النبيين، وبين جميع الرسل الذين أرسلهم الله تعالى سابقاً، والقرآن الذي نزل عليه، وبين الإيمان بجميع

(١) طه: ١٢٧.

(٢) النساء: ١٣٦.

(٣) طه: ١٢٧.

الكتب التي نزلها على رسله من قبل بعثة خاتم النبيين ﷺ؛ بأن يعلموا أن الله تعالى قد بعث قبله رسلًا، وأنزل عليهم كتبًا، وأنه لم يترك عباده في الأزمنة الماضية سدى محرومين من النيات والهدى، وأمرهم أن يدوموا ويثبتوا على هذا الإيمان ثبوتًا دائمًا، ولا يكفروا ولا يتكبروا شيئاً من ذلك أصلاً، وأما من يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ فقد ضلّ ضلالاً بعيداً:

— فالإيمان بالله هو الركن الأول.

— والإيمان بجنس الملائكة الذين يحملون الوحي إلى الرسل هو الركن الثاني.

— والإيمان بجنس الكتب التي نزل بها الملائكة على الرسل هو الركن الثالث.

— والإيمان بجنس الرسل الذين بلغنهم الملائكة تلك الكتب إليهم وهم بلغوها الناس هو الركن الرابع.

— والإيمان باليوم الآخر الذي يُجزى فيه المكلفون على عملهم بتلك الكتب مع الإيمان بما ذكر، كل بحسب كتابه هو الركن الخامس.

ومن فرق بين كتب الله ورسله، فآمن ببعض وكفر ببعض؛ كاليهود والنصارى؛ لا يعتد بإيمانه؛ لأنه متبع للهوى فيه، أو للتقليد الذي هو عين الجهل.

وقد وصف الله تعالى خاتم رسله وأمه التي هي خير الأمم بقوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله

لا تفرق بين أحد من رسله﴾^(١)، فمن كفر بواحد من المذكورات؛ فقد ضلّ عن الصراط المستقيم، وتعد عن طريق الهداية ومحجة السلامة بعداً فاحشاً.

وتقرب من هذا من يؤمن ببعض أصحاب رسول الله ﷺ ويعظمه ويكفر ببعض ويبغضه، فيحب البعض ويبغض البعض؛ كالرافضة والشيعة.

ويقرب منهم أيضاً من يؤمن ببعض الأئمة المجتهدين ويحبه ويعظمه ويتبعه، ويبغض البعض، بل يكفر به؛ كأكثر الأحناف من البخاريين والهنود والأتراك؛ فإنهم يعظمون الإمام أبا حنيفة وأصحابه فيتعينونهم ويحبونهم ويقلدونهم، وأما الأئمة الباقون كالإمام مالك والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة السنة؛ فيبغضونهم ويبغضون من يقلدونهم، فيقولون في كتبهم: لنا وإلهم، وعندنا وعندهم، ولنا كذا وكذا، وللخصم كذا وكذا؛ كما بينت ذلك في كتابي «البرهان الساطع على تبرؤ المتنوع من التابع»، فعليك بمطالعة إن كنت طالباً للحق والحقيقة؛ فإنه مطبوع في مصر، ومشتور في العالم الإسلامي بحول الله وقوته.

الآية السابعة والعشرون فيها أيضاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين عامة؛ ناهياً إياهم عن اتخاذ

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) النساء: ١٤٤.

الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ فإن هذا من فعل المنافقين؛ فإنهم يوالون الكفار، وينصرونهم من دون المؤمنين؛ ليستفيدوا منهم المال، ويتالوا بسببهم الجاة والرياسة.

فحذر الله تعالى المؤمنين أن يفعلوا مثل فعلهم؛ ابتغاء العزة عندهم، أو رجاء المنفعة منهم؛ فإنه ربما يخطر ببال صاحب الحاجة أن ذلك لا يضر.

والمراد من الولاية هنا النصرة بالقول أو الفعل فيما ينافي مصلحة المسلمين.

﴿أَتريدون أن نجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً﴾؛ يعني أنكم إذا واليتم الكفار وناصرتموهم؛ كما والى شريف مكة حسين الإنكليز وناصروه على حكومة الترك الإسلامية^(١)؛ فقد أقعتم الحجة على أنفسكم باستحقاق عذاب الله في الدنيا والآخرة، واستحققتهم أيضاً أن يسلبهم الله تعالى عليكم بذنوبكم، فتخذلوا بذلك أن تنصروا، وتحرقوا مكان أن تغزوا.

ولا شك أن المؤمنين ما اضمحل دولهم وسلطنتهم إلا بانتخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ فإنهم لما اتخذوا الوزراء والبطانة من دون المؤمنين الصادقين، واعتمدوا على دول غير إسلامية؛ ففي النتيجة صاروا من المحرورين.

فيا أيها المؤمنون! أما تفيقون من غفلتكم؟ وأما تصحون من سكرتكم؟

(١) ومن عجب قلبهم الوقاع بتسميات مخالفة! واليوم - ونحن في منتصف شهر صفر ١٤١١ هـ - التاريخ بعيد نفسه، ولكن عكسياً! فإلى الله المشتكى من سوء الأحوال، وبرارة الحال!

وأما فتحوون عيونكم وتستعملون عقولكم وتعتبرون بما جرى في ماضيكم وحاضركم، فتقهوا كلام ربكم العليم الحكيم فتعملوا بمقتضاه؛ لأنكم أنتم المخاطبون والمكلفون بذلك لا الكفار، وأنتم المأمورون بذلك لا الإفرنج، أتريدون أن تقيموا حجة الله على أنفسكم؟ بل قد أقعتم حجة الله عليكم، فلهذا سلطهم عليكم وأنتم سكارى أو حيارى، ومفتنون تاكلون وتمتعون، فبئس ما تفعلون!!

وَمَا لِحُجْرٍ بِمَيْبِ إِيلَامَ

لَقَدْ أَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تَنَادِي
أَرَى أَلْفَ بَابٍ لَا يَسُومُ بِهَادِمٍ فَكَيْفَ بِيَابِ خَلْقَةِ أَلْفِ هَادِمٍ

الآية الثامنة والعشرون في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُبْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُجْلَى الصِّيدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين عامة؛ عربهم وعجمهم، عالمهم وجاهلهم، ولم يخص أحداً دون أحد، فالمؤمنون هم المخاطبون المكلفون بفهيمة والعمل به.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن المراد بالعقود عهود الله التي عهد إلى عبادِهِ، وما أحل الله وما حرّم، وما فرض وما حد في القرآن كله، لا تغدروا

ولا تنكحوا»^(١).

والظاهر أن الله تعالى أمرنا بالوفاء بجميع العقود الصحيحة التي عقدها علينا، والتي نتعاقد عليها فيما بيننا إذا لم تكن مخالفة للنص.

وأساس العقود الثابت في الإسلام هو هذه الجملة البليغة «أو فؤا بالعقود»، وهي تفيد أنه يجب على كل مؤمن أن يفي بما عقده وارتبط به، وليس لأحد أن يفيد ما أطلقه الشارع إلا ببيته منه، فالراضي من المتعاقدين شرط في صحة العقد، فكل قول أو فعل يعده الناس عقداً فهو عقد يجب أن يوفوا به كما أمر الله تعالى ما لم يتضمن تحريم حلال أو تحليل حرام مما في الشرع؛ كالعقد بالإكراه، أو على إحراق دار أحد، أو الإكراه على بيعها أو إيجارها، أو على الفاحشة، أو أكل شيء من أموال الناس بالباطل، كالربا والميسر والرüşة.

والأصل الإباحة في الأشياء، ومن جملتها العقود والشروط في أمور الدنيا، والحظر لا يثبت إلا بدليل، ويؤيد إطلاق الآية حديث: «الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً»^(٢)، وحديث: «المسلمون»^(٣) أخرجه: ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان؛ كما في «الدر المنثور» (٣ / ٥).

(٢) رواه هكذا تماماً: الترمذي (١١٥٢)، وابن ماجه (٢٣٥٢)، والدارقطني (٣ / ٢٧)، والحاكم (٤ / ١٠١)، والبيهقي (٦ / ٧٩)؛ عن عمرو بن عوف.

وفي سننه كثير بن عبد الله، وهو ضعيف جداً. وقد صحت الفقرة الأولى منه، فقد أخرجه: أحمد (٢ / ٣٦٦)، وأبو داود (٣٥٩٤)، وابن حبان (١١٩٩)، والدارقطني (٣ / ٢٧)، والحاكم (٢ / ٤٤٩)؛ عن أبي هريرة. وسنده حسن.

على شروطهم»^(١) رواه الترمذي وأبو داود؛ «إلا شرطاً حرم حلالاً أو أحل حراماً».

ولكن الأسف أن المسلمين لما جهلوا معاني خطاب ربهم وأمر مولاهم الرحمن العليم الحكيم؛ صاروا غدارين وغشاشين وخداعين ومكاريين، لا يوفون بعهودهم، ولا هم صادقين وناصحين في أقوالهم وأعمالهم، وخصوصاً في مكة؛ فإن أكثر سكانها موصوفون بتلك الصفات الشنيعة؛ تجارهم ومُطَوِّبوهم، وكان اللازم المحتم عليهم أن يكونوا صادقين وأمناء وناصحين، حتى يكونوا قدوة للمسلمين في أنحاء العالم الإسلامي، فإننا لله وإننا إليه راجعون.

الآية التاسعة والعشرون فيها أيضاً: «يا أيها الذين آمنوا لا تجعلوا شعار دين الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً»^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين ناهياً إياهم أن لا يجعلوا شعار دين الله حلالاً يتصرفون فيها كيف يشاؤون، وهي معالمه التي جعلها أمارات يعلمون بها الهدى من الضلال؛ كمناسك الحج وسائر فرائضه وحدوده وحلاله وحرامه، بل اعملوا فيها بما بيته لكم.

(١) هو قطعة من حديث أبي هريرة الذي أوردته في التعليق السابق. وأما زيادة: «إلا شرطاً...» الآية؛ فهي لا تصح، إذ هي تابعة لحديث عمرو بن عوف السابق أيضاً!!
(٢) لمائدة: ٢.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى مَا يَتَعَلَّقُ بِأَعْمَالِ الْحَيِّ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

فَالْأَمْرُ بِالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى مِنْ أَرْكَانِ الْهَدَايَةِ الاجتماعيةِ فِي الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّهُ يُوجِبُ عَلَى النَّاسِ إِيْجَاباً دِينِيّاً أَنْ يُعَيِّنَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَلَى كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ الَّتِي تَنْفَعُ النَّاسَ أَفْرَاداً وَأَقْوَاماً فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ. وَكُلُّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ التَّقْوَى الَّتِي يَدْفَعُونَ بِهَا الْمَقَاسِدَ وَالْمَضَارَّ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَأَكْثَرُ هَذَا الْأَمْرِ بِالْثَّهْيِ عَنْ ضِدِّهِ، وَهُوَ التَّعَاوُنُ عَلَى الْإِثْمِ بِالْمَعَاصِي وَالْعَصِيَّةِ وَكُلِّ مَا يَمُوقُ عَنِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ، وَعَلَى الْعُدْوَانِ الَّذِي يُغْري النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ.

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي الصُّلْبِ الْأَوَّلِ جَمَاعَةً وَاحِدَةً؛ يَتَعَاوَنُونَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى مِنْ غَيْرِ ارْتِبَاطٍ وَنِظَامٍ بَشَرِيٍّ؛ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْجَمْعِيَّاتِ الْيَوْمِ؛ فَإِنَّ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ كَانَ مُغْنِيّاً لَهُمْ عَنْ غَيْرِهِ لِإِيمَانِهِمْ بِهِ إِيْمَاناً كَامِلاً، وَفَهْمِهِمْ كَلَامَ رَبِّهِمْ فَهَمّاً صَحِيحاً^(١).

وَقَدْ شَهِدَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ بِذَلِكَ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمَا بِالْقِسْطِ﴾^(٢)، وَ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٣).

وَلَكِنْ؛ لَمَّا انْتَشَرَ بِأَيْدِي الْخُلَفَاءِ ذَلِكَ الْعَقْدُ، وَتَكثَّرَ ذَلِكَ الْعَهْدُ؛ صَرْنَا

(١) فليعتبر بهذه الغيبة أرباب الأحزاب وأصحاب الحركات والجماعات! ولتقارن بما سيأتي من كلام المصنّف وتعليقي عليه.

(٢) آل عمران: ١٨.

(٣) آل عمران: ١١٠.

مُحْتَاجِينَ إِلَى تَأْلِيْفِ جَمْعِيَّاتٍ خَاصَّةٍ بِنِظَامٍ خَاصٍّ لِأَجْلِ جَمْعِ طَوَائِفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحَمْلِهِمْ عَلَى إِقَامَةِ هَذَا الْوَاجِبِ فِي التَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى؛ فَلَا بُدَّ لَنَا مِنْ تَأْلِيْفِ الْجَمْعِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ وَالْخَيْرِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ إِذَا كُنَّا نَرِيدُ أَنْ نَحْيَا حَيَاةَ عَزِيْزَةً^(١).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أَي: اتَّقُوا اللَّهَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ؛ بِالسَّيْرِ عَلَى سُنَنِهِ الَّتِي بَيَّنَّهَا لَكُمْ فِي كِتَابِهِ، وَفِي نِظَامِ خُلُقِهِ؛ لِئَلَّا تَسْتَحِقُّوا عِقَابَهُ الَّذِي يُصِيبُ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ هَدَايَتِهِ؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لِمَنْ لَمْ يَتَّقِهِ بَعْدَ اتِّبَاعِ شَرْعِهِ، وَمُرَاعَاةِ سُنَنِهِ فِي خُلُقِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا هَوَادَةَ وَلَا مَحَابَاةَ فِي عِقَابِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِشَيْءٍ إِلَّا وَفَعَلَهُ نَافِعٌ وَتَرَكَهُ ضَارٌّ، وَلَمْ يَنْهَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَفَعَلَهُ ضَارٌّ وَتَرَكَهُ نَافِعٌ، وَفِي مَعْنَى الْمَأْمُورِ بِهِ كُلُّ مَا رَغِبَ فِيهِ، وَفِي مَعْنَى الْمَنْهِيِّ عَنْهُ كُلُّ مَا رَغِبَ عَنْهُ وَحَذَرَ مِنْهُ.

فلهذا؛ كَانَ تَرْكُ هَدَايَتِهِ مُغْضِياً بِطَبِيعِهِ إِلَى الْحَرَامِ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَالرُّوقِ فِي الْمَضَارِّ الَّتِي مِنْهَا فَسَادُ الْفُطْرَةِ وَعَمَى الْبَصِيرَةِ، وَأَيْمَانُ يَظْلِمُ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ، وَلَا عَقَبَ لَهُ إِلَّا عَلَيْهَا.

فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ! لَا تَضَيِّعْ أَهْلِيَّكَ، وَلَا تَظْلِمْ نَفْسَكَ، بَلِ اجْتَهِدْ لِفَهْمِ كَلَامِ رَبِّكَ وَالْعَمَلِ بِمَوْجِبِهِ؛ تَكُنْ عَبْدًا مُؤْمِنًا، وَتَنْلِ رَحْمَةَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَإِلَّا تَكُنْ خَاسِرًا، فَتَنْبُهِ

(١) وفي هذا الكلام نظر شديد يتفحصه ما علقت عليه - قبل - من كلام المصنّف، وقد طوَّلتُ بيانه وشرحه في كتابي «الدعوة إلى الله بين التجمع الحزبي والتعاون الشرعي».

الآية الثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُنِيعَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين بعد أن أمرهم بالوفاء بعهد الربوبية وعهد العبودية؛ أن يقوموا بما عاهدوا والتزموا من الشُّعْر والطاعة لله ورسوله، فيقوموا بطاعته مخلصين طاهرين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾؛ أي: إذا أردتم القيام إلى أداء الصلاة؛ فاغسلوا هذه الأعضاء إذا كنتم مُحِلِّين.

فقرض الوضوء أربع: الأول: غسل الوجه، الثاني: غسل اليدين إلى المرفقين، الثالث: المسح بالرأس، الرابع: غسل الرجلين إلى الكعبين، أو مسح الساتر عليهما^(٢).

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾؛ أي: اغتسلوا غسلًا كاملاً، والجنابة الموجبة للغسل معروفة عند جميع المسلمين.

هذا إذا وجدتم الماء، ولم يمنعه من استعماله مانع، وأما إذا خذت حادث، فحكمه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ

(١) المائدة: ٦.

(٢) كالحُفَيْن والجوربين.

مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُنِيعَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي على فضله ورافته وطهره وتيسيره؛ لأنه تعالى رؤوف رحيم بكم، وهو لا يشعركم إلا ما فيه الخير والنفع لكم، ويطهركم من القذر والأذى، ومن الرذائل والمنكرات والعقائد الفاسدة، فتكونوا أنظف الناس أبداناً، وأزكاهم نفوساً، وأصحهم أجساماً، وأرقاهم أرواحاً، وليتم نعمته عليكم بالجمع بين طهارة الأرواح وتزكيتها، وطهارة الأجساد وصحتها؛ فإن الإنسان روح وجسد، لا تكمل إنسانيته إلا بكاملهما معاً، فالصلاة تطهر الروح، وتزكي النفس؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

فما أعظم نعمة الله تعالى على الناس بهذا الدين القويم! ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فتقوموا بشكر النعم الطاهرة والباطنة، فدين الإسلام دين اليسر، ودين النظافة، ودين الحياء، ودين الصدق، ودين الأمانة، ودين الضيافة، ودين العفة، ودين العقل، ودين الفهم؛ كما أنه دين التوحيد، ودين الإخلاص.

فيا أيها المؤمنون! هل عرفتم هذه الأوصاف؟ وهل اتصفتم بها؟ أو أنتم جاهلون بها، لا تعرفون من الإسلام إلا اسمه، ومن القرآن إلا رسمه؟ تقرؤونه في المحافل والمآتم والختومات، وعلى رؤوس القبور، وعلى ماكينات راديو^(١)، أو لأن تهبوا ثوابه لمن يعطي لكم الدرهمات؛ كما نشاهدكم في شرف الأرض وغربها!

(١) يريد البليغ.

أما تنوبون إلى الله وتشفونه؟ وأما تستحيون من الله ومن الإنسانية، وقد جاءت أسرار الساعة، وقامت علامات القيامة، فُسألون يومئذ عن التوحيد، وعن القرآن، وعن العمل به؟

الآية الحادية والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١).

قد نادى الله تعالى المؤمنين عامة، وخاطبهم أمراً إيجابياً بأن يكونوا قوامين لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ:

القَوَّامُ: هو المبالغ في القيام بالشيء، وهو الإتيان به مقوماً تاماً؛ لا نقص فيه ولا عوج، وهذا عام شامل لجميع ما أخذ علينا الميثاق به من التكاليب، حتى المباحات؛ أي: كونوا من أصحاب الهمم العالية، وأهل الإتيان والإخلاص لله تعالى في كل عمل تعملونه من أمر دينكم ودنياكم.

ومعنى الإخلاص لله في أعمال الدنيا: أن تكون بنية صالحة؛ بأن يريد العامل بعلمه الخير والتزام الحق؛ من غير شائبة اعتداء على حق أحد أو إيقاع ضرر به.

والشهادة بالقسط معروفة، وهي أن تكون بالعدل؛ بدون محاباة المشهود له ولا المشهود عليه لقرابته وولائه، ولا لماله وجاهه، ولا لفرقه وسكنته.

(١) المائدة: ٨.

فالشهادة عبارة عن إظهار الحق للحاكم؛ ليحكم به، والإقرار به لصاحبه. والقسط هو ميزان الحقوق، فإذا خولف؛ انتشرت المفسد وضربت العدوان بينهم، وتقطعت روابطهم الاجتماعية، وصار بأسهم بينهم شديداً، فلا يلبثون أن يسأط الله تعالى عليهم بعض عيابه الذين هم أقرب إلى إقامة العدل منهم، فيزيلون استقلالهم، ويذيقونهم وبالهم، وتلك سنة الله التي شاعلتها في الأمم الحاضرة، وشهد بها تاريخ الأمم الغابرة، ولكن الجاهلين الغافلين لا يسمعون ولا يبصرون، فأنى يبصرون ويتعطلون؟

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾؛ أي: لا يحملكم بغض قوم وعداوتهم لكم أو بغضكم وعداوتكم لهم على عدم العدل في أمرهم بالشهادة لهم أو الحكم لهم، فلا عذر لمؤمن في ترك العدل وإنشائه على الجور والمحاباة، فلا يتوهم من متوهم أنه يجوز ترك العدل في الشهادة للكافر، أو الحكم له بحقه على المؤمنين.

ولم يكتب الله تعالى بالتحذير من عدم العدل مهما كان سببه والنية فيه، بل أكد تأكيداً بقوله: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: قد فرضت عليكم العدل فرضاً لا هوادة فيه، فاعدلوا هو أقرب لتقوى الله؛ أي: لاتقاء عذابه وسخطه باتقاء معصيته - وهي الجور الذي هو من أكبر المعاصي؛ لما يتولد منه من المفسد -.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ لا يخفى عليه تعالى شيء من أعمالكم ظاهريها وباطنيها، ولا من نياتكم وخيلكم فيها، وهو تعالى الحكم العدل القائم بالقسط، فاحذروا أن يجازيكم بالعدل على ترككم العدل.

وقد مضت سنة الله العادلة في خلقه بأن جزاء ترك العدل وعدم إقامة القسط في الدنيا هو ذلك الأمة وهوانها واعتداء غيرها من الأمم على استقلالها، ولجزاء الآخرة أدل وأخزى وأشد وأبقى؛ كأهل بخارى وما وراء النهر والتركستان؛ لما فشا فيهم الظلم ومعاصي الله وارتكاب المناهي؛ سلط الله تعالى عليهم الروس، ثم البلاشفة، فساموهم سوء العذاب، وكذا أهل الأندلس والمغرب.

وقد ثبت^(١) في الحديث القدسي: قال الله عز وجل: «إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني»، ولكن الناس لا يعتبرون، حتى إن أكثر الذين هجروا منهم بلاذهم وسكنوا في الحرمين منغمسون في زخعة الضلال من الظلم والشرك؛ بدعاء غير الله، والنفاق، والحسد، والكذب والنسوق، والمصيان، فأتا لله وإنا إليه راجعون.

الآية الثانية والثلاثون فيها أيضاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَا يَسْطُونَا إِلَيْكُمْ أَيْدٍ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ»^(٢).

روى غير واحد من أئمة التفسير^(٣) أن الآية نزلت في رجل هم بقتل النبي ﷺ أرسله قومه لذلك، وكان بيده السيف، وليس مع النبي ﷺ سلاح، وكان

(١) بل لم يثبت؛ كما سبق (ص ٣٧).

(٢) المائدة: ١١.

(٣) انظر - مثلاً - «الدر المنثور» ٣ / ٣٥.

منفرداً؛ كما روى الحاكم وصححه^(١) من حديث جابر رضي الله عنه: «أن غوث بن حارث المحاربي قام على رأس رسول الله ﷺ، وقال: من يمتك؟ قال: الله. فوقع السيف من يده، فأخذ النبي ﷺ، وقال: من يمتك؟ قال: كن خير آخذ. قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. قال: أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخل سبيله، فجاء إلى قومه وقال: جئكم من عند خير الناس».

وفي رواية^(٢): نزلت في قصة النبي ﷺ مع بني النضير، إذ ذهب إليهم ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، وكان النبي ﷺ عاهد بني النضير على أن لا يحاربوه وأن يعينوه على الديات، فلما طلب منهم ذلك وهو بينهم؛ أظهروا له القبول، وقالوا: اقعد حتى نجمع لك ونطعمك، فلما جلس بجانب جدار دار لهم؛ وجدوا أن الفرصة قد سنحت لهم للغدر به، فأرادوا أن يطرحوا عليه حجارة ويقتلوه، وإنما اعتلوا بصنع الطعام؛ ليكون لهم فيه وقت ينقلون فيه الصخرة إلى سطح الدار، ولا شك أنهم كانوا يريدون قتل من معه أيضاً، فأعلم جبريل النبي ﷺ بذلك،

(١) أخرجه: أحمد ٣ / ٣٩٠، والواحد في «أسباب النزول» (ص ٢٢٣)، والحاكم ٣ / ٢٩، والبيهقي في «الدلائل» ٣ / ٣٧٣، وابن سعد ٢ / ٦١-٦٢؛ من طرق يقوي بعضها بعضاً.

وأصل الحديث في: «صحيح البخاري» (٢٩١٠)، و«صحيح مسلم» (٤١٣٤)؛ عن جابر.

وله شاهد أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» ٣ / ٢٨٨ من مرسل الحسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» ٦ / ١٤٤ عن يزيد بن أبي زياد.

وإسناده ضعيف معضل.

فانطلق وتركهم.

فزلت الآية في ذلك مذكرة بهذه القصة وبفضة المحاربي وأمثالهما من وقائع الاعتداء التي كانت كثيرة حتى بعد قوة الإسلام بكثير من المسلمين، فهو سبحانه يذكر المؤمنين بذلك كله، والمنة له جل جلاله في ذلك، ليست قاصرة على من وقعت لهم تلك الوقائع من النبي ﷺ والمؤمنين، بل هي منة عامة، يجب أن يشكرها له عز وجل كل مؤمن إلى يوم القيامة؛ كما وقع للعبد الضعيف راقم هذه الكلمات في بلاد فرغانة حينما حبستني البلاشفة الدهرية، وحكمت علي بالإعدام رمياً بالرصاص^(١)، فتجاني الله من كيدهم وحبيهم، وأوصلني إلى حرمة وجوار بيته الحرام، واستعملني لتعليم عبادهم معالم دينهم، وكان ذلك عام ١٣٤٦ هـ؛ كما بينت^(٢) الواقعة في كتابي المطبوع بمصر بمطبعة عيسى الحلبي المنشور في أنحاء الدنيا وحكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت المدة، والآن عام ١٣٦٦ هـ أنا حي في بلد الله الأمين، معلّم للناس معالم الدين، والحمد لله رب العالمين، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٣)، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾^(٤)

واعلم أن من فوائد هذا التذكير للمتأخرين ترغيبهم في التأسي بسلفهم

(١) ﴿وَمَا نَقَرُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَزِيرِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

(٢) ونقلتها عنه في مقدمتي لكتابه «مفتاح الجنة» (ص ٤ - ٥) بزيادة إضاح عشا هنا، فيُنظر.

(٣) الطلاق: ٢ - ٣.

(٤) الزمر: ٣٦.

الصالح في القيام بما جاء به الدين من الحق والعدل والبر والإحسان، واحتمال الجهد والمشاق، والصبر على ذلك في سبيل الله، وهذا هو المعنى العام للجihad في سبيل الله.

والعبد المؤمن إذا شس من نفسه؛ بتقطع الأسباب، وتغلق الأبواب، وتغلب الأعداء، وتغلب الأولياء، يتذكر أن الله تعالى وليه ووكيله، وأنه هو الذي بيده ملكوت كل شيء؛ وأنه هو الذي يجير ولا يجار عليه، فيقوى إيمانه، وتتجدد قوته، فينصره الله تعالى بما يستفيد من الإيمان والذكرى والتوكل، فحسبنا الله، ونعم الوكيل إذا توكلنا عليه حق التوكل، فإيا ربنا وفقنا لفهم معاني كتابك، والعمل بمقتضاه بفضلك ومثك آمين.

الآية الثالثة والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين عامة، وأمرهم بأن يتقوه ويتفوا إليه وحده الوسيلة بالعمل الصالح، ولا يكونوا كأهل الكتاب مغرورين بأبائهم وساداتهم.

اتقاء الله: هو اتقاء سخطه وعقابه ومخالفة سنته ودينه وشرعه. والوسيلة إليه: هي ما يتوصل به إليه؛ أي: ما يرجى أن يتوصل به إلى مرضاته والقرب منه تعالى واستحقاق المثوبة في دار كرامته، ولا يُعرف ذلك على الوجه الصحيح

(١) المائدة: ٣٥

إلا بتعريفه تعالى، وقد تفضل علينا بهذا التعريف بوجه إلى رسوله محمد ﷺ. وحقيقة الوسيلة إلى الله: مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحري مكارم الأخلاق والشرعية، فهي كالقربة.

وقال حذيفة وعطاء ومجاهد والحسن رضي الله عنهم: «تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه»^(١).

ومن جملة الوسيلة إليه تعالى الجهاد في سبيله ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾؛ أي: جاهدوا أنفسكم بكفها عن الأهواء، وحملها على التزام الحق في جميع الأحوال، وجاهدوا أعداء الإسلام الذين يقاومون دعوته وهدايته للناس.

والجهاد من الجهد، وهو المشقة والتعب، وسبيل الله هي طريق الحق والخير والفضيلة، فكل جهد يحمله الإنسان في الدفاع عن الحق والخير والفضيلة، أو في تقريرها وحمل الناس عليها؛ فهو جهاد في سبيل الله.

﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾؛ أي: اتقوا الله لعلكم تفوزون، وابتغوا ما يجب فعله على رجاء الفوز والصلاح، واحتملوا الجهد والمشقة في سبيله رجاء للفوز والفلاح والسعادة في المعاش والمعاد.

هذا هو التفسير المأثور عن السلف الصالحين، ولم يؤثر عن صحابي ولا تابعي ولا أحد من علماء السلف أو عاصمتهم أن الوسيلة إلى الله تعالى تبتغي بغير ما شرعه الله للناس؛ من الإيمان، والعمل بموجبه.

ولكن قد حدث في القرون الوسطى التوسل بأشخاص الأنبياء

(١) انظر: الدر المنثور (٣ / ٧١).

والأولياء^(١)، وتسميتهم وسائل إلى الله تعالى، والإقسام على الله بهم، وطلب قضاء الحاجات، ودفع الضر، وجلب النفع منهم عند قبورهم أو في حال البعد عنها، وشاع هذا وكثر، حتى صار كثير من الناس يدعون أصحاب القبور في حاجاتهم مع الله تعالى، أو يدعونهم من دون الله تعالى، والدعاء هو العبادة؛ كما قال النبي ﷺ: «الدعاء هو العبادة»^(٢)، وفي رواية: «الدعاء مع العبادة»^(٣)، والله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾^(٤)، و﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَشْكَكُمْ﴾^(٥)، ولكن بعض المصنفين يزعم أنهم يدعون، والعوام يأخذون بمثل هذا القول المخالف لقول الله تعالى وقول رسوله ﷺ لعموم الجهل.

والعبدة الضعيف قد حقت هذه المسألة حتى التحقيق في مؤلفاتي المطبوعة المنشورة؛ كـ «حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من

(١) ينظر بيان ذلك وتفصيله في كتاب «القول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي» للشيخ محمد عبدالسلام الشقيري، بتحقيقي، نشر المكتبة الإسلامية، عمان.

(٢) رواه: أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٣٧٢)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والنسائي في الكبرى - كما في وثيقة الأشراف، (٩ / ٣٠)، وأحمد (٤ / ٢٦٧ و ٢٧١ و ٢٧٦)؛ عن الثعالب بن بشير.

وسنده صحيح، صححه ابن حجر في «الفتح» (١ / ٤٩) وغيره. ونسبه العجلوني في «كشف الخفاء» (١٢٩٥) لمسلم !! وتابعه على هذه النسبة الأخ الدكتور محمد الصباغ في تعليقه على «أحاديث القصاص» (رقم ٤٤)، فوهما !!

(٣) رواه الترمذي (٣٣٧١) عن أنس، وفي مسنده ابن لهيعة والوليد بن مسلم؛ ضعيفان! ومع ذلك سكت عنه الحافظ في «الفتح» (١١ / ٩٤)!!

(٤) الجن: ١٨.

(٥) الأعراف: ١٩٤.

الميت المدد، و«أوضح البرهان في تفسير أم القرآن» المطبوع في مكة، و«مفتاح الجنة لا إله إلا الله»، و«البرهان الساطع في تبرؤ المتبوع من التابع»، و«العقود الدرّة السلطانية فيما يُنسب إلى الأيام التبرّونية» المطبوع في مصر، و«تحفة الأبرار في فضائل سيّد الاستغفار» المطبوع في الصين، وغيرها، و«شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رسالة قاعدة جلية في التوسل والوسيلة»^(١)، فعلى كل مؤمن طالب للحق بعبادة تلك الكتب، ولا يكن كأكثَر البخاريين والهنديين والأتراك والإفريقيين عباداً لأهل القبور والأرواح؛ فإنهم بهذا الاعتقاد مشركون، ولا ينفعهم عند الله دعوى الإسلام، أو المجاورة في الحرمين؛ إلا إذا تابوا وأصلحو ويؤمنوا، فالله تعالى قابل التوب وغافر الذنب، وأما إذا لم يتوبوا، بل أصرّوا على ما هم عليه من الاعتقاد الشركي؛ فالله عز وجل شديد العقاب، ذو الطول والقدر والقوة، لا إله إلا هو، ولا معبود بحق سواه.

الآية الرابعة والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

نادى الله تعالى المؤمنين وخاطبهم - ناهياً إياهم - أن لا يتخذوا اليهود

(١) وهو مطبوع مراراً، أجودها النسخة التي قام عليها تحقيقاً وتخريجاً أخونا الفاضل الشيخ ربيع بن هادي المدخلي، وفقه الباري.
(٢) المائدة: ٥١.

والنصارى أولياء لأنفسهم يناصرونهم، وإن كان سبب النزول خاصاً^(١)، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا يجوز لمسلم موالاة الكفار موالاة النصر والمظاهرة؛ لأن موالاةهم علامة على مرض القلب والرغبة إليهم^(٢)، ولهذا نهى الله تعالى عن موالاة الكفار والمشركين عامة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ الآية^(٣).

قال ابن جرير^(٤) رحمه الله تعالى: «إن الله تعالى قد نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أنه من اتخذهم نصيراً وخليفاً وولياً من دون الله ورسوله؛ فإنه منهم، وأن الله ورسوله مته بريثان».

قال البُضاوي^(٥): «أي: فلا تتخذوا عليهم، ولا تعاضروهم معاشرة الأحاب، ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، ولا شك أنهم متفقون على خلافكم؛ يوالي بعضهم بعضاً؛ لأحاديثهم في الدين، فمن والأهم منكم؛ فإنه من جملتهم، وهذا التشديد في وجوب مجانبتهم؛ كما قال رسول الله ﷺ: (لا تتراءى ناراها)^(٦)».

(١) انظر: «الدر المنثور» (٣ / ٩٨)، و«تفسير ابن كثير» (٢ / ١٠٩).

(٢) فتأملوا رعاكم الله! وانظر ما سبق (ص ١٢٣).

(٣) الممتحنة: ١.

(٤) في «جامع البيان» (٦ / ٢٧٦).

(٥) في «أنوار التنزيل» (ص ٧٢٩).

(٦) والرواية بتعامها: «أنا بريء من كل مسلم يُقيم بين أظهر المشركين، لا تراءى ناراهما».

ولكنّ المنافقين في كلّ زمانٍ ومكانٍ يوالون الأعداء؛ ليتخذوا عندهم الأيادي إذا دالت الدولة لهم، وهذا هو الذي خرب الدولة التركية الإسلامية وأبادها؛ فإن كثيراً من وزرائها منذ قرن أو قرنين في سياسته ما بين روسي وإنكليزي وألماني وأمريكاني، حتى تغلغل نفوذ هذه الدول في أحشاء هذه الدولة، فأضعفت استقلالها في بلادها، ويخشى أكبر منه، ألا وهو قيام قيامتها ومحوها واصحلالها، وقد وقعت.

وأما الذين استعمرت الأجانب بلادهم بأي صورة من صور الاستعمار؛ فأمرُ منافقيهم أظهر، ينتهزون إلى الأجانب بما يضرُّ أمّتهم، حتى فيما لم يكلفهم إياه.

فيا أيها المسلمون! أما تعتبرن بآيات رب العالمين وما جرى عليكم من الأمور، فترجعوا إلى الإنصاف، والتحلي بأحسن الأوصاف، فتكونوا مؤمنين صادقين، ولسعادة الدارين نائلين.

الآية الخامسة والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه

= رواد: أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤)؛ عن جرير بن عبد الله.

وسنده صحيح.

ورواه النسائي (٣٦ / ٨) مرسلًا!

وقد أجل به (١) - وليس بشيء -، فانظر تحقيق شيخنا في «الإرواء» (١٢٠٧) في رده.

من يشاء والله واسعٌ عليم»^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منيها إياهم بأن منهم من يرتد عن الدين - والعباد بالله تعالى - كالمنافقين المرضى القلوب، وارتدأهم لا يضر الإسلام وأهله، وإنما يقيم الله الدين ويؤيده بالمؤمنين الصادقين، فمن يرتد منكم عن دينه؛ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، فيؤثرون ما يحبه الله من إقامة الحق والعدل.

وهذا إخبار من الله تعالى بالغيب؛ فإنه بعد وفاة رسول الله ﷺ ارتد بعض العرب عن الإسلام، وقال المرتدون: نُصلي ولا نَزُكي، فكلمهم أبو بكر رضي الله عنه فلم يقبلوا نصحه، فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه^(٢)، فالقوم الذين يحبهم الله ويحبونه هم أبو بكر وأصحابه رضي الله تعالى عنهم.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين الصادقين بست صفات:

الأولى: أَنَّهُ تعالى يحبهم؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾^(٣)، فجعل اتباع الرسول ﷺ سبباً لمحبة الله تعالى.

الثانية: أَنَّهُم يحبون الله تعالى؛ كما في الآية المذكورة وآيات كثيرة، وفي «الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «ثلاث من كن فيه وجد

(١) المائة: ٥٤.

(٢) والحديث في ذلك مروى في: «صحيح البخاري» (١٣٩٩ و ١٤٠٠)،

و«صحيح مسلم» (رقم ٢٠)؛ عن أبي هريرة.

(٣) آل عمران: ٣١.

حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما... الحديث^(١)، والحب يستلزم الطاعة ويقضيها بسنة الفطرة كما قيل:

تُعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَطْهَرُ حَيْثُ هَذَا لَعَمْرِي فِي الْقِيَاسِ بَدِيعٌ لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ إِنَّ الْمَحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ

الصفة الثالثة والرابعة: الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين؛ كقوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٢)، يعني: أنهم عاطفون عليهم على وجه التذلل والتواضع، وأنهم مع شرفهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم.

الصفة الخامسة: الجهاد في سبيل الله، وهذا من أخص صفات المؤمنين الصادقين، وأعظم الجهاد بذل النفس والمال في قتال أعداء الحق، وضعاف الإيمان قد يجاهدون، ولكن في سبيل مفتحهم دون سبيل الله.

الصفة السادسة: كونهم لا يخافون لومة لائم؛ بخلاف المنافقين؛ فإنهم يخافون لومة لائم؛ أي أنهم لتمكيتهم في الدين، ورسوخهم في الإيمان، لا يخافون لومة ما من أفراد اللوم، كان اللائم كائناً من كان؛ لأنهم لا يعملون العمل رغبة في جزاء أو ثناء من الناس، ولا خوفاً من مكروه يصيبهم منهم، فيخافون لومة هذا أو ذاك، وإنما يعملون العمل لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وتقريب المعروف، وإزالة المنكر؛ ابتغاء مرضاة الله تعالى بتزكية أنفسهم وترقيتها.

(١) رواه البخاري (١ / ٥٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) الفتح: ٢٩.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: الصفات الست فضل الله يعطيها من يشاء من عباده، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ﴾، فلا ينبغي للمؤمن أن يغفل عن فضل الله الكريم عز وجل.

الآية السادسة والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُوبَكُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن اتخاذ الذين الذين أولياء وأحباب؛ لأنهم يتخذون دينكم الإسلام هُزُؤًا ولَعِبًا؛ أي: شيئاً يُضَرَّحُ به ويُسَخَّرُ منه ويَعْتَبَثُ به، فلا توالوا أهل الشرك والكفر والإلحاد، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: اتقوا الله في أمر الموالاة، فلا تضعوها في غير موضعها ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. صادقين في إيمانكم، تحفظون كرامته، وتجنبون مهانته، لأن هؤلاء الأعداء إذا ناديتهم إلى الصلاة، ودعوتهم إلى التوحيد؛ اتخذوها هُزُؤًا ولَعِبًا.

والحاصل أن الاستهزاء والسخرية بالعبادات الإسلامية من شأن الكفار والمُشْرِكِينَ أعداء الدين، فلماذا قد صرح العلماء في عامة كتب الفقه والعقائد أن من استهزأ أو تمسخر بالعبادات الإسلامية؛ فقد كفر^(٢)؛ كما يفعل أكثر جهلة البخاريين في حفلاتهم وولائهم، والمولويين والرفاعيين في حفلات أذكابهم

(١) المائدة: ١٥٧.

(٢) يُنظر أبواب الردة من سائر كتب الفقه، وانظر أيضاً: «تفسير القرطبي» (٨ / ١٩٦).

- (١٩٨) في تفسير آية ﴿قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرُسُلِهِ كُنْتُمْ مُتَشَبِّهِينَ...﴾.

وعبادتهم؛ من الغناء والرقص والدوران والنخس^(١)، فهم قد سلكوا مسلك اليهود والنصارى والمجوس الوثنيين وهم لا يشعرون.

فيا أيها المسلمون! أيقروا من سكرتكم، وإرجعوا إلى دينكم الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ، واتقوا غضب الله وعقابه.

الآية السابعة والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن تحريم ما أحل لهم من المأكولات والمشروبات والمنكوحات، كما كان يفعل أهل الجاهلية وبعض الجهلة من هذه الأمة ومن النصارى والوثنيين؛ لأن بعض المتشككين منهم كانوا يظنون أن تحريم التمتع بالطيبات طبعاً من اللحوم والأدهان والنساء يحصل الكمال والقرب الإلهي؛ كاستنح الرهبان من التزوج، أو أنواع الصيام المبتدع، فأزال الله تعالى هذا الظن بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: لا تحرموا على أنفسكم ما أحل الله لكم من الطيبات المستلذة، بأن تتعمدوا ترك التمتع بها تنسكاً وتقرباً إليه تعالى، ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ فيها يتجاوز حد الاعتدال إلى الإسراف الضار بالجسد؛

(١) ولأحد علماء الأحناف المتأخرين كتاب لطيف سماه «الوقص لمستحلي الرقص» مطبوع قديماً.

(٢) المائدة: ٨٧ - ٨٨.

كالزيادة على الشبع والرّي، أو كجعل التمتع بلبثتها أكبر همكم، وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾^(٣)، ولا تعتدوا الطيبات المحللة بتجاوزها إلى الخباثات المحرمة، فالاعتداء يشمل الأمرين: اعتداء الطيبات نفسها إلى الخباثات، والاعتداء فيها بالإسراف؛ لأن حذف المفعول يفيد العموم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الذين يتجاوزون حدود شريعته، وسنن فطرته، ولو بقصد عبادته.

وتحريم الطيبات المحللة قد يكون بالفعل من غير التزام بيمين ولا نذر، وقد يكون بالتزام، وكلاهما غير جائز، ولا يحرم على أحد شيء يحرمه على نفسه بهذه الأقوال.

وأما ترك الطيبات كالمحرمات تنسكاً وتعبداً لله تعالى بتعذيب النفس وحرمانها فقد قُيِّنَ به كثير من العباد والمصوفة، فكان من بدعهم التركية^(٤) التي تضاهي بدعهم العملية، وقد اتبعوا فيها سنن من قبلهم شبراً بشبر، وهؤلاء أخذوها عن بعض الوثنيين؛ كالبراهمة الذين يحرمون جميع اللحوم، ويزعمون أن النفس لا تزكو ولا تكمل إلا بحرمان الجسد من اللذات.

(١) الأعراف: ٣١.

(٢) وقاعدة البدع التركية مهمة جداً، يجب التنبيه إليها، فما تركه رسول الله ﷺ لا يجوز القيام به وعمله تعبداً، وكذا ما عمله رسول الله ﷺ وقام به لا يجوز تركه تعبداً وتقرباً. وللنصاري المبتدع رسالة سُمّاه «... الدرك...» تخط فيها وهبط إلى أسفل درك!! وفي كتابي «علم أصول البدع» تقرير هذه القاعدة، والرد الإجمالي على رسالته، ولله الحمد.

وفي «الصحاحين»^(١) عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله وعيادته في السر، فقال بعضهم: إني لا أكل اللحم وأصوم دائماً، وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: أقوم الليل ولا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقال: ما بآل أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟! ولكني أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وأكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي، فليس مني.

وقد ورد في الباب أحاديث كثيرة كلها تدل على سماحة دين الإسلام^(٢)، وأن الغلو والتشديد ليس منه البتة، بل من دين المجوس والوثنيين.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾: هذا تصريح بالامر بضد مقتضى النهي. قبله. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾: في الأكل وغيره، ولا تفتروا عليه تعالى في تحليل ولا تحرير، ولا تعتدوا حدوده فيما أحل وفيما حرم؛ فإن اتقاء سخطه في ذلك من لوازم إيمانكم به، ومن اعتداء حدوده في الأكل والشرب الإسراف فيهما، فمن جعل شهوة بطنه أكبر همه؛ فهو من المعتدين المفسرين، ومن بالغ في الشبع؛ فهو من المعتدين المفسرين، ومن أنفق في ذلك أكثر من طاقته، وعرض نفسه لذل الدين، أو أكل أموال الناس بالباطل؛ فهو من المعتدين المفسرين، وما كان المعتدي المفسر من المتقين.

فيا أيها المؤمنون! أنتم المخاطبون المكلفون بهذه الخطابات والأوامر والنواهي، فاعرفوها وافهموها واعملوا بها؛ تكونوا متقين، وأما إذا جهلتم وخالفتم

(١) رواه: البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)؛ عن أنس.

(٢) ولاختصاص سليم الهلالي رسالة في «سماحة الإسلام» طبعته قريباً.

فتجاوزتم واعتديتم؛ فأنتم المعتدون، وأنتم الظالمون، فيه تهلكون أنفسكم وأنفسكم في هذه الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى، فيا خسارة من يجهل أمر ربه فيكون من المحرومين الخاسرين الهالكين.

الآية الثامنة والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُضْذِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ منبهاً إياهم؛ بأن الخمر والقمار والأنصاب والأزلام كلها رجس وعيب من عمل الشيطان لإضلال بني الإنسان.

والخمر كل شراب مسكر في أي شيء كان.

والميسر القمار والمقامرة، سواء كان بالأزلام والأفلام والسهام، فكل قمار ميسر محرم بالنص، وحتى لعب الصبيان بالجوز والبض والكعاب^(٢)، وكان أهل الجاهلية يتقارون في جاهليتهم حتى جاءهم الإسلام، فنهاهم الله تعالى عن هذه الأخلاق الذميمة.

وأما الأنصاب؛ فهي حجارة كان أهل الجاهلية يذبحون قربانهم عندها،

(١) المائدة: ٩٠ - ٩١.

(٢) هي لعب صبيانية، وانظر تعليلي على «تشبه الخسيس بأهل الخميس» (ص

٤٨) للإمام الذهبي.

ويعظمون تلك الحجارة، فيعبدونها، ويتقربون إليها، فيدخل فيها المشاهد والقبور المبنية على القبب، والأشجار التي يعظمونها، ويعلقون عليها الحرق.

وأما الأزلام فهي قِداح وقطع من الخشب كانوا يستقسمون في الجاهلية لأجل التفاؤل أو التشاؤم.

وأما الرجس فهو المستقذر حساً أو معنئ؛ كالحم الخنزير، أو الدَّم المسفوح^(١)، أو الميتة، وكذا الكفر والشرك رجس معنئ، وهو محمول على جميع ما ذكر من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام؛ كما قال جل جلاله: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾^(٢)، وكانت الأنصاب والأزلام من لوازم الأوثان، والشیطان يزعم لأعدائه بني آدم ابتداعها وإيجادها، ثم يوسوس لهم بأن يعكفوا عليها، ويزينها لهم لما فيها من شدة الضرر بهم.

﴿فاجتنبوا لعلكم تفلحوا﴾، وإذا كان الأمر كذلك؛ فاجتنبوا هذا الرجس كله، وابتعدوا عنه؛ رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تزكية أنفسكم وتحليتها بذكر ربكم، ومراعاة سلامة أبدانكم، والتوادة والتأخي بينكم.

وأما تعاطي ما ذكر من الأشياء؛ فإنه يصدر عن ذلك، ويحول دونه؛ كما بيّنه الله تعالى بقوله: ﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة﴾، والخطاب هنا للمؤمنين الذين طهرهم التوحيد من خرافات الشرك كلها.

(١) وفي ذلك تفصيل فقهي، ينظر له «السلسلة الصحيحة» (١ / ٥٤٤) لشيخنا الألباني.
(٢) الحج: ٣٠.

وإحداث الشكر العداوة والبغضاء معروف ومشهود؛ لأن الشكر يفقد العقل، فينشأ عنه القتل، والضرب، والعدوان، والسلب، والفسق، والفحش، وإفشاء السر، وهتك الأسرار، وخيانة الحكومات والأوطان في كل زمان ومكان.

وأما الميسر؛ فهو مثار للعدوان والبغضاء أيضاً، ولكن بين المتقاربتين ومن يتصل بهما.

ولما بين الله تعالى عتقاً لتحريم الخمر والميسر؛ إحداهما اجتماعية، والأخرى دينية، والدينية تصدق على الألعاب التي اشتد ولوع كثير من الناس بها؛ كالشطرنج^(١)، فالظاهر أن تعدد ذلك محرم؛ كالميسر؛ لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وإن كان اللعب بها على غير مال؛ كما شاهدنا كثيراً منهم في الطائفتين في أيام الاصطفاة؛ فإنهم ينهمكون في اللعب حتى تفوتهم الصلاة، أو يؤخرونها عن أوقاتها، وإن يصلوا؛ فيصلون بالعجلة، بلا طمأنينة ولا تعديل أركان ولا خشوع؛ لئلا يفوته اللعب.

﴿فهل أنتم متنبهون﴾: استنهمهم يتضمن الأمر بالانتهاء، وهذا أبلغ ما يُنهى به، وقد أكد الله تعالى تحريم الخمر والميسر من تسعة وجوه:

أحدها: أنه تعالى جعل الخمر والميسر رجساً، وكلمة الرجس تدل على مُتَنَهَى الفحش والخبث، ولذلك أطلقت على الأوثان.

الثاني: أنه تعالى صدر الجملة بـ ﴿إنما﴾ الدالة على الحصر للمبالغة في ذمها.

(١) وللإمام الأجرى كتاب «تحريم الزرد والشطرنج والملاهي» مطبوع.

الثالث: أنه تعالى قرنهما بالألصاق والألزام، التي هي من أعمال الوثنية وخرافات الشرك، وقد ورد في الحديث: «مدين الخمر كعابد الوثن»، رواه ابن ماجه^(١).

الرابع: أنه تعالى جعلهما من عمل الشيطان، لما ينشأ عنهما من الشرور والطغيان.

الخامس: أنه تعالى جعل الأمر بتركهما من مادة الاجتناب، وهو أبلغ من الترك.

السادس: أنه تعالى جعل اجتنابهما معداً للفلاح ومرجاة له، فارتكابهما موجب للخسران والخيبة.

السابع: أنه تعالى أخبر أنهما صاذان عن ذكر الله وعن الصلاة.

الثامن: أنه تعالى جعلهما مثاراً للعدوان والعداوة والبغضاء، وهي من أشرّ المفاسد.

التاسع: أنه تعالى أمر بالانتهاء عنهما بصيغة الاستفهام المقرون بفاء

(١) برقم (٣٣٧٥).

ورواه البخاري في التاريخ الكبير (١ / ١ / ٣٨٦)، وابن أبي شيبة (٨ / ٦)، وابن الجوزي في «الواحيات» (١١١٧)، وابن عدي في «الكامل» (٦ / ٢٢٣٤)؛ من طريق محمد بن سليمان الأصبهاني عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (١ / ٦٧٤): «إسناده جيد».

قلت: هو دون ذلك بقليل، فمحمد بن سليمان: «صدوق يخطئ»؛ كما قال ابن حجر نفسه، فهو - بالكاد - حسن.

ولكن للحديث شواهد عدة، أوردتها شيخنا في «الصحيحة» (٦٧٧)، فلتنظر.

السببية.

فيا أيها المؤمنون! هل تفهمون هذه الخطابات الموجهة إليكم، وتتهون عما أنتم عليه من المنكرات والجهالات والخرافات والتزوات؟

الآية التاسعة والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَتْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصِّدْقِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاخُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ خِيفَةِ الْغَيْبِ فَمَنْ اغْتَدَى بِعَدْوٍ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منبهاً إليهم أنه تعالى يختبرهم في حال إحرايمهم للحج والعمرة بإرسال شيء كثير من الصيد يسهل عليهم أخذه بأيديهم وبرماحهم.

﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ الْغَيْبُ﴾؛ أي: ليتليكم به وأنتم محرمون؛ ليعلم من يخاف الله غائباً عن نظر الناس، غير مرأى لهم، ولا خائف من إنكارهم، فيترك أخذ شيء من الصيد، ويختار شطفت العيش على لذة اللحم؛ خوفاً من الله تعالى، وطاعة له في سره، ﴿فَمَنْ اغْتَدَى بِعَدْوٍ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وجه الابتلاء بذلك أن الصيد ألد الطعام وأطيبه، وخصوصاً في السفر الطويل؛ كالسفر إلى الحرمين وبين الحرمين، وسهولة تناول اللذيذ تُغري به، فترك ما لا يُنال إلا بمشقّة لا يدل على التقوى والخوف من الله تعالى؛ كما يدل عليه ترك ما يُنال بسهولة.

(١) العائلة: ٩٤.

وهل يُعد ترك الرُّزْأ مما لا يصلُّ إليه إلا بسعي. وبذلك مال وتوقع فضيحة؛ كترك يوسف الصديق عليه السلام له إذ غلقت امرأة العزيز الأبواب دونه، وقالت: هيت لك^(١)، وقصة أحد الثلاثة الذين دخلوا الغاز وانطبقت عليهم الصخرة^(٢).

فالحاصل أيها المؤمنون! أنتم المختبرون المبطلون في ثباتكم وأعمالكم، فهل تمتثلون أمر ربكم في سرهم وجهركم، أو تعدون ذلك، وتظهرون الامتثال في الظاهر ومراي الناس، وتركبون المنهي المحظور في السر؛ كالمنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار.

الآية الأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مُمْتَعداً فَجَزَاءٌ مِمَّا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذُو عَدْلٍ بَيْنَكُمْ هَذَا بِالْغَنِيِّ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَاماً لِيَذوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ غَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتقامٍ﴾^(٣).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين الذين قصدوا حج بيت الله الحرام؛ ناهياً إياهم عن قتل الصيد في حال إحرامهم، فاصطياد المَحْرَمِ وقتله الصيد حرام عليه، وإذا صدر عنه الاصطياد وقتله عامداً؛ فعليه الجزاء في الدنيا، وهو أنه يتصدق بمثل ما قتل من النعم... الخ.

(١) كما في سورة يوسف: ٢٣.

(٢) وقصته في ذلك طويلة، رواها: البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٣) المائدة: ٩٥.

فعلى هذا يجب على من أراد الحج من المؤمنين أن يعلم ويتعلم ما يتعلق بالحج من الفرائض والسُنن والمحرّمات والمكروهات، حتى يكون آتياً بالحج على وجه الكمال، فيكون حجّه مبروراً، ولكنّ الأسف ألف أسف على جهل المسلمين، وعدم مبالاهم بأمور دينهم وأوامر مولاهم رب العالمين وسنن سيد المرسلين سيّدنا محمد ﷺ، فتدبّر.

الآية الحادية والأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ غَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن السؤال عما لم يؤمروا باعتقاده أو فعله أو تركه؛ لأن الدين قد كُمل، فلا يحتاج إلى التكميل حتى يحتاج إلى السؤال، وأنما عليكم الأخذ والعمل بما بلغه الرسول ﷺ إليكم، فكونوا متفادين له ﷺ، وما لم يبلغه الرسول محمد ﷺ إليكم فلا تسألوا عنه، ولا تخوضوا فيه؛ فإنكم إن خضتم فيما لا تكليف فيه عليكم؛ فربما جاءكم بسبب ذلك الخوض الغير اللازم من التكليف ما ينقل عليكم ويشق.

وقد ذكر المفسرون في تفسير هذه الآية أحاديث كثيرة، فمنها ما رواه ابن جرير وأصحاب الصحاح والسنن^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه في سؤال

(١) المائدة: ١٠١.

(٢) رواه: البخاري (٢١١ / ٨)، ومسلم (٢٣٥٩)، والترمذي (٣٠٥٨)، والنسائي

في «التفسير» (١٧٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (٨١ / ٧).

الرجل: «من أنا ومن آياتي... إلخ؟»

وفي الحج: «أفي كل عام يا رسول الله»^(١).

وفي الصحيحين^(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ذروني ما تركتكم؛ فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء؛ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء؛ فأتوا منه ما استطعتم».

وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قرص فرائض فلا تضيعوها، وحرم حرمان فلا تنتهكوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبخثوا عنها»^(٣).

(١) رواه: الترمذي (٣٠٥٧ / ٨١٤)، وابن ماجه (٢٨٨٤)، وأحمد (١ / ١١٣)؛ من طريق علي بن عبد الأعلى عن أبيه عن أبي البختري عن علي.

وضعه الترمذي بقوله: «حديث غريب».

وعبد الأعلى بن عامر الثعلبي ضعه غير واحد.

وأبو البختري - واسمه سعيد بن فيروز - لم يلق علياً؛ كما في «جامع التحصيل» (ص ١٨٣ - ١٨٤).

ولم يشر شيخنا في «الإرواء» (٩٨٠) إلى هذه العلة!

وأما الشيخ عبدالقادر الأرناؤوط في تعليقه على «جامع الأصول» (٣ / ٤)؛ فلم يشر إلى علة عبد الأعلى!

وللحديث شواهد عدة دون ذكر سبب النزول، منها ما بعده؛ كما في سبب وروده.

(٢) رواه: البخاري (٧٧ / ٩)، ومسلم (١٣٣٧).

(٣) رواه: الدارقطني (٤ / ١٨٤)، والبيهقي (١٠ / ١٢)، والخطيب في «الفتح والمفتق» (٢ / ٩)؛ من طريق داود بن أبي هند عن مكحول عنه.

وقد أعله الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٤٢) بعثتين: الأولى =

وفي رواية: «وعفا عن أشياء من غير نسيان فلا تبخثوا عنها، ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها؛ بيئت لكم؛ لاحتياجكم إليها، عفا الله عنها»^(١).

أي: ما لم يذكره في كتابه فهو مما عفي عنه، فاسكتوا أنتم عنها كما سكنت عنها.

واعلم أن الله تعالى قد بين لعباده بنص الخطاب ما لا بد لهم منه لإصلاح أمر معادهم ومعاشهم، وبفحوى الخطاب أو الإشارة ما يفتح لهم باب الاجتهاد في كل ما له علاقة بأمر مصالحهم، فالواجب أن يترك أمر التشريع إليه تعالى؛ لأنه تعالى أعلم بمصالح العباد من أنفسهم.

وهذه الآية تدل على أنه لا تجوز الزيادة على نصوص الشارع، والتنطع في الدين باستعمال الرأي في العبادات وأحكام الحلال والحرام؛ لأن الله سبحانه قد أكمل الدين، وأنتم به نعمته على المؤمنين بما أنزله من القرآن على خاتم رسله، وبما قام به الرسول ﷺ أكمل قيام من بيان مراد الله تعالى من تنزيله، وهذه مسألة قطعية ثابتة بالنقل والعقل، ولأن هذا الدين يسر، قد رفع الله تعالى منه الحرج كما نطق به النص، ولذا سماه النبي ﷺ بالحنيفة، «السمحة»^(٢).

= الانقطاع بين مكحول وأبي ثعلبة. الثانية: الاختلاف في رفعه ووقفه.

فعلى هذا؛ فإن من حسنه قد وهم!!

(١) لم أقف على هذه الرواية، فلعلها السابقة نفسها، لكن بالمعنى.

(٢) انظر الحديث الوارد في ذلك، وتخرجه مفصلاً في «الإتمام» (٢٤٨٩٩).

وقال ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»، رواه البخاري^(١).

وقال ﷺ: «يُسْرًا وَلَا تُعْسِرُوا، وَيُسْرًا وَلَا تُتَفَرَّوْا»، رواه الشيخان^(٢).

ومن الأسئلة المنهي عنها^(٣): البحث عن أمور غيبية، وقد ورد الشرع بالإيمان بها مع ترك البحث عن كيفيةها؛ كسؤال المَلَكَيْنِ في القبر، ووُزْن الأعمال، والسؤال عن وقت قيام الساعة، وعن الروح، وعن مدة هذه الأمة، والبحث في صفات الله؛ من: الاستواء على العرش، ويد الله، ونفس الله، إلى أمثال ذلك مما لا يُعرف إلا بالنقل الضرب.

الآية الثانية والأربعون فيها أيضاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَبِئْسَ كُتُمٌ تَعْمَلُونَ»^(٤).

قد نادى الله تعالى المؤمنين وخاطبهم؛ أمراً إياهم بصيغة الإغراء بأن يهتموا بإصلاح أنفسهم؛ بالعلم الصحيح، والعمل الصالح، وبين لهم أنهم إذا أصلحوا أنفسهم، وقاموا بما أوجب الله عليهم من علم وعمل وتعليم وإرشاد؛ فلا يضرهم من ضلَّ من الناس عن محجة العلم الصحيح بالجهل.

(١) (١٠ / ١٠٧) عن أبي هريرة.

(٢) البخاري (١ / ١٧١)، ومسلم (١٧٣٤)؛ عن أنس

(٣) من حيث كنهها وحقيقتها ومآلها.

(٤) المائدة: ١٠٥.

والتقليد، وعن صراط العمل الصالح بالفقه والإسناد في الأرض.

فيا أيها المؤمنون! الرما صلاح أنفسكم وتزكيتها بما شرعه الله لكم، لا يضرُّكم ضلال غيركم إذا اهتديتم، إذ لا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى.

ومن أصول الهداية: الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإذا لا تكونون مهتدين إلا إذا بلغتم دعوة الحق والخير، وعلمتم الجاهلين ما أعطاكم الله تعالى من العلم والدين، فلا تكتموا الحق والعلم كما كنتم من كان قبلكم فلعنهم الله تعالى على لسان أنبيائهم ولسان نبيكم محمد ﷺ. «إلى الله مرجعكم جميعاً فبئس كُتُمٌ تعملون»، فيجازيكم ويحاسبكم بما كنتم تعملون في الدنيا.

وقد روى الحفاظ بسندهم عن قيس أنه قال: قام أبو بكر رضي الله عنه، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس! إنكم تقرأون هذه الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ...» الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ وَلَمْ يُغَيِّرُوهُ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَعْصِيَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ»^(١)، ويا أيها الناس! إياكم والكذب؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ مُجَابِلُ الْإِيمَانِ. رواه أصحاب السنن الأربعة.

روى الترمذي^(٢) بسنده عن أبي أمية الشعباني؛ قال: «أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ

(١) أخرجه: أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٩)، وابن ماجه (٤٠٠٥)، والنسائي في «الفسير» (١٧٧)، وأحمد (١ / ٢ / ٥، ٧، ٩)، وسنده صحيح.

وانظر تخرجه إياكم والكذب... في تعليقي على «الفارق»... (ص ٦٧).

(٢) رواه: أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤)؛ من طريق =

الخشني رضي الله عنه، فقلتُ له: ما تصنع في هذه الآية؟ قال: أيُّ آية؟ قلتُ: قولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَضَيْتُمْ﴾. قال: أما والله لقد سألتُ عنها خبيراً، سألتُ عنها رسولُ الله ﷺ، عمرو بن جارية عن أبي أمية الشيباني به.

وفيه جهالة عمرو بن جارية اللخمي.

وعنه بن أبي حكيم؛ صدوق، يخطئ كثيراً.

أما أبو أمية؛ فروى عنه ثلاثة، وثقّه ابن حبان.

ولكن للحديث شواهد:

شاهدان موقوفان للقطعة الأولى عند ابن جرير (٧ / ٩٦)، وفيهما ضعف يسير.

وشاهد ثالث عن معاذ مرفوعاً، بلفظه تقريباً، عند ابن مردويه؛ كما في «الدرة» (٢ / ٣٤٠)، ولم أقب على سنده.

وشاهد رابع؛ أخرجه: أحمد (٦٥٠٨ و ٧٠٤٩ و ٧٠٦٣)، وأبو داود (٤٣٤٢)؛ عن

ابن عمرو بسند حسن.

وشاهد خامس، أخرجه: ابن حبان (٢٨٤٩)، والذولابي (٢ / ٣٥)؛ عن أبي هريرة

بسند صحيح.

وأما القطعة الثانية؛ فلها شواهد عدّة، خرّجها شيخنا في «الصحيفة» (٤٩٤ و ٩٥٧).

فإن قيل: «إن المعروف في تفسير الآية يخالفه الظاهر»؛ كما قال شيخنا في

«الصحيفة» (٣ / ٩٥)؛ فالجواب: إن المخالف أولاً هو الحديث السابق لهذا في كتابنا،

وهو المروي عن أبي بكر.

وهناك جمع سهل إن شاء الله، وهو أن حديث أبي بكر يُتْرَك على الزمان المعتاد

والحياة الطبيعية، أما عند فساد الأحوال وآخر الزمان؛ فيكون الوجه لحديث أبي ثعلبة عند

عدم جدوى الأمر والنهي.

وهذا جمع ظاهر الوضوح.

ثم رأيت نحو ما ذكرته في «مشكل الآثار» (٢ / ٦٦) للإمام أبي جعفر الطحاوي،

والحمد لله على توفيقه.

فقال: «بل اتّفقوا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتّى إذا رأيتُ شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإصجاب كل ذي رأي برأيه؛ فعليك بخاصّة نفسك، ودفع عنك أمر العوام؛ فإن من ورائكم أياماً؛ الصّابِرُ فيهنّ مثلُ القابضِ على الجَمْرِ، للعاملِ فيهنّ مثلُ أثيرِ خمسين رجلاً يعملون كعملِكُم».

والحاصلُ أنّه قد علّم من هذه الروايات أنّ السلف اتّفقوا على أنّ المؤمن لا يكون مُهتدياً بمجرد إصلاحه لنفسه؛ إذا لم يهتم بإصلاح غيره ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر، ويُفهّم منه أنّ هذا فرض لازم دائم، إلّا إذا فسد أهل الزمان فساداً لا يرجى معه تأثير الوعظ والإرشاد، والموفق هو الله عزّ وجلّ.

الآية الثالثة والأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ...﴾ الآية^(١).

قد خاطبَ الله تعالى المؤمنين منبهاً إياهم أنّه من حضره الموت وعنده مسلمون حاضرون يجبُ عليه أن يشهدَ على وصيّيه عدلين من المسلمين، وأما إذا لم يكن عنده مسلم حاضراً، فأمر بشهادة رجلين من غير المسلمين، فإن ارتببَ بشهادتهما - أي: الكافرين -؛ استُخِلَفاً بالله بعد الصلاة؛ ما اشترتينا بشهادتنا ثمناً قليلاً، وليس على شهود المسلمين إقسام، وإنما الإقسام على الشهود إذا كانوا كافرين.

والآية تفيّدُ الحثّ على الوصيّة، وتأكيدُ أمرِها، وعدمُ التهاون فيها

(١) المائدة: ١٠٦.

بشواغل السفر، وتغيب الإشهاد على الوصية في الحضر والسفر؛ ليكون أمرها أثبت، والرجاء في تنفيذها أقوى، وأن يكون الشاهدان من المؤمنين الموثوقين بعدائهم، وأن يشهد غير المسلمين على الوصية جائز مشروع عند فقد أهل الإيمان؛ كالسفر، وجواز تغليب الأقسام بالأوقات التي تؤثر في قلوب الشهود.

ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «الإيمان تغلظ بالزمان والمكان».

وتفصيل تفسير الآية المذكور في التفاسير عموماً، و«تفسير المنار»^(١) خصوصاً، فارجع إليها أيها المؤمن الذي يهيمه دينه.

الآية الرابعة والأربعون في سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ . وَمَنْ يُولُوهُمْ يُؤْمِدْ يُؤْمِدْ إِلَى فِتْنَةٍ قَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُسَّسُ الْمَصِيرُ﴾^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منبهاً إليهم: إذا لقيتم الكفار حال كونهم زاحفين زحفاً لقتالكم؛ فلا تولوهم الأدبار؛ أي: فلا تولوهم ظهوركم منهزمين منهم، وإن كانوا أكثر عدداً منكم وعدداً، وإذا كان التزاحف من الغريقين، أو كان الزحف من المؤمنين؛ فتحريم الفرار والهزيمة أولى، ولقطة: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ يصلح للأحوال الثلاثة.

(١) انظر (٧ / ٢٠٢) منه

(٢) الأنفال: ١٥ - ١٦.

﴿وَمَنْ يُولُوهُمْ يُؤْمِدْ يُؤْمِدْ﴾، ويولي ظهره إلى العدو فاراً منهم؛ ﴿إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾؛ أي: متحرِّفاً لمكان من أمانة القتال رآه أحوج إلى القتال فيه، وأبلغ في النكابة بالعدو، ﴿أَوْ مَتَحَرِّفًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾؛ أي: متقللاً إلى فتنة من المؤمنين في حيز غير الذي كان فيه؛ لينصرتهم على عدو تكاثر جمعة عليهم، ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيُسَّسُ الْمَصِيرُ﴾؛ لا نكابه معصية الفرار.

والآية تدل على أن الفرار من الزحف من كبار المعاصي، وقد جاء التصريح بذلك في أحاديث صحيحة، أصحها عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً عند الشيخين^(١)؛ قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات»؛ أي: المهلكات. قالوا: يا رسول الله! وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»؛ إلا إذا كان الكفار أريد من الضعف، أو لتدبير حربي، وهو التحيز إلى فتنة.

فيا أيها المؤمنون! جاهدوا أعداء الله وأعداء الدين والتوحيد، وأثبتوا فيه، ولا تنزلزلوا؛ لأنكم إذا قتلتم فأنتم الشهداء الفاتحون بالرضا والرضوان وأنواع نعم الجنان من الحور والعلمان، وإذا نصرتهم وغلبتم؛ فأنتم الغائمون الفاتحون الفالحون نائلون السعادة والدولة برفع لواء الدين، واعلموا أنه لا يموت أحد إلا بانقضاء أجله المقدر، فآمنوا بهذا القدر؛ فإن القدر لا يتغير، واحذروا عن الغدر؛ فإن الغدر شين وعار، وسبب للمدلة في الدنيا وعذاب النار في الآخرة ويشس المصير.

(١) رواه: البخاري (٥ / ٢٩٤)، ومسلم (٨٩).

الآية الخامسة والأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبِعُوا حَيْثُمَا كُنْتُمْ تَكُونُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين؛ أمراً بإتباعهم وإطاعته وإطاعة رسوله محمد ﷺ وامتنال أمره، ونهاياً لإتباعهم عن أن يتولَّوا ويُعرضوا عن الرسول؛ تاركين إطاعته، ومخالفين له، والحال أنكم تسمعون منه كلام الله المصريح بوجوب طاعته وموالاته وأتباعه ونصرتَه؛ أي: تسمعون سماع الفهم والتصديق والإذعان، الذي هو شأن المؤمنين الذين دأبهم أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(٢)، والموصوفون بقوله عز وجل: ﴿نُبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٣)، وأصحاب العقول السليمة.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون الصادقون ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: لا يسمعون سماع تفقه واعتبار يتبعه الانتفاع والعمل، وهكذا كان المنافقون، والكفار المعاندون، والمقلدون الجاهلون، والمتعصبون الضالون، وقد سلك من هذه الأمة مسلكهم؛ شيراً بشير، وذراعاً بذراع؛ فإن كثيراً منهم وإن قرأ القرآن وسمِعته واستمعته، ولكنهم لا يعملون به؛ إلا ما وافق هواهم، أو وافق قول متبوعهم وأخبارهم ورهبانهم، ويحملون ما خالف مذهب

(١) الأنفال: ٢٠ - ٢١.

(٢) البقرة: ٢٨٥.

(٣) الزمر: ١٧ - ١٨.

متبوعهم على الشخ أو التأويل، كما تقول به أبو الحسن الكرخي الحنفي في كتابه «أصول الفقه»^(١)، وقد بُهت عليه في كتابي المطبوع المنشور «البرهان الساطع في تبرؤ المتبوع من التابع».

فيا أيها المؤمنون! كونوا مؤمنين صادقين، وانتفعوا بالإيمان والقرآن؛ مُتدبرين معناه، ومتفكرين فحواه، حتى تكونوا فالحين.

الآية السادسة والأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ تَخْشَوْنَ﴾^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين عموماً - عربهم وعجمهم، وعالمهم وجاهليهم -؛ أمراً بإتباعهم أن يستجيبوا لله والرسول بالعبادة والاستعداد؛ أي: إذا علمتم ما فرضنا عليكم من الطاعة وشأن سماع التفقه من الهداية، وقد دعاكم الرسول محمد ﷺ بالتبليغ عن الله تعالى لما يحييكم من الأعمال الصالحة، وأفضلها الجهاد في سبيل الله، والقيام بالدفاع عن المهاجرين. ومنذ ترك المسلمون الجهاد والدفاع والاستعداد له؛ تلاشت حياتهم القومية^(٣) ومكانتهم الإسلامية كما لا يخفى.

(١) قارن بـ «بدعة التعصب المذهبي» لأخينا الفاضل محمد عيد عباسي، كان الله

له.

(٢) الأنفال: ٢٤.

(٣) أي: التي يحيا فيها أرواؤهم! لا القومية التي تنسى الإسلام، بل تحاربه!!

فيا أيها المؤمنون! أجيئوا الدعوة بعناية وهمة وعزيمة وقوة.

ولا شك أن العمل بالقرآن ينبوع السعادة، وأن طاعة رسول الله ﷺ خزينة الفلاح والنجاح، وأن طاعته ﷺ واجبة في حياته وبعد مماته، فيما علم أنه دعا إليه دعوة عامة من أمر الدين الذي بعثه الله تعالى به؛ كنياته ﷺ لصفة الصلاة وعدوها، والمنابك، ومقادير الزكاة، وغير ذلك من السنن الدينية إلى يوم القيامة.

﴿واعلموا﴾ أيها المؤمنون ﴿أن الله تعالى يحول بين العزم وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾، وهذا تنبيه لأميرين عظيمين أمرنا الله تعالى أن نعلمهما علماً يقينياً: الأول: أن من شئ الله في البشر الحيلة بين العزم وقلبه، الذي هو مركز الوجدان والإدراك ذي السلطان على إرادته وعمله، وهذا أخوف ما يخافه المتقي على نفسه إذا لم يتأس من رَوْحِ الله فيها.

ومعرفة هذه الجملة تثمر الخوف والرجاء، فكم من متني مهتد يصل عن الصراط المستقيم، ويميل إلى مهاوي التحميم؛ بسبب شبهة تزعم الاعتقاد، أو شهوة تغلب بها الغي على الرشاد، فيطعم هواه، ويتخذها إلهاً من دون الله، على أنه فيه مختار بلا جبر ولا اضطرار؛ كما وقع في هذا العصر من بعض معاصرينا؛ كعبد الله القصيمي في كتابه «هذي هي الأغلال»؛ فإنه قد خالف النصوص الصريحة القرآنية، والأحاديث الصحيحة النبوية، في أحد وعشرين موضعاً من هذا الكتاب، ظاهره الكفر والزندقة، بعد أن كان مؤمناً موحداً بدافع عن الإيمان والتوحيد وأهله، ويصارع أهل الشرك والخرافات؛ كما في مؤلفاته السابقة؛ ككتابه «الصراع بين الإسلام والوثنية»، و«البروق النجدي».

و«شيوخ الأزهر»^(١) وغيرها، ولكن قد صدق الله العظيم: ﴿أن الله يحول بين العزم وقلبه﴾.

ومن جملة الأسباب الظاهرة مصاحبة المتفرتجين والزنادقة، والطمع فيما عندهم من مال الدنيا.

اللهم ثبت قلوبنا على دينك، ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾^(٢).

اللهم توفنا مسلمين، وأحفظنا بالصالحين.

ويقال هذا من الحيلة ما حكى بعضهم عن نفسه: أنه كان منهكاً في الشهوات والمنهيات؛ تاركاً لهداه وطاعة ربه، فنزل يوماً في زورق مع خلان له في نهر دجلة للتنزه، ومعهم النبيذ والمعازف، فبينما هم يعزفون ويشربون؛ إذ التفوا بزورق آخر فيه تال للقرآن يرتل سورة «إذا الشمس كورت»^(٣)، فوقعت تلاوته من نفسه موقع التأثير والعظة، فاستمع له وأنصت، حتى إذا بلغ «وإذا الصحف نشرت»^(٤)، امتلأ قلبه خشية من الله وتديراً؛ لأطلاع على صحيفة عمله يوم يلقاه، فأخذ العود من العازف، فكسره، وألقاه في دجلة، وثنى ينيذ قناب النبيذ وكؤوسه فيها، وصار يردد الآية، وعاد إلى منزله؛ تائباً من كل

(١) وكتبه الأربعة هذه مطبوعة، أما كتابه و... الأغلال؛ فقد رد عليه عدد كبير

أهل العلم، وشيوا زيوفه!

(٢) آل عمران: ٨.

(٣) التكوين: ١.

(٤) التكوين: ١٠.

معصية، مجتهداً في كل ما يستطيع من طاعة^(١).

فيا أيها المؤمنون! انتهوا لتذكير الله تعالى إيانا بهذا الشأن من شؤون الإنسان وسنن الله تعالى في الإرادات والأعمال.
وأمره تعالى إيانا بأن نعلمها علم إيقان وإذعان؛ فيقينا فائدتين لا يكمل بدونهما الإيمان:

الفائدة الأولى: أن لا يأمن الطائع المشتم من مكر الله فيغتر بطاعته ويغضب بنفسه، وأن لا يأس العاصي والمقصر في الطاعة من روح الله وفضله وعنايته، ومن لم يأمن من عقاب الله ولم يأس من رحمة الله؛ يكن جديراً بأن يراقب قلبه، ويحاسب نفسه على خواطره؛ ليظل على صراط العدل المستقيم؛ متجنباً الإفراط والتفريط، ويتحرى دائماً أن يكون بين خوف يحجزه عن المعاصي ورجاء يحمله على الطاعات.

الفائدة الثانية: هو تذكر حشرنا إليه عز وجل، ومحاسبته إيانا على أعمالنا القلبية والبدنية، ومجازاته إيانا عليها، إما بالمذابب الآليم، وإما بالنعيم المقيم.

(١) وقريب من ذلك قصة توبة الفضيل بن عياض الزاهد المأيد؛ قال الذهبي:

«وكان قاطع طريق، وسبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها؛ إذ سمع نالاً يثلو: «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم...» [الحديد: ١٦]، فلما سمعها؛ قال: بلى يا رب، قد آن. فرجع، فأواه الليل إلى خربة، فإذا فيها سائلة زعيم قوم عابرون في طريق ما؛ فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح؛ فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا. قال: ففكرت، وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام. والسيرو (٨ / ٣٧٣).

فيا أيها المؤمنون! لا تعتزوا بظاهر طاعتكم وعبادتكم، بل اطلبوا من الله تعالى الدوام والثبات على الإيمان والتوفيق.

«وَرَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ»^(٢).

اللهم! يا مقلب القلوب؛ ثبت قلوبنا على دينك، وارزقنا حسن الجنان.

الآية السابعة والأربعون فيها أيضاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ». واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم^(٣).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين الصادقين؛ ناهياً إياهم عن ارتكاب خيانتين؛ كما هو شأن المنافقين؛ يخونون الله، ويخونون رسول الله، ويخونون المؤمنين، فهى الله تعالى المؤمنين عن هذه الفعل القبيحة والخضلة الشنيعة، ففيه عبرة لمنافقي هذا الزمان، الذين يخدمون أعداء الدين والملة والأوطان، مع كونهم أمراء في بلاد الإسلام.

وطالعوا يا أيها المؤمنون قصة أبي ليابة^(٤) واعتبروا بها.

وقد ذكروا في نزول الآية أسباباً، ومهما يكن سبب النزول؛ فالآية

(١) آل عمران: ٨.

(٢) الأنفال: ٢٧ - ٢٨.

(٣) انظر: «أسباب النزول» (ص ٢٦٩) للواحدي، و«الدر المنثور» (٤ / ٤٨)، و«تفسير الطبري» (١٣ / ٤٨١)، و«الإصابة» (٤ / ١٦٧)، وما سياتي (ص ١٩٩).

عامة^(١)، تشمل كل خيانة، ولذلك فسّر عبد الله بن عباس^(٢) رضي الله تعالى عنهما خيانة الله بترك فرائضه وارتكاب معصيته، والأمانة بكل ما اتّمتن الله عليه العباد بأن يتقّضها.

فيا أيها المؤمنون! لا تخونوا الله تعالى بتعطيل فرائضه، أو تعدي حدوده، وانتهاك محارمه التي بيّنها لكم في كتابه، ولا تخونوا الرسول بالرغبة عن بيانه لكتاب الله تعالى إلى أهوائكم أو آراء مشايخكم أو آبائكم، أو المخالفة عن أمره إلى أوامر أمرائكم وترك سنته إلى سنة أوليائكم؛ بناء على زعمكم أنهم أعلم بمراد الله ورسوله منكم، ولا تخونوا أماناتكم فيما بينكم وبين أولياء أموركم من الشؤون السياسية، ولا سيما الحربية، وفيما بينكم بعضكم مع بعض من المعاملات المالية وغيرها، حتى الاجتماعية والأدبية؛ فقد ورد في الحديث: «المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس: سفك دم حرام، أو فرج حرام، أو اقتطاع مالٍ بغير حق»، رواه أبو داود والترمذي وأحمد^(٣).

وفي حديث جابر رضي الله عنه: «إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت؛

(١) قال ابن كثير في «تفسيره» (٢ / ٤٧٤): «والصحيح أن الآية عامة، وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء، والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار، اللازمة والمتعدية».

(٢) أخرجه ابن جرير (١٣ / ٤٨١)، وأورده السيوطي في «الدرر» (٤ / ٤٩) وزاد نسبه لابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) رواه: أبو داود (٣ / ٣٤٢ - ٣٤٣)؛ من طريق ابن أبي جابر عن جابر. وفي سننه جهالة.

وعزو المصنف الحديث للترمذي وهم، فانظر «جامع الأصول» (٦ / ٥٤٥).

وقوله ﷺ: «المجالس بالأمانة» له شواهد وطرق تحسنه.

فهو أمانة^(١).

فإنشاء السرّ خيانة محرمة، وأكد الأمانات السرّ، وأحقّها بالحفظ ما يكون بين الزوجين، والخيانة من صفات المنافقين، والأمانة من صفات المؤمنين.

وقد قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»، رواه أحمد وابن جبان.

وفي المتفق عليه في «الصحيحين»^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أوتى خائن»، وزاد مسلم: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

فكل ما يجب حفظه فهو أمانة، وكل حق مادي أو معنوي يجب عليك أدائه إلى أهله فهو أمانة.

إن الأمانة من الصفات الدينية التي قام عليها بناء المدينة، وبها تحفظ العمران والإصلاح لحال الأمة، ولا بقاء لدولة بدونها؛ لأن عليها مدار الثقة في جميع الحالات.

قوله: «وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»؛ أي: والحال أنكم تعلمون مقاسد الخيانة،

(١) أخرجه: أبو داود (٤٨٦٨)، والترمذي (١٩٥٩)، وأحمد (٣ / ٣٧٤ و ٣٥٢ و ٣٧٩ - ٣٨٠ و ٣٩٤)؛ من طريقين عن عبد الرحمن بن عطاء عن عبد الملك بن جابر عن جابر.

وسنده جيد؛ لحال عبد الرحمن، فقد قال فيه الحافظ: «صدوق فيه لئ».

(٢) حديث حسن، أخرجه في تعليقي على «الفارق بين المصنف والسارق» (ص ٦٧) للسيوطي.

(٣) رواه: البخاري (١ / ٨٣)، ومسلم (٥٩).

وتحريم الله تعالى إياها، وسوء عاقبة تلك المفاسد في الدنيا والآخرة، أو تعلمون أن ما فعلتموه خيانة؛ لظهوره، وأما ما خفي عنكم حكمه؛ فالجهل به عذر إذا لم يكن مما علم من الدين بالضرورة؛ كفعلة أبي لبابة التي كانت هفوة سببها الحرص على المال والولد، وسند ذكر القصة في آخر الباب إن شاء الله تعالى.

ولما كان حب الأموال والأولاد مُردياً في الخيانة؛ أعلمنا الله تعالى به عقب النبي عنها، فقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، الفتنة: هي الاختيار والامتناع بما يشق على النفس فعله أو تركه أو قبوله أو إنكاره، فتكون في الاعتقاد والأحوال والأعمال؛ يمتحن الله تعالى المؤمنين والكافرين والصادقين، ويحاربهم بما يترتب على فتنهم من اتباع الحق أو الباطل، وعمل الخير أو الشر.

وفتن الأموال والأولاد عظيمة، لا تخفى على ذي فهم وعقل، فالواجب على المؤمن اتقاء خطر الفتنة في الأموال؛ بكسبها من الحلال، وإنفاقها في سبيل الله، واتقاء الحرام في الكسب والإنفاق، واتقاء خطر الفتنة الثانية في الأولاد بما أوجب الله تعالى على الوالدين من حسن تربية الأولاد على الدين والفضائل، وتجنبهم أسباب المعاصي والذنوب.

﴿والله عنده أجر عظيم﴾، وهذا تذكير من الله للمؤمنين بما يعينهم على ما يجب عليهم من اتقاء الفتنين، وهو إشار ما عند الله سبحانه من الأجر العظيم لمن راعى أحكام دينه وشرعه في الأموال والأولاد، ووقف عند حدوده. فيا أيها المؤمنون! خافوا من الله ربكم، ولا تخونوا الأمانات، بل توبوا إلى

الله توبة نصوحاً.

ولكن؛ من الأسف أننا نشاهد كثيراً ممن يدعون الإيمان يخونون الله ورسوله في انتهاك حُرُمَاتِ دينهم من الشراكات، ودعاء الأرواح والأموات، والاستغالة بهم، ومن الفواحش والفجور، ويخونون أمتهم ودولتهم بمن قليل أو كثير من المال يرجونه أو ينالونه من عدوهم، وقد يكون من مال أمتهم وغنائم وطنهم، أو خوفاً على مالهم ولديهم.

وقد أسقطت الخيانة دولة كانت أعظم الدول في الأرض قوة وبأساً؛ بارتكاب رجالها الرشوة والخيانة من أهلها ومن الأجانب، حتى مسخت من الدين إلى اللادينية، فصارت دولة صغيرة فقيرة، ألا وهي تركيا اللادينية، ولكن الخلف المغرور لذلك السلف المخرب يدعو أنما أسقطها تعاليم الإسلام القيمة؛ لأنها صارت قديمة!!

والله العظيم؛ إنهم لو أقاموا واجباً واحداً أو أدباً واحداً من آداب القرآن؛ لكان كافياً لوقايتها من الزوال، وإنما سب كل هذه الأمور الجهل بمعاني القرآن كما لا يخفى، فصاروا من المحرومين.

وأما قصة أبي لبابة رضي الله عنه كما ذكرها ابن كثير في «تفسيره» وكذا البخاري^(١) وعائمه المفسرين^(٢)، فقد روى عبد الرزاق وأبو قتادة والكلبي والزهرى أن هذه الآية نزلت في شأن أبي لبابة هارون بن عبد المنذر الأنصاري، وذلك

(١) في «معالم التنزيل» (٢ / ٦١٩).

(٢) انظر ما سبق تعليقا (ص ١٩٥).

وأزيد هنا أن المروي فيه كله مراسيل ومعاضيل، فانظر «فتح الساموي» (٢ / ٦٥٥) والتعليق عليه.

«أن رسول الله ﷺ حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألو رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام، فأبى رسول الله ﷺ أن يعطيهم ذلك؛ إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فأتوا، وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، وكان مناصحاً لهم؛ لأن ماله وولده وعياله كانت عندهم، فبعث رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا لبابة! ما ترى؟ أنتزل على حكم سعد بن معاذ، فأشار أبو لبابة بيده على حلقه؛ أنه الذبح، فلا تفعلوا. قال أبو لبابة: والله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله. ثم انطلق على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ، ودخل المسجد، وشد نفسه على سارية من سواير المسجد، وقال: والله لا أبرج ولا أدفوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ. فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، قال: أما لو جاءني لاستغفرت له، فَمَا إِذَا فَعَلَ مَا فَعَلَ، فَأَيُّ لَا أَطْلُقَهُ حَتَّى يَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِ. فمكث سبعة أيام لا يدفوق فيها طعاماً ولا شرباً، حتى خرّ مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة! قد تاب الله عليك. فقال: لا والله؛ لا أجل نفسي حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلني بيده. فجاء، فحله بيده، ثم قال أبو لبابة: يا رسول الله! إن من تمام توبتي أن أخرج دار قومي التي أصبحت فيها الدنْب، وأن أنخلع من مالي كله. فقال النبي ﷺ: يجزيك الثلث، ففصلت به».

وتصدق الآية أيضاً على قصة حاطب بن أبي بلتعة^(١).

(١) وهو غير ثعلبة بن حاطب الذي رويت فيه روايات فيها نفاقه (١) وخيائه (١)

وإنما صدر منهما هاتان الخيانتان؛ حباً للمال والأولاد.

وعن هذا قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَاكُمُ وَأَوْلَاكُمُ فَتَنَّا﴾.

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ أتى بصبي فقبله، وقال: «أما إنهم متبخلة مجبنة، وإنهم لئن رزحان الله عز وجل»^(١).

وبالجملة؛ وإن روي في السبب قصصاً؛ فالصحيح أن الآية عامة؛ لأنه يؤخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند أهل الحق، والخيانة تعم الصغار والكبار واللازمة والمتعدية^(٢)، والأهم ما يتعلق بالملك، وحفظ الوطن، وصيانة كيان الإسلام والمسلمين، وأهم منها ما يتعلق بالدين والإيمان؛ كإدخال الشرك والوثنية في الدين باسم التصوف، وباسم الولاية، وباسم الحال = وكلها لا تصح ولا تثبت. وأما قصة حاطب؛ فستأتي عند المصنف (ص ٢٩١).

(١) رواه البغوي في «شرح السنة» (٣٤٤٨) من طريق يحيى بن يحيى عن ابن لهيعة عن الأسود عن عروة عن عائشة.

وستدع ضعيف؛ لحال ابن لهيعة، فالراوي عنه إنما لقّبه بعد اختلاطه واحتراق كفيه. وله شاهد، أخرجه: أحمد (٤٠٩ / ٦)، والترمذي (٦٩١١)؛ من طريق ابن أبي سويد عن عمر بن عبد العزيز عن خولة بنت حكيم. وابن أبي سويد - واسمه محمد - وثقه ابن حبان، ولم يرو عنه إلا اثنان. ولا يعرف سماعاً لعمر بن عبد العزيز من خولة. فقلعه إن شاء الله يتقوى به.

وأورد السيوطي في «الجامع الصغير» القطعة الثانية من الحديث «الولد من رزحان الجنة»، فأودعه شيخنا في «ضعيفه» (٦١٦٦).

أما القطعة الأولى؛ فلها شواهد عدة، فانظر «المجمع» (١٥٥/٨)، وما سيأتي (ص ٣١٠).

(٢) من كلام ابن كثير؛ كما سبق نقله عنه.

ورجال الغيب، فتنبه.

الآية الثامنة والأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ منبهاً إياهم، وموصياً بهم: أَنْ يَتَّقُوا اللَّهَ فِي كُلِّ مَا يَجِبُ أَنْ يُتَّقَى بِمَقْتَضَى دِينِهِ وَشَرْعِهِ، وَبِمَقْتَضَى سُنَنِهِ فِي نِظَامِ خَلْقِهِ؛ يَجْعَلْ لَكُمْ بِمَقْتَضَى هَذِهِ التَّقْوَى مَلَكَهً مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، تُفَرِّقُونَ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَتَفْصِلُونَ بَيْنَ الضَّارِّ وَالنَّافِعِ، وَتُمَيِّزُونَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ، وَتَزِيلُونَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالشَّيْءِ، وَتَحْصِلُ لَكُمْ نُورَ الْبَصِيرَةِ الَّذِي يَفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَهُوَ الْفَرْقَانُ الْحَكَمِيُّ الْعِلْمِيُّ، وَالْفَرْقَانُ الْعَمَلِيُّ الَّذِي هُوَ ثَمَرَةُ الْعِلْمِيِّ، وَهَذَا النُّورُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِطَلَبِهِ إِلَّا بِالتَّقْوَى.

وقد أمر الله تعالى بالتقوى في مواضع من كتابه؛ باتقائه، وابتغاء النار، وابتغاء الشرك والمعاصي، وابتغاء الفتن العامة في الدول والأمم، وابتغاء الفضل والخلال في الحرب، وابتغاء ظلم النساء، وبين أن العاقبة في إرب الأرض للمتقين؛ كما أن أرض الجنة في الآخرة للمتقين، والتقوى أجرتها كثير، وعاقبتها حميدة، والتقوى حصولها موقوف على العلم الواسع بمعاني الكتاب والسنة، وكمال هذا يتوقف على معرفة سنن الله تعالى في أنسان منفرداً ومجتمعاً؛ كما أرشد الله تعالى في آيات كثيرة من كتابه.

ولكن؛ لما دخل الأعاجم في الإسلام، وغلبوا على أمور المسلمين؛

(١) الأنفال: ٢٩.

كأبي مسلم الخراساني (١) وأمثاله، وهم جاهلون بمعاني كلام ربهم؛ خرجوا عن التقوى الواجبة، وهم لا يفرقون بين الحق والباطل، فأدخلوا في الدين والإسلام ما ليس منه، فأفسدوا السياسة، وفرقوا بين المسلمين، وجعلوهم مذاهب وفرقاً، وصاروا سبباً لضعفهم وزوال ملكهم ودولهم.

فيا أيها المؤمنون! اتقوا الله، وتوبوا إليه، وارجعوا عما أنتم عليه من الشريكيات والجهالات والترهات والتعصبات؛ ليكفر عنكم سيئاتكم الماضية، ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم. فإن تبتم؛ تاب الله عليكم، ويوفّقكم ويعطيكم السعادة والدولة في الدنيا والآخرة.

الآية التاسعة والأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَازَعُوا فَعْفَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢).

قد نادى الله تعالى، وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إياهم بالثبوت عند لقاء العدو، وإكثار ذكر الله تعالى قلباً ولساناً، ولا شك أن الثبات يفيد في كل أعمال البشر، فهو وسيلة النجاح في كل شيء.

فأكثرُوا من ذكر الله في أثناء القتال وتضاعفوه؛ اذكروه في قلوبكم؛ بذكر قدرته ووعده بنصر رُسُلِهِ والمؤمنين وكل من يتبع سنتهم بنصر دينه وإقامه سنته، وبذكر نهيه لكم عن اليأس مهما اشتد البأس، وبأن النصر بيده ومن عنده؛

(١) انظر ما سبق عنه (ص ٥١ و ١٢٠).

(٢) الأنفال: ٤٥ - ٤٦.

ينصر من يشاء وهو القوي العزيز، فمن ذكر هذا، وتأمل فيه؛ لا تهوله قوة عدوه واستعداده؛ لإيمانه بأن الله تعالى أقوى منه.

واذكروه أيضاً بالستيتكم؛ موافقة لقلوبكم؛ بمثل التكبير الذي تصفرون بملاحظة معناه كل ما عداه، والدعاء والتضرع إليه عز وجل مع اليقين بأنه لا يَعْجزه شيء ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

فهذا الفلاح وهذا الرجاء منوط بالأميرين كليهما؛ أي الثبات وذكر الله تعالى، هما السببان المعنويان للفلاح والفوز في القتال في الدنيا، ثم في نيل الثواب في الآخرة، وكان جنود المسلمين حينما كانوا يسمعون الأذان في ميدان القتال يبكون بشيخ عال، ويكثرون على الأعداء الكفار، فكانوا يُنصرون.

ولا شك أن تأثير الإيمان في قلوب الشعب الإسلامي ينفذ إلى أعماق القلوب باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الدين وعن الوطن، ولو لم يكن هناك أمل في المكافأة، وهذا هو الشعور الإيماني، والوجدان الإسلامي.

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، وحثهم عليه، ووصف الصادقين به في آيات أخرى كما وصف المنافقين بقلته؛ لأن الذكر غذاء الإيمان، فلا يكمل إلا بكثرته، فمن غفل عن ذكر الله تعالى؛ استحوذ الشيطان على قلبه، وزين له الشرور والمعاصي.

فيا أيها المؤمنون! أطيعوا الله ويطيعوا رسلكم في هذه الأوامر المرشدة إلى أسباب الفلاح في القتال وغيره، وأطيعوا رسوله محمداً ﷺ فيما يأمر به وينهى عنه من شؤون القتال وغيرها؛ من حيث إنه ﷺ هو المبين لكلام الله الذي أنزله إليه على ما يريد الله تعالى منه، والمنفذ له بالقول والعمل والحكم.

﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾: هذا النهي مسوق للأمر بالثبات وكثرة الذكر وطاعة الله والرسول، ومتعمد للغرض منه، فإن الاختلاف والتنازع مدعاة للفشل، وهو الخيبة والتكول عن إفضاء الأمر، وتذهب ريحكم وقوتكم فيظهر عدوكم عليكم.

﴿واصبروا إن الله مع الصابرين﴾: بالعمونة والتأييد، ومن كان الله معه؛ فلا يغلبه شيء.

فيا أيها المسلمون! كونوا مؤمنين عاملين بهذه الإرشادات الربانية، ولا تغفروا بسفاسيف الفلاسفة وترهات الملاحدة، واجتهدوا في العمل بالأوامر الإلهية، وكونوا صابرين عليها، حتى تنالوا الدرجات العلى في الدنيا والآخرة.

والمسلمون منذ تنازعوا واختلفوا وصاروا مذاهب وطرقاً يتعصب بعضهم لبعض؛ صاروا يعادي بعضهم بعضاً، ويضلل بعضهم بعضاً، قد ذهب ريحهم، وتلاشت قوتهم، وصاروا طعمة لكلاّب الإنكليز، وخنازير الروس البلاشفة، وفتاب الطليان والفرنسيس، ولكن العجب أنهم لا يتنبهون، وعن سكرتهم لا يفقهون، بل في غيهم وطمعائهم يعمهون، قد أعماهم الجهل، وأضلهم الفكر الفاسد والخيال الكاسد.

فيا أيها المسلمون! اتركوا المذاهب المبتدعة والطرق الوثنية كلياً، واكتفوا كلكم جميعاً بالتمذهب بمذهب الإمام الأعظم على الإطلاق بالاتفاق سيدنا محمد رسول الله ﷺ عقيدة وعملاً، فحينئذ تتجددون وتتقون، فتفوزون وتسعدون وتقون وتتصرون وتتأيدون بالنصر الإلهي، وهذا هو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟

الآية الخمسون في سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى ونحاطب عباده المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن اتخاذ الآباء والإخوان الكافرين أولياء إن هم أصروا على كفرهم، وأثروا على الإيمان؛ لأن باختلاف الدين تنقطع العلاقة، فلا ينبغي للمؤمن أن يوصل هذه العلاقة المقطوعة، والكافر من حيث إنه كافر لا يحب المؤمن من حيث إنه مؤمن، فلماذا إذا تولى وأحب العبد المؤمن الكافر - ولو أباه أو أخاه -؟ فقد ظلم نفسه بوضع الحب في غير موضعه، والمؤمن يحب الله ورسوله أشد من حبه نفسه؛ فضلاً عن حب أبيه وأخيه، فلماذا يجاهد في الله، ويقاتل، ولو مع أبيه وأخيه وأقربائه الكافرين.

فمن ترك الجهاد في سبيل الله لأجل رعاية آباءه وأبنائه وإخوانه وأزواجه وعشيرته، أو لأجل حفظ أمواله وأملاته وتجارته وكسبه، أو مساكنه العالية وقصوره الفاخرة وبساتينه الزاهرة، وقدم حب هذه الأشياء على حب الله ورسوله وجهاد في سبيله؛ فليترصصوا وليتظنوا حتى يأتي الله بأمره، وهذا وعيد لهم؛ لنذهب أنفسهم فيه كل مذهب.

ولا شك أن الذين يؤثرون حب أهليهم وأموالهم على حب الله ورسوله وجهاد في سبيله منافقون، ولا يصلح هذا إلا عن المنافقين، ولا ريب أن الذين اتصفوا بتلك الصفات غير تأملي الإيمان أو غير صحيحه، ومن أتر حب هذه

(١) التوبة: ٢٣.

الأشياء على حب الله ورسوله وجهاد في سبيله؛ فهو من المحرومين من الصلاح والإصلاح، والفوز بسعادة الدارين، والحاصل من حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، وبه يحصل الولاء والاتحاد بين المؤمنين، فتزول خرافات الشرك ومفاسده، وتقام الحق والعدل؛ كما لا يخفى.

فيا أيها المؤمنون! ارجعوا إلى حب ربكم، واجتهدوا في فهم كلامه وخطابه؛ لأنه خاطبكم وأمركم ونهاكم، فلا تكفروا هذه النعمة العظمى والدولة الكبرى، ولا تضيعوا أعماركم وأنفاسكم بسفاسيف الهوى وتزهات الآراء، وتحذوا حظكم من نعم ربكم، ولا تكونوا من المحرومين والمردودين الخاسرين، فلا ينفكم آباؤكم ولا أبنائكم، ولا أموالكم وجاهكم، ولا ساداتكم وشيوخكم، ولا مذهبكم وطريقكم، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٢)؛ أي: سليم من الشرك، وسليم من الكفر، وسليم من النفاق، وسليم من الشك، وسليم من الزندقة، وسليم من الرياء.

اللهم ارزقنا قلباً سليماً، وإيماناً ثابتاً، وتوحيداً خالصاً، ولساناً ذاكراً آمين.

الآية الحادية والخمسون في سورة التوبة أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٣).

(١) الشعراء: ٨٨ - ٨٩.

(٢) التوبة: ٢٨.

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين؛ متهماً إياهم بأن المشركين أنجاس، فلا تركوهم يقربون المسجد الحرام ويقيمون فيه.

ولفظ النجس إذا وُصف به الإنسان؛ فالمراد به أنه شَرُّ حيث النفس، وإن كان طاهر البدن والشوب حساً، في المثل: الناس أنجاس، وأكثرهم أنجاس، نجستهم الذنوب، فلا ترى أنجس من المشرك والكافر.

فمعنى الآية: يا أيها المؤمنون! اعلّموا أن المشركين ليسوا كما تعلمون من ظاهر حالهم، بل هم أنجاس فاسدو الاعتقاد، يُشركون بالله ما لا ينفع ولا يضُر، فيعبدون الرجس من الأوثان والأصنام، ويدبّون بالخرافات والأوهام، ولا ينتزّهون عن النجاسات والآثام، ويأكلون الميتة والدم ولحم الخنزير، ويستحلّون القمار والزنا من الأرجاس، وقد تمكّنت صفات النجس منهم حساً ومعنى، حتى كأنهم عينه وحقيقته، فلا تمكّنوهم بعد هذا العام - عام تسعة من الهجرة، وثاني عام الفتح - أن يقربوا المسجد الحرام بدخول أرض الحرم؛ فضلاً عن دخول البيت نفسه، وطوافهم عرّة فيه؛ يشركون برّبهم في التلبية، وإذا صلّوا عند البيت لم تكن صلاتهم إلا مكاءً وتصدية^(١).

وقد روى مسلم^(٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «أخرجني اليهود والنصارى من جزيرة العرب؛ فلا أترك فيها إلا مسلماً». وفي رواية^(٣): «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب».

(١) كما في سورة الأنفال: ٣٥.

(٢) برقم (١٧٦٧)، وهو عن عمر، لا عن ابنه.

(٣) وهي في: البخاري (٦ / ١١٨)، ومسلم (١٦٣٧)، عن ابن عباس.

ولم يتفرّع لذلك أبو بكر رضي الله عنه، وأجلّاهم عمر رضي الله عنه في خلافته، وأجل لمن يقدّم تاجراً ثلاثاً.

وعن ابن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب»، أخرجه مالك في «الموطأ»^(١).

لأن إقامتهم لا تخلو عن إيقاع فتنة، وإفساد عقيدة وأخلاق، وهذا ظاهر بين.

ويا أيها المؤمنون! إن خطر ببالكم أنكم إذا منعتم المشركين تنقطع عنكم الأرزاق، فتقعون في الضيق والفقر؛ فاعلموا أن الله الكريم الرزاق يُغنيكم من فضله، وفضله تعالى كثير.

والمنافقون في كل عصر وزمان يُلقون الشبهة في قلوب الناس، فحيث إن أكثر الناس ضعيفو الإيمان، يميلون إلى الكفار، ويعتمدون عليهم، ويرضون بدخولهم في أرض الحرمين؛ فهم يفقدون دينهم وعقيدتهم شيئاً فشيئاً؛ كما هو معروف في الشريف حسين وأحزابه^(٢).

إن الله تعالى عليهم بحقائق الأمور، وما في الصدور، وحاجات عبادِهِ،
(١) (٢ / ٨٩٢ و ٨٩٣) مرسل.

ووصله جماعة من طُرُق عدة؛ كما تراه في: «نُصَب الراية» (٣ / ٤٥٣)، و«التلخيص الحبير» (٤ / ١٢٤)، وهو حديث صحيح.

وزعم الشيخ عبد القادر الأرناؤوط في تعليقه على «جامع الأصول» (٩ / ٣٤٣) أنه موصول في «الصحيحين» عن ابن عباس!! وليس كذلك، إنما ذاك حديث آخر، وهو: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»! وسبق تخريجه.
(٢) انظر ما سبق (ص ١٥٠)، والتعليق عليه.

وحكيم فيما شرعه في الامر والنهي ، فامتنوا بالله ، وامتلوا امره صدقاً وإخلاصاً ،
تَرَوْا فضل الله داراً عليكم بتسخير عبادته لكم وتمهيد سبيل الملك والمُلْكِ ،
وبسط الرزق ، ويزيدكم نصراً وغنى إذا وقبتم بما شرطه عليكم ؛ بمثل قوله :
﴿إِنْ تَتُصَرَّوْا لِلَّهِ تُنْصَرَوْا﴾ (١) .

اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ .

الآية الثانية والخمسون فيها أيضاً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ
الْأَخْيَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ
يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ
لأنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَنُونَ﴾ (٢) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين مبيهاً إياهم بأن كثيراً من
العلماء والعباد والمشايخ والسادات ليأكلوا أموال الناس بالباطل ، ويمنعونهم
عن السلوك في سبيل الله وسبيل الحق والطاعة .

وحيث إن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ،
ورفعوهم فوق قدرهم ، وافتتن هؤلاء العلماء والعباد واعتزوا ففسدوا ، فأراد الله
تعالى أن يبين لنا شيئاً من سيرة جمهور هؤلاء الرؤساء الدينيين العلمية والعملية
ليعرف المسلمون حقيقة حالهم ، والأسباب التي تحيلهم على محاولة الصد عن

(١) سورة محمد : ٧ .

(٢) التوبة : ٣٤ - ٣٥ .

سبيل الله تعالى ، وأن أكثرهم يعبدون أهواءهم وشهواتهم .

واستعمل أكل الأموال بمعنى أخذها والتصرف فيها بوجوه الانفعال ،
واسناد هذه الجريمة المؤزبة إلى الكثير منهم دون جميعهم من دقائق تحري
الحق في عبارات الكتاب العزيز ، فهو تعالى لا يحكم على الأمة الكبيرة بفساد
جميع أفرادها أو فسقهم أو ظلمهم ، بل يسند ذلك إلى الكثير أو للأكثر .

والمعنى العام لأكل أموال الناس بالباطل هو أخذها بغير وجه شرعي ،
فمنها ما يبذله كثير من الناس لمن يعتقدون أنه عابد قانت لله زاهد في الدنيا ؛
ليدعوا لهم ويشفع لهم عند الله في قضاء حاجاتهم وشفاء مرضاهم ؛ لاعتقادهم
أن الله تعالى يستجيب دعاءه ولا يرد شفاعته .

الدعاء مشروع دون أخذ المال به أو عليه ، والرجاء باستجابته حسن ،
واعتقاده بالجزم جهل ، أو لظنهم أن الله تعالى أعطاه سلطاناً وتصرفاً في
الكون ، فهو يقضي الحاجات من دفع الشر عن شيء وجلب الخير لمن يشاء
منى شاء ، وهذا هو اعتقاد الوثنيين في أوثانهم ومعبوداتهم ، قد طرأت على أتباع
الأنبياء عليهم السلام بدساتر الدخيل فيهم ، وتأولها لهم الرؤساء الدينيون
المضلون ؛ بأنها لا تنافي التوحيد الذي جاء به الرسل عليهم السلام .

ومنها ما يأخذ سدة قبور الأنبياء والصالحين والمعابد التي بُنيت
بأسمائهم من الهدايا والتلذذ التي يحيلها إلى تلك الأماكن أمثال من ذكرنا ممن
لا يعقلون معنى التوحيد الخالص .

والنصارى يبنون الكنائس والأديار بأسماء القديسين والقديسات ، فتحس
عليها الأراضي والمقارنات ، وتقدم لها الذنور والهدايا ، تقرُّباً إلى تلك الأسماء

وهذا وما قبله مما أتبع المسلمون فيه سنتهم شيراً بشير وذراعاً بذراع^(١)،
وتدعون تلك الأسماء مع الله تارة، ومن دونه تارة، وتندّر له وحده تارة، ومع الله
تارة.

فهذه البدع الشركية تنبأ منها أديان الأنبياء الموحدة إليهم من الله عز
وجل، والنفقة فيها كلها من الباطل، وأكلوها من رؤساء الدين وسدنة المعابد
من الذين يأكلون أموال الناس بالباطل.

ومنها ما يأخذه بعض قسوس نصارى الكاثوليك جعلاً على مغفرة
الذنوب أو ثمناً لها، وكذا ما يأخذه دجاله من يدعي الإسلام على بعض
التمائم، وذلك أنه إذا اشتراها الزاني أو الزانية بشئ كذا وعلقه على نفسه؛ يغفر
كل ذنوبه.

ومنها ما يأخذه العلماء الدُّجَالون على فتاوى تحليل الحرام وتحريم
الحلال، فأولو المطامع والأهواء يفتون الملوك والأمراء والأغنياء بما يساعدهم
على إرضاء شهواتهم والانتقام من أعدائهم بضروب من الحيل والتأويل.

ومنها الرشوة، وهو ما يأخذه صاحب السلطة الدينية أو المدنية - رسمية أو
غير رسمية - من المال وغيره لأجل الحكم أو المساعدة على إبطال حق أو
إحقاق باطل.

(١) كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ فيما صح عنه.

انظر الحديث الوارد في ذلك وتخريجه في «تثبته الخسيس» (ص ٢٠ - ٢١) للإمام
الذهبي، بتحقيقه.

ومنها الرِّبَا، خصوصاً الفاحش منه، وهو فاش عند اليهود والنصارى، وقد
تعامل بمعاملتهم بعض فقهاء المسلمين، وخصوصاً في بخارى وما وراء النهر؛
فإن أكثرهم يعاملون بالرِّبَا مع حيلتهم الشرعية الشرعية الملعونة، وأكثر هؤلاء لا
يعطون الزكاة المفروضة، بل يأخذونها ويتعللون بعلم شيطاني وفتاوى إبليسي؛
كانهم خارجون عن خطاب ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(١).

ومنها قراءتهم القرآن لأجل المال، وإهداء ثوابها إلى روح من يريد
المستأجر، وغيرها من الأمور التي لا تخفى على العالم بالدين؛ فإنها لله وإنما
إليه راجعون.

وأما صدّهم عن سبيل الله؛ فهو منتهم الناس عن الإسلام؛ فإن سبيل
الله في الدين هي طريق معرفته الصحيحة وعبادته القويمة التي ترضيه. ورأس
معرفته: التوحيد والتنزيه، وأما أكثر الأحرار والرهبان؛ فمشركون غير موحدين،
ومشبهون غير متزيين؛ كما علم من الآيات السابقة. وأما عبادته القويمة؛ فهي
أن يُعبد وحده بما شرعه هو دون البشر، وهم قد غيروا وبدلوا وأخذوا. فمعرفته
الله تعالى وعبادته على الوجه الحق المُرصّي له تعالى محصورة في الإسلام
الذي حفظه الله تعالى بكتابه المنزل وما بينه من سنة نبيه المرسل محمد ﷺ.

وكل ما ابتدعه جهلة المسلمين والكاذبون له من غيرهم، فالقرآن الحكيم
والسنة الصحيحة حجة على بطلانه، وحفاظ السنة وأنصارها يتفون عنه تحريف
الغالين، واتباع المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وأما طرق صدّهم عن الإسلام والتوحيد الصحيح؛ فهي تختلف

(١) البقرة: ٤٣.

باختلاف الزمان والمكان والإمكان، وقد انفرَدَ النصارى بالعناية بهذا الصِّدِّ من طريقي السياسة والدعوة معاً، وقد أتى الله تعالى بصيغة المضارع الذي يدلُّ على الحال والاستقبال، وهم لا يقتنعون بصِدِّ أهل مللهم عن الإسلام، بل يصدِّون أهله عنه، كما صدُّوا الأتراك الكماليين، ودَعَوْهم إلى دينهم المُلْفَق من الأديان الوثنيَّة والدَّهرية.

وقد اشتدَّت ضراوتهم بعد الحرب العالمة عام ١٩١٦م؛ بسلب البلاد الإسلاميَّة ما بقي من استقلالها، وتعميم النصرية في جميع أهلها، حتى جزيرة العرب، وقد سَخَّروا بعض أمراء المسلمين المستعبدين وشيوخ الطرق والفقهاء المناقذين الدُّجاليين؛ لشدِّ أزرهم.

فماذا نقول بعد هذا من تسخيرنا زنادقتهم وملاجذتهم؟ وماذا يفيد المسلم من قراءة مثل هذه الآية ومن تفسير علماء الألفاظ والروايات لها إذا لم يعرف مضمونها التفصيلي العملي في عصره، ويسعى لتدارك خطيئته؟ فلا يكون القرآن إلَّا حجة عليه^(١).

وأشدُّ طريق الصِدِّ عن الإسلام وأشرُّ وأضرُّ تعليم المدارس التي يُفسدون عقائد النشء الذي يتعلَّم ويتربَّى فيها، ولكنَّ أكثر مسلمي زماننا لا يعقلون كُنه مفسادها وسوء عاقبتها في الدين والأدب وسياسة الأمة واستقلالها.

ومن الضَّالِّين عن الإسلام الصحيح والدين الحقِّ: شيوخ الطُّرق، وأصحاب الدُّجل، وسدنة المشاهد والقبور؛ فإنهم لانغرافهم في ظلمات

(١) تأملوا - رحمكم الله - هذا الكلام العظيم الصادر من عالم عامل كنه قبل نحو خمسين عاماً، وكأنه يكتِّه اليوم؛ ناظراً أحوال المسلمين، مشاهداً مأسيتهم وبلااتهم!!

الشرك والجهل والغبابة والترهات يصدِّون الناس عن الحقِّ، وعن التوحيد الصحيح، وعن العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، والجهال يظنون فيهم الصلاح والدين والخير، والحال أنَّهم صاروا من شياطين الإنس؛ كما هو المشاهد في جميع أنحاء العالم الإسلامي، حتى في الحرمين، وهؤلاء العلماء والشيوخ والسادات وإن ادَّعوا أنَّهم ورثة الأنبياء، وقدوة الأنام، ولكنَّ لسان حالهم وشاهد فعلهم يترنُّم بهذا البيت:

وَكُنْتُ فَنَى مِنْ جُنْدِ إِبْلِيسَ فَارْتَقَى

بَنَى الْحَالِ حَتَّى صَارَ إِبْلِيسُ مِنْ جُنْدِي

أعاذنا الله تعالى من شرِّهم، ومن شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ومن شرِّ كل ذي شرٍّ.

وإنَّ هؤلاء الرؤساء السوء من العلماء والمشايخ الذين يجمعون الأموال ويكثرون الذهب والفضة والجواهر، ويننون القصور؛ أخبر الله عنهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُلْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

مقتضى السياق أنَّ تكون هذه الجملة في الكثير من الأخبار والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدِّون عن سبيل الله؛ كما نصَّ عليه معاوية رضي الله عنه^(٢).

فكلُّ من اتَّصف بهذه الصفة؛ فهو داخل في الوعيد من الأمر السابقة أو

(١) التوبة: ٣٤.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢ / ٥٥٠).

من هذه الأمة؛ كما قال أبوذر رضي الله عنه: «نزلت الآية فينا وفيهم جميعاً»^(١)، وهو الحق؛ لأن اللفظ مطلق فيجب جريانه على إطلاقه وعمومه.

ولا شك أن أكبر أسباب ضعف المسلمين وذهاب دولتهم، وتمكين أعدائهم من سلب ملكهم، ومحاولة تحويلهم عن دينهم: هو حرص علمائهم ومشايخهم على الدنيا، وبخل أغنيائهم، وتجنّب ملوكهم وأمراءهم وقوادهم وزعمائهم، وكوّنهم جاهلين بمعاني كلام ربهم، ولقد صدّق الذي قال: حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة^(٢).

فيا أيها المؤمنون! افهموا كلام ربكم، ومواعظ مولاكم، واعتبروا بما جرى وما يجري، واجتهدوا في إصلاح أنفسكم؛ لتنالوا رضى ربكم، فتفوزوا بسعادة الدنيا، وإلا تكونوا من المحرومين الخاسرين في الدارين؛ كما هو شأن أكثر المغرورين، فإننا لله وإنّا إليه راجعون.

الآية الثالثة والخمسون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ فَأَتَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلُم إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٣).

(١) كما رواه البخاري (٣ / ٣١٧).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (٢ / ١٩٦): «هذا معروف عن جندب بن عبدالله الجلي، وأما عن النبي ﷺ؛ فليس له إسناد معروف».

وانظر: «المفاهيم الحسنة» (٣٨٤)، و«أحاديث القصاص» (٧٤)، و«تخريج الإحياء» (٣ / ١٩٧ و ٤٠١)، و«السلسلة الضعيفة» (١٢٢٦).

(٣) التوبة: ٣٨.

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين بالاستفهام الإنكاري والنويخ، وإن كان سبب النزول في واقعة تبوك، ولكن الخطاب عام لعامة المؤمنين أجمعين؛ تربية لهم، وتنبيهاً إياهم أن لا يفتقدوا عن الجهاد؛ لأن القعود عن الجهاد من شأن المنافقين.

وحاصل المعنى: يا أيها الذين دخلوا في الإيمان وأنصفوا به! ماذا عرض لكم مما ينافي صحة الإيمان أو كماله المقتضي للإذعان والطاعة حين قال لكم الرسول: اتقوا في سبيل الله؛ لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم، والقضاء على دينكم الحق، الذي هو السبيل الموصل إلى معرفة الله وعبادته، وإقامة شرعه وسننه، فأنتم تناقلتم عن النهوض بالنشاط وعلو الهمة؛ مخليدين إلى أرض الراحة واللذة؟ والحال أن آية الإيمان بذلك الجهد بالمال والنفس في سبيل الله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَنْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(١).

أرضيتُم أيها المؤمنون بالحياة الدنيا من الآخرة؟ أي: براحة الحياة الفانية الدنيوية ولذتها الناقصة؛ بدلاً من سعادة الآخرة الكاملة الباقية الدائمة، إن كان الأمر كذلك؛ فقد استبدلتم الذي هو أدنى بالذي هو خير وأبقى؛ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل؛ فلا يرضاه عاقل بدلاً منه، وإنما يؤثره عليه من لا يؤمن به.

وقد مضت سنة الله تعالى بأنه لا بقاء للأمم التي تتناقل عن الدفاع عن نفسها وحفظ حقيقتها وسيادتها.

(١) الحجرات: ١٥.

فيا أيها المؤمنون! استعملوا للدِّفاع والجهاد كما أمر الله تعالى الحكيم، ولا تعتمدوا على الأرواح الخاليات والأجساد الباليات، ولا قراءة «دلائل الخيرات»، أو حُرُوب النصر والبحر، أو قراءة «صحيح البخاري» بدون فهم، ولا عمل بما فيه؛ فإنَّ كلَّها من دسائس شياطين الإنس؛ ليجعلوكم محرومين من السُّلُوتَيْن والسَّعَادَتَيْن الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ. فانتبهوا، وارْجِعُوا إِلَى أَصْلِ دِينِكُمْ وكلام ربِّكم وهداية رسوله الأمين سيدنا محمد خاتم النبيين ﷺ.

الآية الرابعة والخمسون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إلهياً بأن يتقوه، ويكونوا مع الصادقين، وإنما إمام الصادقين هو رسول الله ﷺ، فكانوا معه ملازمين إياه ومُتَّبِعِينَ أَمْرِهِ فِي غَزَاوَاتِهِ وَكُلِّ حَالَاتِهِ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: «وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ»^(٢).

وعلى أي حال؛ أيها المؤمنون! اصْدُقُوا، والزَمُوا الصَّدْق؛ تكونوا من أهلِهِ، وتَنْجُوا مِنَ الْمَهَالِكِ، ويجعل الله لَكُمْ فَرْجاً وَمَخْرَجاً فِي كُلِّ أَمْرِكُمْ، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٣).

(١) التوبة: ١١٩.

(٢) كما في «جامع البيان» (١١ / ٦٣) للإمام الطبري، وهي من الشواهد

(٣) الطلاق: ٢ - ٣.

وقد ثبت عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدْقَ حَتَّى يَكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقاً، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يَكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذِباً» رواه الشيخان وأصحاب السنن وأحمد^(١).

وَالصَّادِقُونَ حَقِيقَةٌ هُمُ الَّذِينَ صَدَقَتْ نَبَاتُهُمْ، وَاسْتَقَامَتْ قُلُوبُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ، وَامْتَلَأُوا أَمْرَ رَبِّهِمْ عَنْ صَمِيمِ قُلُوبِهِمْ، وَالصَّادِقُ هُوَ الْفَالِحُ فِي الدَّارَيْنِ، وَالْكَاذِبُ هُوَ الْخَاسِرُ فِي الدَّارَيْنِ، وَسَاقَطَ الْاعتِبَارُ فِي الْخَافِقَيْنِ، وَمَحْذُوقُ الْبِرَّةِ.

ولكنَّ الأسف أن كثيراً من المسلمين، بل من هم على زِيِّ العلماء والأئمة والمدرسين، قد اتَّخَذُوا الْكَذِبَ شِعَارَهُمْ، وَالتَّفَاقُ دِتَارَهُمْ، لَا يَسْتَحْيُونَ؛ لَا مِنْ اللَّهِ، وَلَا مِنْ بَنِي نَوْعِهِمْ، حَتَّى إِنَّ الْكُفَّارَ يَطْعَنُونَ عَلَيْهِمْ وَيَعْيُونَهُمْ.

فيا أيها المسلمون! أنتم المخاطبون بالمأمورين بالتقوى والصدق، فلماذا صرتم من المحرومين من هذه الصفة الكريمة، وصرتم أسارى النفس والشيطان والهوى، ولو أنتم أنفسكم بصفات أهل الخبث والجفاء؟! فافيقوا يا إخواني من سكرتكم، وتوبوا إلى الله جميعاً توبة نصوحاً، وكونوا

(١) رواه: البخاري في «صحيحه» (١٠ / ٤٢٣)، وفي «الأدب المفرد» (٣٨٦) ومسلم (٢٦٠٦ / ٢٦٠٧)، وأبو داود (٤٩٨٩)، والترمذي (١٩٧٢)، وأحمد في «مسنده» (٣٨٤ / ٣٩٣ و ٤٠٥ و ٤١٠)، وابن أبي شيبة (٨ / ٥٩٠)، وفي «الناظم تغاير خفيف.

الآية الخامسة والخمسون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين أمراً بإلزامهم بقتال من يليهم من الكفار إذا غدروا أو تعدوا، وأمرهم أيضاً بأن يعاملوهم معاملة غليظة بالشدّة والبطولة والشجاعة؛ دون الرعونة والجبن والكلل.

فيا أيها المؤمنون! قد أمر الله تعالى المؤمنين أن يُقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام.

ولهذا قد بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم - وقد فتح الله تعالى عليه مكة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر العرب في دين الله أفواجا -؛ شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام؛ لأنهم أهل كتاب، فبلغ تبوك، ثم رجع لأجل جهد الناس، وجذب البلاد، وضيق الحال^(٢)... إلخ.

ثم قام بعده ﷺ خليفته أبو بكر ثم عمر رضي الله تعالى عنهما، فغزوا الروم عبدة الأوثان والصلبان، والفرس عبدة التيران، ففتح الله تعالى البلاد ببركة

(١) آية: ١٢٣.

(٢) انظر تفصيل ذلك في «الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك» للسدي.

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾؛ فإن المؤمن الكامل الإيمان هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر:

قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(١)، و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾^(٢).

وفي الحديث: أنه ﷺ قال: «أنا الضُّحُوكُ الْفَتَالُ»^(٣)، الضُّحُوكُ في وجه المؤمن، والفتال لعامة عدوه الكافر.

ولكن الأسف أن المسلمين لما جهلوا أمر ربهم، وحقيقة دينهم وشرعهم، ولم يتمكّن الإيمان في قلوبهم؛ انعكسوا، فعمسوا الأمر، بحيث صاروا خاضعين متواضعين للكفار والمنافقين، وغلبت المعاملة وعيوسي الرجوع للمؤمنين، فلهذا أدلهم الله تعالى تحت سيطرة الكافرين والمنافقين.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، فأنتم أيها المؤمنون إذا اتقيتم الله تعالى وأطعتموه واستلتم أمره؛ فالله معكم، فتكونون منصورين وغالبين مُفْلِحِينَ وناجحين وفائزين في الدنيا والآخرة.

ولمّا كان أهل القرون الثلاثة الذين هم خير هذه الأمة^(٤) في غاية

(١) محمد: ٢٩.

(٢) التحريم: ٩، التوبة: ٧٣.

(٣) أورده ابن كثير في «تفسيره» (٢ / ٦٢٣) دون عزو، والمصنف ينقل منه، ولم أجد له أصلاً فيما بحث.

(٤) كما صُحِّح عنه ﷺ، فيما رواه: البخاري (٥ / ١٩٠)، ومسلم (٢٥٣٥).

الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى؛ لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تزل الفتوحات كثيرة، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار، ولما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات، وغلب الجهل على العلم، وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم؛ طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، حتى أخذوا بلداناً كثيرة، ولا يزالون يستعيدون على كثير من بلاد الإسلام.

وكلما قام ملك من ملوك المسلمين وأطاع أوامر الله وتوكل على الله؛ فتح الله عليه من البلاد ما شاء بقدر ما فيه من ولاية الله؛ كما هو المشاهد المعلوم؛ كما فتح الله تعالى للسعوديين الوهابيين^(١) ولايات الحجاز والحرمين وعامة جزيرة العرب؛ لنصرهم دين الله، وقيامهم بتوحيد الله حق القيام، فالحلهم ثبوتهم على الحق، وأيدهم بتوفيقك، وأيد دولتهم إلى الأبد على الصراط المستقيم آمين.

وأما إذا انخرقوا عن الصراط المستقيم الذي ميزه القرآن وسنة المصطفى؛ سلب الله تعالى عنهم الدولة، وسلط عليهم غيرهم، حتى يدوقوا الذل، ويحطروهم تحقيراً، «ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أتمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»^(٢)، «وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون»^(٣).

فيا أيها المسلمون! اتقوا غضب الله وعذابه وانتقامه؛ أنتم المأمورون^(١) ولفظ (الوهابيين) إنما اخترعه أعداء دعوة التوحيد؛ تنفيراً للناس منهم، والاصل تجنبه والبعد عنه، لئلا يجارى أولئك الخصوم بتقليداتهم! فانظر ما سيأتي (ص ٢٨٣).

(٢) الأنفال: ٥٣.

(٣) الأنعام: ١٢٩.

بالتقوى، وأنتم المأمورون بأن تعلموا وتفهموا أوامر الله، ولكنتكم ضيعة أهليكم، واكتفيتم من كتاب الله بتلاوته وتزيين حروفه وخطوطه؛ من غير فهم معناه وتدبر ما فيه من الحكم والمواعظ والعبر، فاتقوا الله، اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ومن الصادقين، عسى الله تعالى أن يفتح عليكم باب فضله بفضله ومنه؛ إنه تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

الآية السادسة والخمسون في سورة إبراهيم: «قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا الصَّلَاةَ وَحَقُّوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ خِلَالٌ»^(١).

قد أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يبلغ لعباد الله المؤمنين أن يقوموا لله بطاعته وأداء حقه، والإحسان إلى خلقه ممّا أعطاهم الله تعالى؛ بأن يقيموا الصلوات الخمس، مع المحافظة على أدائها في وقتها، وحدودها، وركوعها، وسجودها، وخشوعها، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وبأن يتفقوا ممّا رزقهم الله تعالى؛ بأداء الزكاة، والنفقة على القربات، والإحسان إلى الأجانب في السر والعلانية، وليبادروا إلى ذلك في حياتهم؛ لخلاص أنفسهم؛ من قبل أن يأتي يوم الجزاء، وليعلم أنه لا بيع في ذلك اليوم ولا خلال، بل هناك العدل والقسط.

إن الله تعالى قد علم أن في الدنيا بيعاً وأموالاً وخلالاً يتخاللون بها، فلينبذ الرجل من الخال، وعلام يصاحب؟ فإن كان لله؛ فليداوم، وإن كان لغير

(١) إبراهيم: ٣١.

الله؛ فسيقطع عنه، فلا ينفع هناك أحدٌ أبغ ولا فدية، ولو اقتدى بملء الأرض ذهباً لو وجدته، ولا تنفعه صداقة أحد، ولا شفاعة أحد إن لقي الله كافراً.

فيا أيها المؤمنون! وحدوا ربكم، وابدؤوا، ولا تشركوا به شيئاً، سواء كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلًا، ولا تغتروا بتزوهات الدجالين، ووساوس الشياطين، وخرافات شيوخ الطرق وعلماء السوء، بل اجتهدوا في فهم كلام ربكم الحكيم الرحيم، وسنة نبيكم المبعوث رحمة للعالمين لتفوزوا.

الآية السابعة والخمسون في سورة الإسراء: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾^(١).

يأمر الله تعالى عبده ورسوله محمدًا ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنهم إن لم يفعلوا ذلك؛ نزغ الشيطان بينهم، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة؛ فإنه عدو لآدم وذريته.

ولهذا نهى رسول الله ﷺ أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة^(٢)؛ فإن الشيطان ينزغ في يده؛ أي: فرمًا أصابه بها.

وقد روى أحمد في مسنده^(٣) بسنده عن الحسن رضي الله عنه؛ قال:

(١) الإسراء: ٥٣.

(٢) رواه البخاري (١٣ / ٢٠)، ومسلم (٢٦١٧)؛ عن أبي هريرة.

(٣) (٧١ / ٥).

وفي سننه علي بن زيد بن جدهان، وفيه ضعف.

أتيت النبي ﷺ وهو في أزقة^(١) من الناس، فسمعت يقول: «المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يخذله، الثقوى ها هنا (وأشار بيده إلى صدره)، وما نواذ رجلان في الله ففرق بينهما إلا أخذت يحدته أحدهما، والمحدث شر، والمحدث شر، والمحدث شر».

وكان الكفار يؤذون المسلمين، فأمرهم الله تعالى أن يقولوا التي هي أحسن، ولو للكافرين، ولا يكادونهم بسفهمهم، ولهذا قد قال ﷺ: «قُلِ الْخَيْرُ وَالْأَفْشَكُ^(٢)»، ومن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه^(٣)، وقال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٤)، وقال الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٥)، وقال لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْتَفَضَا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(٦).

= وقد حسنه الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ١٧٥)، وله شواهد:

أما القطعة الأولى؛ فانظر لها «الصححة» (٥٠٤) وما سيأتي (ص ٢٧٢)، وأما القطعة الثانية؛ فانظر لها «الصححة» (٦٣٧) أيضاً.

(١) أي: جماعة. «نهاية ابن الأثير» (٢ / ٣٠٥).

(٢) لإيراد بالمعنى لقوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيراً أو ليصمت».

أخرجه: البخاري (١٠ / ٣٧٣)، ومسلم (٤٧)؛ عن أبي هريرة.

(٣) حديث حسن، له طرق كثيرة، جمعها في جزء مفرد، سميته «كفاية النبي...»، وهو الجزء الثاني عشر من سلسلتي «الأجزاء الحديثية».

(٤) النحل: ١٢٥.

(٥) طه: ٤٤.

(٦) آل عمران: ١٥٩.

فالإسلام كله حسنٌ، ولكن الأسف أن أكثر المسلمين مبتلُون باستعمال الأقوال الشنيعة والألفاظ القبيحة؛ لجهلهم بمعاني كلام ربهم، وآداب رسولهم، وأخلاق نبيهم، بل جهلهم بالحقوق الإنسانية المميزة عن الأفعال الحيوانية والدرجات البهيمية، فساءت تربيتهم، وفسدت أخلاقهم كما لا يخفى.

الآية الثامنة والخمسون في سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَاقْعُدُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ بَلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾^(١).

قد نادى الله وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً بإمامهم بشمانية أشياء: الأول: الركوع، والثاني: السجود، والثالث: العبادة، والرابع: فعل الخير، والخامس: الجهاد في سبيل الله حَقَّ جهاده، والسادس: إقامة الصلاة، والسابع: إيتاء الزكاة، والثامن: الاعتصام بالله وكتابيه.

فالواجب المحتم على العبد المؤمن أن يقوم بهذه الأشياء حَقَّ القيام، ويؤديها لله تعالى؛ مراعيّاً شرائطها وأركانها وآدابها في أوقاتها.

فالركوع عبادة، فلا يركع إلا لله، فمن ركع لغير الله؛ فقد كفر وأشرك في (١) الحج: ٧٧ - ٧٨.

عبادة الله غيره؛ كما يفعله أهل الصين المجوس عند ملاقات ملوكهم وأمرائهم وكبرائهم وأغنيائهم وعلمائهم؛ فإنهم ينحنون لهم انحناء فاحشاً، وكذا مسلمو تلك البلاد ينحنون ويركعون لأكابريهم، ويسمون من لا ينحني ولا يركع بل يسلم سلام السنة متكرراً لا يعرف الأدب.

وكذا السجود عبادة، فلا يسجد إلا لله وحده، فمن سجد لغير الله من ملوك أو ملوك أو قبا أو وثن؛ فقد كفر وأشرك بالله غيره في العبادة؛ كما يفعله غلاة البهرة^(١) لسيدهم، وجهلة الصين والجاپان لملوكهم، وجهلة المسلمين لقبور أوليائهم وشايخهم.

والعبادة بأنواعها حَقَّ لله وحده؛ من دعاء، ونذر، واستغاث، وغيرها من أنواع العبادات، فمن عبد غير الله؛ فقد كفر وأشرك؛ كالذين يدعون عبد القادر الجيلاني ويستغيثون به مثلاً.

وفعل الخير لله تعالى، والخير كله ما أمر الله تعالى بفعله بصريح آياته أو بسنة رسوله محمد ﷺ، فمن فعل خيراً لغير الله؛ فقد راءى وأشرك.

وكذا الجهاد في الله تعالى حَقَّ جهاده؛ بالمال والنفس واللسان؛ لأنه عز وجل قد اجتبى المسلمين لهذه الدولة العظيمة من بين سائر الناس، وشرّفهم بدينه الإسلام، وملة خليله إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وجعل هذا الدين سهلاً سهلاً لا حرج فيه أصلاً.

فشكراً لله تعالى؛ أقيموا الصلاة لله، وآتوا الزكاة لله إلى فقراء المسلمين

(١) وهم من الطائفة الإسماعيلية الباطنية، كفره مشركون

من غير حيلة، واعتصموا أيها المسلمون كلكم بالله، وتوكلوا عليه حتى التوكل، واعملوا بما أمر في كتابه، ويئنه رسوله محمد ﷺ، وهو تعالى مولاكم وحافظكم وناصركم على الأعداء، فيشتم العولى ونعم النصير.

واعلم أن كل ما أمر الله تعالى بفعله فهو العبادة والطاعة، ففيه الثواب والأجر عند الله، وكل ما نهى عنه فهو المعصية، فعليك أيها العبد المؤمن بامتنال ما أمر والانتهاز عما نهى، فإذا فعلت هكذا؛ فأنت العبد المؤمن حقاً، جعلني الله تعالى وإياك من عباد المؤمنين الصادقين.

الآية التاسعة والخمسون في سورة النور: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخطب عباده المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن اتباع خطوات الشيطان؛ أي: ما زينه الشيطان من طرق الكفر والشرك والمعاصي؛ لأن من يتبع طرق الشيطان ويذهب مذهبه؛ فإنه يأمر بالفساد والمنكر، ومنه القول على الله بغير علم، ومن الوسائل الشركية والاعتقادات الوثنية، فكل معصية من خطوات الشيطان، والتذلل للمخلوق من خطوات الشيطان، ونذر المعصية من خطوات الشيطان، وتحريم الحلال من خطوات الشيطان، واليمين الفاجرة الغموس من خطوات الشيطان، ودعاء غير الله من الأموات والأرواح من

(١) النور: ٢١.

خطوات الشيطان، والاستعانة من الملائكة والأرواح والأموات من خطوات الشيطان.

فيا أيها المسلمون! لولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم ولا اهتدى إلى الإيمان والحق من أحد أبداً، بل لكان ابتلي وتلوث بدنس الشرك والمعاصي كبيرها وصغيرها؛ كما ابتلي بها كثير ممن يدعي الإسلام والزهد والتصوف والتقوى من المسلمين الجغرافيين من أهل الهند والترك والتركستان والصين، ولكن الله يزكي من يشاء من خلقه، فيزكي نفوسهم ويطهرها، فيحفظها من شركها وفجورها وذنوبها وما فيها من عقائد زائفة، وأخلاق رديئة، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لأقوال عباده، و﴿عليهم﴾ بمن يستحق منهم الهداية والتوفيق والفضال والردي، فيعطي كلا استحقاقه.

فيا أيها المسلمون! لاحظوا هذه الآيات، وتفكروا في معانيها، وتدبروا في أسرارها؛ فإنكم أنتم المخاطبون المكلفون بهذه الأوامر، فإذا تساهلتم وتجاهلتم كما أنتم عليه؛ اكتفاء بأقوال الناس وتجاهلهم؛ فالحسار والبوار نازل بكم لا محالة.

الآية الستون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(٢).

(٢) النور: ٢٨.

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن دخول بيت الغير بلا إذن وبلا سلام، ومنع من الدخول بلا إذن.

فانظروا أيها المسلم إلى هذه الآداب الشرعية الإلهية التي أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين؛ أمرهم الله تعالى أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأمنوا؛ أي: يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده.

وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن إذن له؛ دخل، وإلا انصرف، كما ورد بهذا المعنى أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

وروى أبو داود^(١) في «سننه» بسنده عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه؛ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: السَّلامُ عليكم، السَّلامُ عليكم».

وقال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الاستئذان من أجل النظر»^(٢).

وفي «الصحيحين»^(٣) عن رسول الله ﷺ؛ قال «لو أن أمراً أُطلع عليك من غير إذن فحذفته بخصاً؛ ففقدت عينه؛ ما كان عليك من جناح».

وعن جابر رضي الله عنه؛ قال: أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي،

(١) انظر: «صحيح البخاري»، (١١ / ٢٣)، و«صحيح مسلم»، (٢١٥٣)، و«جامع الأصول»، (٦ / ٥٧٧ - ٥٩٥).

(٢) برقم (٥١٨٦) بسند حسن.

(٣) رواه: البخاري (١٢ / ٢١٥)، ومسلم (٢١٥٦).

(٤) رواه: البخاري (١٢ / ٢١٦)، ومسلم (٢١٥٨)؛ عن أبي هريرة.

فدفقت الباب، فقال: «مَنْ ذَا؟». فقلت: أنا. قال: «أنا أنا؛ كأنه كرهه»^(١).

وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يَفْصَحَ باسمه أو كُتِبَته التي هو مشهور بها، وإلا لا يحصل المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس بالمأمور به.

وروى أبو داود^(٢) عن صفوان بن أمية رضي الله عنه؛ قال: دخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن، فقال ﷺ: «ارجع؛ فقل السلام عليكم، ادخل».

فيا أيها المؤمن! تأدب بالآداب الذي أدبك الله به تكن إنساناً كاملاً؛ لأن ربك رؤوف رحيم جل جلاله.

الآية الحادية والستون في هذه السورة أيضاً: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾^(٣).

وهذا خطاب وأمر للمؤمنين بواسطة رسول الله محمد ﷺ أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أنظارهم وأبصارهم عن المحرمات والأجنيات، فإن اتفق أن وقع النظر على محرّم من غير قصد؛ فليصرف بصره عنه سريعاً؛ كما رواه مسلم في

(١) رواه: البخاري (١١ / ٣٠)، ومسلم (٢١٥٥).

(٢) برقم (٥١٧٦).

وأخرجه: الترمذي (٢٧١١)، وأحمد (٣ / ٤١٤)، وسنده صحيح.

(٣) النور: ٣٠.

«صحيحه»^(١) عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه؛ قال: «سألت النبي ﷺ عن نظر النجاة؟ فأمرني أن أصرف بصري».

وقال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي! لا تتبع النظرة النظرة؛ فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة» رواه الترمذي^(٢).

ولا شك أن النظرة - وخصوصاً إلى آفة الحسناء، والأمرد الجميل الوجه - داعية إلى فساد القلب، ومحركة للشهوة، ولذلك أمر الله تعالى عباده المؤمنين بحفظ الأبصار، كما أمرهم بحفظ وجوههم؛ لأن النظر باعث إلى ذلك.

﴿ذَلِكَ أَزكى لَهُمْ﴾؛ أي: غُضُّ البصر وحفظ الفرج أزكى وأطهر

(١) برقم (٢١٥٩).

(٢) برقم (٢٧٧٧).

ورواه: أبو داود (٢١٤٩)، والطحاوي في «المشكّل» (٢ / ٣٥٤) و«المعاني» (٢ / ٨ - ٩)، والحاكم (٢٠٠ / ١٩٤)، وأحمد (٥ / ٣٥٣ و٣٥٤)، والبيهقي (٧ / ٩٠)؛ من طريق شريك عن أبي ربيعة عن بُريدة عن أبيه.

وفيه شريك التّخمي، وهو سبىء الحفظ.

لكنه توبع:

فأخرجه: أحمد (١٣٦٩ و١٣٧٣)، والدارمي (٢ / ٢٩٨)، والحاكم (٣ / ١٢٣)، والبرز (١٤١٩)، والطبراني في «الأوسط» (٦٧٨)؛ من طريق ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم التيمي عن سلمة بن أبي الطفيل عن علي بن أبي طالب.

وقال الهيثمي في «المجمع» (٤ / ٢٧٧) - بعد أن عزاه للبرز والطبراني وفاته العزو لأحمد - «ورجال الطبراني ثقات».

قلت: وكذا البرز وأحمد! ولكن عن عنة ابن إسحاق تنم عن الحكم على السند - لذاته - بالحسن، نعم؛ هو حسن لغيره إن شاء الله.

٢٣٢

لقلوبهم وأتقى لدينهم، ولهذا كان السلف الصالحون يَتَهَوَّنُونَ أَنْ يُجِدَ الرجلُ نظره إلى الأمر الصَّحِيحِ الوجه^(١)، وهذا هو سرُّ احتجاب النساء عن الأجانب.

ولكن الأسف أن كثيراً ممن في قلوبهم مرض أباحوا النظر إلى الاجتنبات والمردان الحسان الوجوه، وأباحوا لهنَّ كشف وجوههنَّ^(٢)، وإظهارهنَّ زينتهنَّ للأجانب وعندهم، فلهذا قد كثر الزنا واللواط فيما بين الناس، وخصوصاً فيما وراء النهر؛ فإنهم صاروا يفتخرون بهذا الفعل القبيح، وحتى بعض العلماء والمدرسين يخصصون لأنفسهم أماردة حسان الوجوه ويسمونها باسم (مَحْرَم)!! فإننا لله وإنا إليه راجعون.

الآية الثانية والستون فيها أيضاً: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلى أن قال: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوَوُّبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣).

هذا أمر من الله تعالى بواسطة رسوله محمد ﷺ للنساء المؤمنات، وغيرة منهنَّ تعالى على أزواج عباده المؤمنين، وتمييز لهنَّ عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات والفاسقات المعاهرات عديمات الدين والحياء: أن يغمضن

(١) قارن بـ «المنتقى النفيس» من تلبس إيليس (ص ٣٦٥) بقلمي

(٢) وفي المسألة خلاف قديم، يُنظر له مطولات الكتب الفقهية.

(٣) النور: ٣١.

٢٣٣

أبصارهم عن الرجال الأجانب، ولا ينظرون إليهم بشهوة؛ يعني: كما أنه حرم نظر الرجل إلى المرأة الأجنبية؛ حرم أيضاً نظرهم إلى الرجال الأجانب؛ لأن الفساد ينشأ من كل واحد من الطرفين.

ويوضح هذا ما رواه أبو داود والترمذي^(١) عن أم سلمة رضي الله عنها أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، إذ أقبل ابن أم مكتوم، فدخل عليه، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه». فقلت: يا رسول الله! أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أفعميتما أنفسكما؟! ألسنما تبصرانه؟» حديث حسن صحيح^(٢).

﴿ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها﴾؛ أي: لا يُظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كالرداء والثياب؛ لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه»^(٣).

(١) رواه: أبو داود (٤١١٢)، والترمذي (٢٧٧٨)، وأحمد (٢٩٦ / ٦)، والبيهقي (٩١ / ٧)، والنسائي في «عشرة النساء» (٣٥٩ و ٣٦٠)، وابن حبان (٥٥٤٩)، وابن سعد (١٢٦ / ٨)، من طريق نيهان مولى أم سلمة عنها.
ونهان مجهول، لم يوثقه إلا ابن حبان، وحكم بجهالة البيهقي وابن حزم والذهبي، وقال ابن حجر: «مقبول»؛ يعني إذا توبع، وإلا فهو لئيم الحديث!!
ومن عجب أن ابن حجر نفسه قد قوى سندَه في «الفتح» (٩ / ٣٣٧)!!
(٢) هذا قول الترمذي في الحديث، وقد سبق رُده.
(٣) كما في «الدر المنثور» (٦ / ١٧٩).
وفي رسالتي «تنوير العينين»... (ص ٥٣ - ٥٥) ذكر الصحيح الثابت عن ابن عباس في تفسير هذه الآية.

ولا يشك ذو عقلٍ ودِينٍ أن أرغب زينة النساء: وجهها الجميل، وطرفها الكحل، فبدنها السمين.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾؛ أي: تستر بخُمُرِها صدرها؛ لتواري ما تحتها من صدرها وترايبها؛ ليخالفن بذلك شعار نساء أهل الجاهلية؛ لأنهن كنَّ يمشين بين الرجال بصدورهن المكشوفات لا يواريهن شيء، وربما أظهرت عفاها، وذوائب شعرها، وأقربة آذانها، فأمر الله تعالى المؤمنات أن يستترن في هياتهن وأحوالهن؛ كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُؤْثِرَكُمْ وَمَتَّعْتُكُمْ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ﴾^(١).

والخمار ما يُعطى به الرأس، وقد أمر الله بأن يضربن ويستترن بخُمُرهن على الشَّعر والصدر، فلا يرى منهما شيء.

والحاصل أن المرأة لا تُظهر عند الرجال الأجانب من زينتها التي تحرَّك الشهوة؛ سواء بضرب الرجل وإظهار الوجه والخلخال، أو التعلُّع عند خروجها من بيتها، ولا يتبرَّجن تبرُّج الجاهلية كما هو الشائع الذائع في نساء أوروبا ومصر^(٢) وغيرهما؛ فإنهن فاسقات عاهرات فاجرات عاصيات قد فسدن وأفسدن وألقين جلباب الحياء بل الإيمان؛ تقليداً للأوروبيات والدُّهريات.

فأنتم أيها المؤمنون! توبوا إلى الله جميعاً، وافعلوا ما أمركم الله به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق الرذيلة والصفات الخبيثة؛ فإن الفلاح كلُّ الفلاح والسعادة كلُّ

(١) الأحزاب: ٥٩. (٢) إلا من رحم الله منها.

السعادة: في فعل ما أمر الله تعالى الحكيم به وأرشد إليه رسوله محمد ﷺ وترك ما نهى الله ورسوله عنه، والله تعالى هو المستعان.

الآية الثالثة والستون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الدِّينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَكِيمٌ^(١)﴾.

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إياهم أن يأمرُوا خَلَفَهُمْ أن لا يدخلوا عليهم إلا بعد الاستئذان، وكذا الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا الحُلُم كل يوم ثلاث مرات في ثلاثة أوقات:

الأول: قبل صلاة الفجر؛ لأنَّ النَّاسَ إذ ذاك يكونون نياماً في فُرُشهم.

والثاني: حين يضعون ثيابهم من الظهيرة؛ أي: وقت القيلولة؛ لأنَّ الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله.

والثالث: من بعد صلاة العشاء؛ لأنَّه وقت النوم، فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال؛ لما يخشى أن يكون على أهله، أو نحو ذلك من الأعمال، ولهذا قال: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾، وأما في غير هذه الأحوال؛ فلا بأس في دخولهم عليكم؛ لأنَّهم طوافون عليكم في

(١) النور: ٥٨ - ٥٩.

الخدمة وغير ذلك، ويُعْتَفَرُ في الطوافين ما لا يُعْتَفَرُ في غيرهم.

فيا أيُّها المسلمون! حافظوا على هذه الآداب الربانية والأخلاق الإنسانية الكاملة المتممة للإيمان والنجاة والإحسان، ولا شك أنَّ شرع الإسلام شرع الكمال والجمال، وفقنا الله تعالى للتأدب بآدابه والتخلُّق بأخلاقه.

الآية الرابعة والستون في سورة العنكبوت: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ^(١)﴾.

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إياهم بالهجرة من البلد الذي لا يقدرُونَ فيه على إقامة الدين والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى أرض الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين؛ بأن يوحِّدوا الله ويعبدوه كما أمرهم.

وحيث إنَّ كثيراً من النَّاسِ يتركون الهجرة إلى ديار الإسلام؛ خوفاً من الموت، أو خوفاً من ضيق الرزق والمعيشة، فقد أزال الله تعالى هذا الخوف بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ^(٢)﴾، فكل إنسان لا بد يموت عند انقضاء أجله المقدَّر، سواء في الحضر أو السفر، وإنما يكون تارك الهجرة مخروماً من الرَّحمة والدرجات في الجنة.

والمهاجر لحفظ دينه ينال كل فضل ورحمة، ويرزقه الله تعالى رزقاً كثيراً

(١) العنكبوت: ٥٦.

(٢) العنكبوت: ٥٧.

وسعة؛ مراغماً أعداءه، وهذا لا شك فيه ولا ريب.

وقد أخبر الله الكريم عز وجل بقوله: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافِعاً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْتَغِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَالْآخِرَةَ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. الَّذِينَ ضَلُّوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٢).

فيا عباد الله المؤمنين! إنما خلقكم الله تعالى لأجل عبادته وحده لا شريك له، فاعبدوه وحده، ولا تشركوا به شيئاً، ولا تختاروا الإقامة في دار الشرك والكفر والبدعة لأجل مال الدنيا الفانية الدنيئة.

وأنا هذا العبد الضعيف جامع هذه الورقات أحمد الله حمداً كثيراً أنه عز وجل قد يشر لي الهجرة، فهاجرت عن ديار الشرك والكفر والإلحاد، والفسق والظلم والعناد؛ ديار ما وراء النهر والتركستان؛ ديار عبادة القبور والأرواح، وديار العقائد الفاسدة، وديار الشيوعية والذهورية واللا دينية، واهترت الإقامة بتوفيق الله تعالى في بلد الله الأمين، وقبله المسلمين، وقد وفقني الله تعالى للاشتغال بعلم الكتاب والسنة، وتدريبه وتعليمه لعامة المسلمين في المسجد الحرام، وساعدني ملك المسلمين عبدالعزيز بن عبد (٣)، فجزاه الله

(١) النساء: ١٠٠.

(٢) النحل: ٤١ - ٤٢.

(٣) توفي سنة (١٣٧٣هـ)، ترجمته في «الأعلام» (٤ / ١٩) للزركلي

تعالى خيراً، وأيده بنصره ووفقه لمرضاته. وقد رزقني الله تعالى أهلاً وأولاداً وداراً ودولة وعرة وخيراً كثيراً أحسن ممّا كان وفات بمرات، فالحمد لله حمداً كثيراً، سائلاً منه تعالى أن يُديم لي التوفيق، ويثبتني على القول الثابت والتوحيد الخالص؛ لا إله إلا الله، ويرزقني حسن الختام أمين.

الآية الخامسة والسُتون في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إياهم بأن يذكروا نعمة الله التي أنعمها عليهم، وهي كثيرة لا تعد ولا تحصى، ومن جملتها صرفه تعالى ودفعه الأعداء الكفار، وخصوصاً حين تألبوا عليهم وتحزّبوا عام الخندق سنة خمس من الهجرة، إذ جاؤوا في حوالي المدينة؛ ليهجموا على المسلمين، ﴿إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾^(٢)، فحاصروا المدينة وفيها النبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، ثم وقع القتال^(٣)، فأرسل الله تعالى على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيئاً، ولا يقرّ لهم قرار، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ

(١) الأحزاب: ٩.

(٢) الأحزاب: ١٠.

(٣) انظر: «سيرة ابن هشام» (٣ / ٢٩٧)

عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم ترها، وهي الصبا .
وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهْلِكْتُ عادٌ بالذَّبُورِ»^(١).

وقد أرسل الله تعالى ملائكة زلزلتهم، وألقَتْ في قلوبهم الرعب والخوف، وهكذا يفعل الله تعالى لعباده المؤمنين الصادقين؛ ينصرهم وإن قلوا على الأعداء وإن كثروا؛ لأنَّ لله تعالى جنوداً من الريح، وجنوداً من النار، وجنوداً من الصاعقة، وجنوداً من الطوفان، وجنوداً من الزلزال، وجنوداً من السحاب... وغيرها، كما أنَّ لله تعالى جنوداً من الملائكة وعباده الصالحين، وحتى إنَّ له جنوداً من الطيور، وجنوداً من العسل، وجنوداً من الذباب والبعوض وغيرها. «وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ»^(٢).

فأنتم أيها المؤمنون! كونوا مؤمنين صادقين عابدين بما أمر، ومُتَّهين عما نهى عنه، فالله ينصركم على الأعداء، وأما إذا كنتم في إيمانكم كاذبين، وفي دعائكم وعبادتكم مشركين، ولأوامره تاركين، ولنواهيه مرتكبين، لا تشبهون بالأسباب^(٣)، ولا تتفكرون في الحركات والذهاب والإياب، بل تعتمدون على الأرواح وعلى الروحانيات، وتدعون من هو مثلكم من المخلوقات وأرواح الأموات؛ فأنتم الخاسرون المحرومون، والأدلاء المخذولون، فانتبهوا من غفلاتكم، واحترزوا من الخرافات والتزهات ودجل الدجالين وخيانة الضالين

(١) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)؛ عن ابن عباس

(٢) المدثر: ٣١.

(٣) أي: غير متعلقين بها، ولا راكبين إليها.

المضيلين.

فيا أيها الذين آمنوا! آمِنُوا، ولا تكونوا ممن قال الله في حقهم: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ»^(١).

الآية السادسة والستون فيها أيضاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوا بِحَمْدِهِ وَأَصِيلًا»^(٢).

قد نادى الله تعالى ونحاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إياهم بأن يذكروا الله ذكراً كثيراً؛ لأنه المنعم عليهم بأنواع النعم الظاهرة والباطنة وصنوف الجن، ووعد الله لهم في ذلك جزيل الثواب وجميل المآب.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا»: «إنَّ الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة؛ إلا جعل لها حداً، وعذر أهلها في حال العذر؛ غير الذكر؛ فإنَّ الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه، فقال: «اذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِكُمْ»؛ بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال، «وسَبِّحُوا بِحَمْدِهِ وَأَصِيلًا»، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته»^(٣).

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) الأحزاب: ٤١ - ٤٢.

(٣) رواه ابن جرير (٢٢ / ١٧)، وأوردته السيوطي في «الذرة (٦ / ٦١٨)». وزاد

نسيته لابن المنذر وابن أبي حاتم، بسند منقطع.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ : هذا تهيئ إلى الذكر، ﴿فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾^(١)، فالله تعالى برحمته وفضله لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والكفر والضلال إلى نور الهدى واليقين.

﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾^(٢)، أي : في الدنيا والآخرة :

أما في الدنيا؛ فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاذ عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة، وأتباعهم من الطغام والدجالين المفسدين والمنافقين الكذابين.

وأما رحمته بهم في الآخرة؛ فأنهم من الفرع الأكبر، وأمر ملائكتهم بتلقؤهم بالشارة بالقوم بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبتهم لهم ورافته بهم.

واعلم أن الذكر ذكران :

ذكر القلب والجنان.

وذكر باللسان.

فذكر اللسان هو التسيخ والتحميد والتهليل والتكبير ونحوها.

وأما ذكر القلب؛ فإن تذكر الله تعالى دائماً بقلبك؛ أنه القادر العليم الخبير بكل شؤونك، فاللزم أن لا تنساه في جميع حالاتك من حركاتك وسكناتك وظاهرك وباطنك وسرك وجهرك، ولا تغفل عنه لحظة، وهذا الذكر هو

(١) البقرة: ١٥٢.

(٢) الأحزاب: ٤٣.

الذي يحجزك عن معاصيه ومخالفة أمره.

فتنبه أيها العبد المؤمن لهذه الأوامر الربانية، فكن له تعالى ذاكرًا بلسانك وقلبك، وأما ذكر اللسان مع غفلة القلب؛ فلن يحجز هذا الذكر صاحبه عن المعاصي؛ لأنه صورة بلا روح، والذكر الحقيقي النافع إنما هو ذكر القلب، وهو الذي يسميه الصوفية العارفون بـ : (المراقبة)؛ يعني : يراقبون الله تعالى في كل حالاتهم، في خلواتهم وجلواتهم، فلا يغفلون عنه لحظة ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾^(١).

ولكن؛ لما غلب الجهل على كثير ممن يدعي الإسلام والتصوف؛ حرقوا هذه المراقبة، وبدلوا بمراقبة الشيخ، وسموها رابطة^(٢)، فصاروا يراقبون صور شيوخهم، وفؤلاء الشيخ بأمرؤتهم بذلك، فوضعوا شيوخهم موضع رب العالمين، فصاروا بذلك مشركين بالشرك الأكبر وهم لا يشعرون، وقد دخلوا في دين الوثنية باسم التصوف وهم لا يعلمون، ولهذا صاروا يتوجهون إلى القبور وإلى أصحاب القبور، ويستملكون منهم، ويستغيثون بهم، وينتجون على قبور من يزعمونه صالحاً قبة وعمارة عالية، ويزخرفونها، ويتوجهون إليها، وينتدرون لها؛ كما هو حالهم المشاهد في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وقد صاروا عبادة الأصنام والأوثان وهم لا يفهمون، ولهذا أذلهم الله تعالى في هذه الحياة الدنيا تحت أرجل الكفرة من الإنكليز والطلبيان والفرنسيين والروس والبلاشفة والأمريكان، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ وَأَبْغَى﴾^(٣).

(١) الحديد: ٤.

(٢) وقريباً من ذلك فعل الشيخ حسن البنا بعفر الله له في «مناوراته»!!

(٣) طه: ١٢٧.

فيا أيها المسلمون! توبوا إلى الله، وارجعوا إلى دراسة كتاب الله وأحاديث رسول الله، واجتهدوا في فهم أوامر الله وخطاباته لكم؛ كي يعفو الله عنكم ويعفر ذنوبكم، فيدفع عنكم البلاء.

الآية السابعة والسُتُونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَعْمُوهُنَّ وَسِرْحُونَهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين فيما يختص بهم من المعاملة بزواجهم من الكاح والطلاق، فأعلم الله تعالى بأنه إذا تزوج الإنسان امرأة وطلقها قبل الدخول بها؛ فليس عليها عِدَّة؛ لأنَّ رَحِمَهَا لم يشتغل بمانه، فلا يحتاج إلى الاستبراء، وإنما على الأزواج أن يعطوهن ما يتمتغن به من المتعة، أو نصف الصداق المسمى، «على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على الْمُحْسِنِينَ».

فالرَّبُّ الرحيمُ جلَّ جلاله يبين لعباده المؤمنين كلَّ ما يحتاجون إليه من مصالحهم وحاجاتهم الدنيوية والدنيوية والأخروية، فسبحان الربِّ الرؤوفِ الرحيمِ.

الآية الثامنة والسُتُونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ

(١) الأحزاب: ٤٩.

إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرِ بْنِ إِيَّاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَأْذِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُجَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً . إِنَّ تَبَدُّوا شَيْئاً أَوْ تَخَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ناهياً إياهم عن أن يدخلوا بيوت رسول الله ﷺ بلا استئذان ولا إذن منه، وخصوصاً في وقت أكل الطعام، فلا تدخلوا إلا بعد الإذن، ولا تنظروا ولا تراقبوا وقت طبخ الطعام وحضوره، ولكن إذا دُعِيتُمْ؛ فادخلوا، فإذا طَعِمْتُمْ وأكلْتُمْ؛ فانتشروا، ولا تطيلوا الجلوس بعده؛ لأنَّ طولَ الجلوس يصير سبباً للملال، فيتأذى صاحب المنزل.

وإنَّ كان سببُ النزولِ خاصاً بالنبي ﷺ، ولكنَّ الحكمَ عامٌ، فلا يجوزُ دخولُ دارِ الغيرِ بلا إذنه، ولا يجوزُ الدخولُ على طعامِ الغيرِ بلا إذنه، فيجرمُ على الطفلي التطفُّلَ.

وقد ثبت في «الصحیح»^(٢) عن رسولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ

(١) الأحزاب: ٥٣ - ٥٤.

(٢) قارن به «الصحیح المسند من أسباب النزول» (ص ١١٣ - ١١٥) للأخ الشيخ مقبل بن هادي.

(٣) رواه: مسلم (١٤٢٩)، وأحمد (٦٣٣٧)، والبيهقي (٢٦٢ / ٧)؛ عن ابن عمر.

ورواه البخاري (٢١٠ / ٩)؛ دون قوله: «وَحَسْبُكَ أَنْ تَنْجُو».

أخاه؛ فليجِبْ؛ عَرَسًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ.

وقال ﷺ: «لَوْ دُعِيَ إِلَى ذِرَاعٍ لَاجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كِرَاعٌ لَقَبِلْتُ».

فإذا فرغتم من الذي دُعِيتُم إليه؛ فحَفُّوا عن أهل المنزل، وانتشروا في الأرض، وأصل هذا الحديث في «الصحيحين»^(١).

فيا أيها العبدُ المؤمنُ! تعلَّمْ كلامَ ربِّكَ، وتفهمْ أوامره؛ فإنه تعالى قد خاطبك وأمرَكَ ونهاكَ، فإن لم تعلم ولم تفهم؛ فأنت لستَ بمؤمن، بل قد ضيَّعتَ أهليَّتك، فصرْتَ كالانعام. بل أضلَّ، فاستَحْيِ أيُّها المسلمُ، ولا ترضَ بالجهل؛ فإنه يردُّكَ إلى مهاوي الجحيم. كما لا يخفى على العاقل البصير.

الآية التاسعة والستون فيها أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٢).

قد أخبر الله تعالى أنَّه عزَّ وجلَّ يصلِّي على رسوله محمد ﷺ، وكذا ملائكتُه الكرام يصلُّون على النبي ﷺ، فأنتُم يا أيُّها المؤمنون بالله ورسوله صلُّوا على هذا الرسول وسَلِّمُوا عليه تَسْلِيمًا.

صلاةُ اللهِ تعالى عليه: ثناؤُهُ عليه عندَ ملائكتِهِ، وصلاةُ الملائكةِ:

(١) بل هو من أفراد البخاري (٩ / ٢١٣) عن أبي هريرة بلفظه؛ كما في «جامع الأصول» (٧ / ٤٨٧).

ولكنَّ رواه مسلم (١٤٢٩) (١٠٤) عن ابن عمر مختصراً؛ بلفظ: «إذا دُعِيتُم إلى كِرَاعٍ فاجيبوا». (٧ / الأحزاب: ٥٦).

الدعاء، وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى: «صلاةُ الرَّبِّ الرحمةُ، وصلاةُ الملائكةِ الاستغفار»^(١).

والمقصودُ من هذه الآية أنَّ الله سبحانه وتعالى أخبر عباده المؤمنين بمنزلة عبده ونبيِّه ورسوله محمد ﷺ عنده في الملأ الأعلى بأنَّه تعالى يُثني عليه عند الملائكةِ المقرَّبين وأنَّ الملائكةَ تُصلِّي عليه، ثمَّ أمر الله تعالى العالم السفليّ - المؤمنين منهم - بالصلاة والتسليم عليه؛ ليجتمع الثناءُ عليه من أهل العالمين العلويِّ والسفليِّ جميعاً.

وقد أخبر الله تعالى بأنَّه عزَّ وجلَّ يصلِّي على عباده المؤمنين، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٢)، ويُنشِرُ الضَّالِّينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أولئك عليهم صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ^(٣)، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مَيَامِنِ الصُّفوفِ»^(٤).

(١) انظر: «القول البدع» (ص ١٧) للسخاوي.

(٢) الأحزاب: ٤٣.

(٣) البقرة: ١٥٥ - ١٥٧.

(٤) رواه: أبو داود (٦٧٦)، وابن ماجه (١٠٠٥)، والبيهقي (١٠٣ / ٣)، وابن حبان (٢١٦٠)، والبخاري (٨١٩)؛ من طريق سفيان الثوري عن أسامة بن زيد عن عثمان بن عروة عن أبيه عن عائشة.

وحسنه الحافظ في «الفتح» (٢ / ٢١٣)!

ثم قال البيهقي: «المحفوظ بهذا الإسناد عن النبي ﷺ: إنَّ الله وملائكته يصلُّون على الذين يصلُّون الصُّفوف». يشير بذلك إلى شدِّوز هذا اللفظ!

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمير بالصلاة عليه
وكيفية الصلاة عليه.

وقد روى البخاري في «صحيحه»^(١) عن كعب بن عُجرة رضي الله عنه؛
قال: قيل: يا رسول الله! أما السلام عليك؛ فقد عرفناه؛ فكيف الصلاة؟ قال:
«قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى
آلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا
بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ».

وهذا الحديث مخرَّج في جميع الكتب السنة والمسانيد المشهورة^(٢).

والسلام الذي كانوا يعرفونه ما في التشهد: «السلام عليك أيها النبي
ورحمة الله وبركاته».

وقد رواه باللفظ المحفوظ: ابن خزيمة (١٥٥٠)، وابن حبان (٢١٦٣)، والحاكم
(٢١٤ / ١)، والبيهقي (١٠١ / ١)؛ من طريق ابن وهب عن أسامة عن عثمان بن عروة عن
أبيه عن عائشة.

وللفظ: «... ميامن الصفوف» شاهد:

أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٢٠١٠ / ٥) عن ابن عباس.

لكنه لا يفرِّق به، ففيه عصمة الأنصاري، وهو متروك!

(١) برقم (٣٣٧٠) و٤٧٩٧ و٦٣٥٧.

(٢) فأخرجه: مسلم (٤٠٦)، وأبو داود (٩٧٦)، والترمذي (٤٨٣)، والنسائي في
«سننه» (٤٧ / ٣) وفي «عمل اليوم» (٣٥٩ و ٥٤)، وابن السني (٩٤)، وأحمد (٤ / ٢٤١
و ٢٤٣ و ٢٤٤)، وابن ماجه (٩٠٤)، والدارمي (١٣٤٨)، والجهضمي في «فضل الصلاة
على النبي ﷺ» (٥٦ و ٥٧)، والحاكم (١ / ١٤٨)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٣١٠٥)
و ٣١٠٦ و ٣١٠٧، وغيرهم كثير.

وزادوا في بعض الروايات في «السنن»^(٣): «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا
بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ».

وفي رواية: «وعلى آلِ إِبْرَاهِيمَ في العالمين إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ».

وروى أحمد وابن ماجه^(٤) عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه؛ قال:
سمعتُ النبي ﷺ يقول: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً، لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيَّ
مَا صَلَّى عَلَيَّ، فَلْيَقُلْ مِنْ ذَلِكَ عَبْدٌ أَوْ لَيْكُزٌ».

وفي «جامع الترمذي»^(٥) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنَّ رسولَ

(١) بل في «صحيح البخاري» (٣٣٦٩)، و«صحيح مسلم» (٤٠٧).

ورواه: أبو داود (٩٧٩)، والنسائي (٣ / ٤٩)، وابن ماجه (٩٠٥)، وغيرهم.

الجميع عن أبي حميد الساعدي.

(٢) رواه: أحمد (٣ / ٤٤٥)، وابن ماجه (٩٠٧)، والجهضمي (رقم ٦)؛ من طريق

عاصم بن عبيد الله عن أبيه عن النبي ﷺ.

وقال الترمذي في «الترغيب» (٢ / ٢٨٠): «وعاصم، وإن كان واهي الحديث، فقد

مشأء بعضهم، وصحَّح له الترمذي، وهذا الحديث حسن في المتابعات، والله أعلم».

وبعاصم، أعله الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ١٦١).

ولعاصم، متابع: أخرجه - بسند فيه ضعف - أبو نعيم في «الحلية» (١ / ١٨٠).

وله شاهد آخر رواه الجهضمي (رقم ٣) بسند فيه ضعف عن أبي طلحة.

فالحديث - إن شاء الله - حسن.

(٣) برقم (٤٨٤).

وأخرجه: البخاري في «التاريخ الكبير» (٥ / ١٧٧)، واليعقوبي في «شرح السنة»

(٦٨٦)، والشجري في «أماله» (١ / ١٣٠)؛ من طريق عبد الله بن شداد عن ابن مسعود.

ورواه: البخاري في «التاريخ» (٥ / ١٧٧)، والخطيب في «شرف أصحاب

اللَّهُ ﷻ قَالَ: «أَوَّلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلَاةً».

وعن ابن ماجة^(٢) رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا».

وروى ابن ماجة^(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ الحديث^(٤)، وابن أبي شيبة^(٥) (١١ / ٥٠٥)، وابن عدي في «الكامل» (٣ / ٩٠٦ و / ٣٤٢)، وابن حبان^(٦) (٩١١)، والشجري في «أماله» (١ / ١٣٠)؛ من طريق عبد الله بن شداد عن أبيه عن ابن مسعود. وأورده الحافظ في «الفتح» (١١ / ١٦٧)، وقال: «حسنه الترمذي، وصححه ابن حبان»، وأقرهما! قلت: وفي كلا السندين موسى بن يعقوب الرُّمعي؛ فيه ضعف، وعبد الله بن كيسان؛ مجهول.

ثم قال الحافظ: «وله شاهد عند البيهقي عن أبي أمامة؛ بلفظ: «صلاة أمي تعرض علي في كل يوم جمعة، فمن كان أكثرهم علي صلاة؛ كان أقربهم مني منزلة»، ولا بأس بسنده».

قلت: هو في «السنن الكبرى» (٣ / ٢٤٩)، و«حياة الأنبياء» (١١) له، وحسن سنده المنذري في «الترغيب» (٣ / ٣٠٣)، وقال: «إلا أن مكحولاً قيل: لم يسمع من أبي أمامة». قلت: بل ولا رآه؛ كما في «جامع التحصيل» (ص ٢٨٥). لكنه شاهد لا بأس به للحديث إن شاء الله، فلعلة يحسنه. (١) كذا الأصل، وهو خطأ، صوابه: «أبي هريرة»، إذ الحديث في «صحيح مسلم» (٤٠٨) عنه. (٢) برقم (٩٠٨).

وفي سنده جبارة بن المغيرة، وهو ضعيف، وقد عُدَّ هذا الحديث من مناكيره؛ كما قال السخاوي في «القول البديع» (ص ٢١٤). ولكنَّ للحديث شواهد تُقَوِّيه ذكرها: شيخنا في تعليقه على «فضل الصلاة على النبي» (ص ٤٢ - ٤٤)، والسخاوي في «القول البديع» (ص ٢١٣ - ٢١٥)، فليُنظَرَا.

ﷻ: «مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ؛ أخطأ طريق الجنة».

وقد روى مسلم والأربعة^(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «أَنَّ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ؛ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ صَلُّوا اللَّهُ لِي الْوَسِيلَةَ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ؛ حَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّفَاعَةُ».

وروى الترمذي^(٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ قال: «الدُّعَاءُ مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، لَا يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ».

فيا أيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ! صَلُّوا وَسَلِّمُوا عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي كُلِّ حَالَاتِكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ، وَلَا تُسَيِّئُوا الْأَدَبَ بِرَفْعِ أَصْوَاتِكُمْ فَوْقَ الْحَاجَةِ، كَمَا تَفْعَلُهُ الْجَهْلَةُ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ؛ فَإِنَّهُمْ يَصِيحُونَ صَاحًا، وَيَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ رَفْعًا مَنكَرًا فَاحْشَا، فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! عَلَيْكُمْ بِالْأَدَبِ.

(١) رواه: مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣)، والترمذي (٣٦١٩)، والنسائي (٢ / ٢٥)، وأحمد (٢ / ١٦٨)، ولم يروه ابن ماجة كما صرح السخاوي في «القول البديع» (ص ٢٧٠)، وزاد نسبته للبيهقي وابن زنجويه وغيرهم. (٢) برقم (٤٨٦) وفي سنده جهالة.

وانظر: «الفتوحات الربانية» (٣ / ٣٣٤ - ٣٣٥)، و«القول البديع» (ص ٣٢١)، و«الإرواء» (٤٣٢).

وقد صحَّح شيخنا في «صحيح الجامع» (٤٣٩٩) قوله ﷺ مرفوعاً: «كُلُّ دُعَاءٍ مُحْجُوبٌ حَتَّى يَصَلِّيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ».

وانظر: «القول البديع» (٣٢٠)، و«الوسيلة» (ص ٣٧).

وقد روى أبو داود^(١) عن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم: أنه بلغه أن رجلاً يأتي كل غداة إلى قبر النبي ﷺ ويصلي عليه رافعاً صوته، فقال له علي بن الحسين رضي الله عنه: ما يحملك على هذا؟! قال: أحب السلام على رسول الله ﷺ. فقال علي بن الحسين رضي الله عنهما: أخبرني أبي عن جدّي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا قبري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ وسلّموا حينما كنتم فتبّلغني صلاتكم وسلّمكم».

قال العماد بن كثير^(٢): لعله رآهم يسيئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة، فنهأهم.

وأنه رضي الله عنه رأى رجلاً يتناوب القبر، فقال: يا هذا! ما أنت ومن بالاندلس إلا سواء منه.

أي: الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

فيا أيها المؤمنون! صلّوا وسلّموا على محمد رسول الله المبعوث رحمة للعالمين عليه الصلاة والسلام، وكرّروا الصلاة والسلام عليه دائماً؛ ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، وأفضل صيغها ما ثبت عن رسول الله ﷺ كما بينها، وهي الصلاة التي يصلون بها في تشهدات صلواتهم؛ فَرَضِهَا وَنَفِلْهَا.

(١) برقم (٢٠٤٢) المرفوع منه.

ورواه: أحمد (٣٦٧ / ٢)، والبيهقي في «حياة الأنبياء» (ص ١٢)؛ بسند حسن. أما القصة؛ ففي سندها مقال؛ كما بيّنته في تعليلي على «معارج الألياب» (ص

١٣٧).

(٢) في «تفسيره» (٢ / ٨٢٠).

واحترز أيها المؤمن عن الصيغ المحدثّة المبتدعة، والأحزاب المؤقتة التي فيها المنكرات بل الأكاذيب والكفريات كـ «دلائل الخيرات»^(١) للجزولي، و«صلوات الثناء للنّهائي»؛ فإنّها من البدع المنكرة، لا يحلّ لمن يؤمن بالله وكتابه ورسالته رسول الله محمد ﷺ وسنته أن يفعل ذلك، أو يعتقد جوازه؛ فإنّه ممّا لم يأذن به الله ولا رسوله ولا أحد من أئمة المسلمين، فالحذر الحذر.

الآية السبعون فيها أيضاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً»^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ ماهياً إياهم أن لا يكونوا كالذين آذوا أنبياء الله، ومنهم موسى عليه السلام؛ فإنّه كان رجلاً خيئاً ستيراً، لا يرى من جلده وبدنه شيء؛ استحياه منه، فأذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب في جلده؛ إما برص، وإما أذرة، وإما آفة، فأراد الله تعالى أن يبرّئه مما قالوا من الافتراء، فخلا موسى يوماً وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ؛ أقبل على ثيابه ليأخذها ويلبسها، ولكنّ الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى الحجر إلى ملا من بني إسرائيل، فأرأوه عُرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل، وبرأه مما يقولون، وقام الحجر، فأخذ موسى ثوبه، فلبسه، وطفّق بالحجر ضرباً بعضاه. هذا حديث صحيح في

(١) وهو من كتب المبتدعة التي يعظمونها، وهي ملأى بالشرك والضلال والانحراف!

(٢) الأحزاب: ٦٩.

«الصحيحين»^(١).

والمقصود أن الله تعالى نهى المؤمنين أن يؤذوا أنبياء الله وأوليائه الله وعباده الصالحين المؤمنين بأي طريق كان؛ كما هو شأن الكفار والمنافقين؛ يؤذون أنبياء الله وعباده المؤمنين، وخصوصاً ورثة الأنبياء الداعين إلى التوحيد إلى الصراط المستقيم.

وقد ثبت في الحديث القدسي^(٢) أن الله تعالى قال: «ومن عادى لي ولياً؛ فقد آذنته بالحرب، ومن آذنته بالحرب؛ أدخلته ناري».

ونحن قد نشاهد الآن أن أهل البدعة يؤذون أهل السنة، وأهل الشرك يؤذون أهل التوحيد، وأهل الباطل يؤذون أهل الحق. فيا أيها المؤمنون! لا تكونوا أنتم كهؤلاء السفهاء، بل افهموا كلام ربكم ونصائح ربكم، فعضوا عليهما بالتواجد. وبالله التوفيق.

الآية الحادية والسبعون فيها أيضاً: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً. يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً»^(٣).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين؛ أمراً إلهياً بقوله، وأن يعبدوه عبادة

(١) رواه: البخاري (٢٧٨)، ومسلم (٣٣٩).

(٢) انظر الفاظه وطرقه بما لا مزيد عليه إن شاء الله في «سلسلة الأحاديث

الصحيحة» (رقم ١٦٤٠).

(٣) الأحزاب: ٧٠ - ٧١.

من يراه، وأن يقولوا قولاً سديداً؛ أي: مستقيماً، لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ولا كذب فيه ولا اعتساف، ووعدهم أنه إذا فعلوا ذلك أنابهم عليه؛ بأن يصلح لهم أعمالهم، ويوفقهم للأعمال الصالحة، ويغفر لهم الذنوب الماضية، ويلهمهم التوبة في المستقبل.

«ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً»، وذلك بأن يجاز من نار الجحيم، ويصير إلى النعيم المقيم.

فنسألك اللهم أن تجعلنا من المتقين، ونسألك اللهم أن تجعلنا من المطيعين الصادقين، ونسألك اللهم أن تجعلنا من الصالحين المقبلين، ونسألك اللهم أن تجعلنا من المغفور لهم المرحومين، ونسألك اللهم أن تجعلنا من الفائزين في الدارين برضاك والجنة آمين.

الآية الثانية والسبعون في سورة الزمر: «قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الحياة دنیا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب»^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين بواسطة رسوله محمد ﷺ: يا عباد الله الذين أنصفتم بصفة الإيمان! اتقوا ربكم، واتقوا الله واسعاً إنما يوفى واتقوا الشرك والكفر، واتقوا عذابه وغضبه، واتقوا كل ما يريكم إلى نار جهنم.

فيا أيها المؤمنون! استمروا على طاعة ربكم واتقوه دائماً؛ لأن «للذين

(١) الزمر: ١٠.

أحسنوا في هذه الدنيا؛ أي: عملوا الأعمال الحسنة بالإخلاص لله تعالى ﴿خَسَنَةً﴾؛ أي: في الدنيا عاجلاً، وفي دار الآخرة الباقية أجلاً سرمداً الجنة والرضى والرضوان، فالدنيا مزرعة الآخرة، وإنما جزاء الإحسان الإحسان. وحُدِّدَ الإحسان أن تعبد الله تعالى كأنك تراه عياناً، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك، وهذا هو حقيقة الإخلاص، وهذا فيه كمال الخشوع والخضوع والتذلل والانكسار.

فيا أيها العبد المؤمن! ذم واصبر على الإيمان وطاعة الله، وإن منعك مانع وهجم عليك الأعداء من المشركين وعباد الأوثان والقبور وأهل البدعة؛ فهاجر من هذا البلد الظالم أهلها؛ لأن أرض الله واسعة، فمن تعسر عليه التقوى والإحسان في بلده؛ فليهاجر إلى حيث يتمكن فيه من ذلك؛ كما هو سنة الأنبياء والصالحين؛ فإنه لا عذر لأحد في الإقامة في دار الشرك والبدعة؛ لأن أرض الله واسعة، والله هو الذي يرزق عباده، ويسر لهم أسباب الرزق، وهو الرزاق ذو القوة المتين.

ففيه الحث على الهجرة من البلد الذي يظهر فيه الشرك والمعاصي والكفر والضلال؛ كالتركستان، وما وراء النهر، والصين، والهند، والترك، وما شابهها.

وقد ورد في الحديث الصحيح^(١): «مَنْ فَرَّ بِدِينِهِ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ؛

(١) لا؛ لم يصح، فقد أخرجه التعلي من رواية عباد بن منصور الناجي عن الحسن مرسلًا؛ كما في الكافي الشاف، (ص ٤٨ و ١٢٨).
وعُناد: صدوق، مدلس، مختلط.

وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ.

وإنما قال: «بدينه»؛ احترازاً عن الفرار بسبب الدنيا ولاجلها، كأكثَرِ البخاريين الذين هاجروا من بلادهم فراراً من البلاشفة لأجل الدنيا لا لأجل الدين، والدليل على هذا أنهم، وإن جاؤوا إلى الحرمين، وأقاموا فيهما؛ فهم لا يسألون عن معنى كتاب الله، ولا سنة رسول الله ﷺ، ولا عن الحق والحقيقة، بل يصادون أهل الحق، ويتفرون عن استماع تفسير القرآن والحديث، ويتفرون غيرهم أيضاً، وهم أعداء السلف والسلفيين، وفي العقيدة جهميون ومعطلون، ويعبدون مع الله الأولياء وأرواحهم، فيذعنونهم، ويتذرون لهم، ويستغيثون بهم، ويستبدون منهم، فهم ليسوا من المهاجرين لله والرسول، بل من المهاجرين لدنيا يصيبونها، أو امرأة ينجسونها كما لا يخفى؛ إلا من هداهم الله تعالى ووفقهم، وهم قليلون.

فيا أيها المسلمون! آمنوا بالله وكتبه، وبرسوله وسته، واعملوا بهما، واتركوا ما خالفهما، واحذروا عذاب الله وغضبه، ولا تغتروا بالمداهب والمشايع الغير معصومين؛ فإنه لا ينفعكم في الدين، ولا تنفعكم سكنى مكة وجوار الكعبة والمدينة الطيبة إذا لم تكونوا من المؤمنين الصادقين؛ فإن أبا جهل

= ووصله ابن مردويه عن أبي الدرداء؛ كما في الدر المنثور (٦ / ١٧٦).
وفي سنده وضاع؛ كما في الفوائد المجموعة (رقم ١٤٢٥).
وصرح به ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (٢ / ١٨٧)، فقال: «فيه مجاشع بن عمرو!!»
وهو كذاب؛ كما في «الكشف الحثيث عن رمي بوضع الحديث» (ص ٢١٤) لسيط ابن العجمي.

وأبأ لهب وأمثالها كانوا من أهل هذا البلد الأمين، فلم تنفعهم مجاورتهم؛ لأنه لا يقدر الإنسان إلا إيمانه الصادق وأعماله الصالحة.

الآية الثالثة والسبعون فيها أيضاً: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١).

أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يبلغ عباد الله تعالى عموماً، والذين أسرفوا على أنفسهم بارتكاب الكفر والمعاصي: أن يتوبوا إلى الله، ويتوبوا إليه، ولا يقنطوا من رحمة الله ومغفرته؛ فإنه تعالى يغفر الذنوب جميعاً، لأنه هو الغفور الرحيم.

فيا أيها الناس! أنبئوا إلى ربكم الذي خلقكم، وأسلموا له جل جلاله في هذه الحياة الدنيا؛ من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون.

فيا أيها المسلمون! توبوا إلى الله تعالى الرؤوف الغفار؛ فإن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر.

ولا يصح حمل هذه على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

فتوبوا أيها المسلمون من كل ما نهى الله عنه من الشرك والكفر والنفاق والظلم والبدعة والفسق والفجور، فإذا تبتم؛ تاب الله عليكم، وغفر لكم ما

(١) الزمر: ٥٣.

تقدم من ذنوبكم، ورحمكم بفضله ورحمته.

الآية الرابعة والسبعون فيها أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَقْبَذُوا وَأَتَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١).

هذه الآية أمر من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ أن يبشر عباد الله الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت؛ أي: الأوثان والشيطان والقبور والأرواح، بل أتابوا ورجعوا إلى عبادة الرحمن وحده لا شريك له، فهؤلاء الموحدون هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة بالمغفرة والجنة.

﴿فَبَشِّرْ﴾ يا محمد ﴿عبادي المؤمنين﴾، ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾ القرآن، ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾؛ أي: يفهمونه ويعملون بما فيه، وإذا استمعوا القرآن وغير القرآن؛ فيتبعون القرآن، ﴿أُولَئِكَ﴾ هم الموحدون الذين يتبعون القرآن، والمتصفون بهذه الصفة هم ﴿الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: ذوو العقول السليمة والفطر المستقيمة.

فيا أيها المؤمنون! تفهموا كلام ربكم، واستمعوه؛ لأنه أحسن الكلام، فاعملوا به؛ تفوزوا بالروح والريحان والجنة والرضوان، وأما إذا أعرضتم عنه، واشتغلتم بالفلسفة والسفسطة والأشعار والمعاني والألغاز والأغلوطنات وخرافات الصوفية؛ كأهل بخارى والهند والعراق؛ فستتلون بغضب الله الواحد الغفار، فيسلط عليكم البلاشة الأشرار، فيذيقونكم العذاب وبش القراز؛ لأن

(١) الزمر: ١٧ - ١٨.

من سنة الله المطردة أنه يسلب بعض الظالمين على بعض، وإذا عصوا الله مع دعواهم الإسلام؛ سلب الله عليهم الدهرين؛ كما ورد في الحديث القدسي: «إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني»^(١).

الآية الخامسة والسبعون في سورة الزخرف: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ . ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ﴾^(٢).

قد نادى الله تعالى عباده المؤمنين نداء كرامة وتشريف، فقال: ﴿يَا عِبَادِ﴾ المؤمنين المتقين الذين آمنوا بآياتهم ويطاعواهم، وانقادوا لشرع الله جوارحهم وظواهرهم، ﴿لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم القيامة من لقاء المكاره، ﴿وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ من قوت المقاصد كما يخاف ويحزن غير المؤمنين المتقين، وهؤلاء: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ صادقين مخلصين، فإنا من هذه صفتهم! ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ﴾؛ أي: تستنمون وتستعدون وتسرون سروراً يظهر جواره؛ أي: أثره على وجوهكم على أحسن الهيئة.

فيا أيها المؤمنون! آمنوا بآيات الله كلها، وأسلموا لكل أوامر الله بالصدق والإخلاص، وذلك موقف على فهمكم كلام ربكم وتدبر معانيه، فتدبروا وتفكروا في آيات الله والآله؛ لأنكم أنتم المخاطبون بذلك، وأنتم المكلفون بالعمل به.

(١) سبق (ص ٣٧)، ويثبت أنه لا أصل له.

(٢) الزخرف: ٧٠ - ٧٨.

الآية السادسة والسبعون في سورة محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين، وأعلمهم شرطاً عليهم أن يؤمنوا بالله إيماناً صحيحاً، ويعملوا بما أمر من إحضار العدة والأسلحة بما استطاعوا حسب زمتهم ومكانهم، فاستعملوها متوكلين على الله تعالى بإخلاص النية لإعلاء كلمة الله تعالى، فالله تعالى ينصرهم على أعدائهم، ويجعلهم غالبين بالقضاء السريع والخوف في قلوب أعدائهم المشركين وأصدادهم الكافرين؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَيَنْصُرُ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾؛ فإن الجزاء من جنس العمل، ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾^(٢)؛ أي: باستعمال أسلحة الحديد، ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ويقوي قلوبكم.

وقد صدق الله العظيم؛ فإن المسلمين لما كانوا كاملي الإسلام؛ كالخلفاء الراشدين والصحاب والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم نصرهم الله تعالى على الأعداء، وفتح على أيديهم البلدان الكثيرة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، فجزاهم الله تعالى في الدارين خير الجزاء.

وأما الخلفاء الذين خالفوا الله، وخالفوا أمره، وخالفوا رسول الله ﷺ، وخالفوا سنته، وخالفوا السلف الصالحين، وتركوا العمل بكتاب الله الهادي إلى سعادة الدارين، وجعلوا معانيه، واتخذوا دينهم هزواً ولعباً، واعتمدوا على

(١) محمد: ٧.

(٢) الحديد: ٢٥.

الخرافات وتجلّ الدجالين، واعتقدوا أنّ أرواح الأولياء تُعينهم وتمنّهم، وأنّ الأقطاب والأتاذا تنصرف في العالم وتحفظه، فنزوا الأريطة والخانقات، واشتغلوا بالخرافات والخرعيات، بل الشريكيات والبدعيات والضلالات، وساعدهم السلاطين الجهلة والعلماء الدجالة؛ فسلب الله تعالى عنهم الدولة، وسلط عليهم الكفرة الخذلة، ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمه أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميعٌ عليم﴾^(١).

فيا أيها المسلمون! أفيقوا من سكرتكم، واستعملوا عقولكم، وارجعوا إلى دينكم، ألا وهو العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؛ اعتقادياً، وعملياً، وقولياً، والاحتراز عن كل ما خالفهما من التقليد الجامد للأبائ، والاعتماد على أقوال غير المعصومين من المؤلفين، عسى الله تعالى أن يعفو عنكم، اللهم إنا نسألك الهداية والتوفيق.

الآية السابعة والسبعون فيها أيضاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إياهم بأن يطيعوا الله تعالى ويطيعوا رسوله محمدًا ﷺ، ونهاهم عن إبطال أعمالهم؛ بالارتداد، وردّ كلام الله وكلام رسوله، ومخالفة أمر الله وأمر رسوله؛ يعني: أن الطاعات والعبادات والإيمان إنما تنفع صاحبها إذا استمر صاحبها وداوم عليها حتى مات

(١) الأنفال: ٥٣.

(٢) محمد: ٣٣.

عليها، وأما إذا تغير في آخر عمره - والعباد بالله -، وارتد عن دينه، أو شك في شيء من أمر ربه، أو أشرك بالله في عبادته أو ربوبيته أو صفاته؛ فقد خبط عمله، فصار من الخاسرين؛ كمن يدعو غير الله من الملائكة أو الأنبياء والأولياء أو الأرواح؛ على اعتقاد أنه يسمع ويقضي حاجته، أو يقدر على كل شيء من النفع والضّر، أو كمن يتنذر لغير الله على اعتقاد أنه جائز أو قربة، أو كمن يدعو عبد القادر الجيلاني مثلاً ويقول: يا غوث الأعظم! الملدّد، أو أغني، فكل هذا شرك كبير، بل أكبر، لا تنفع معه طاعة ولا عبادة ولا صلاة ولا طواف ولا قراءة قرآن ولا غيرها، إلا إذا تاب توبة صحيحة، فالله نواب رحيم.

فيا أيها المسلمون! داوموا على طاعة الله وطاعة رسوله، ولا تبطلوا عبادتكم وإيمانكم بالشرك والكفر والارتداد، وتفكروا وتدبروا في فهم معاني كلام ربكم؛ فإنه تعالى يقول: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾^(١)، وهذا أمر من الله تعالى بتدبر القرآن وتفهمه، ناهياً عن الإعراض عنه، فعلى قلوب الكفار أقفالها، فهي مغلقة، لا يخلص إليها شيء من معانيه، فلا يفهمون مواضع القرآن وأحكامه، والفتاح هو الله تعالى، فاسألوا من الله تعالى أن يفتح قلوبكم لفهم معاني كتابه، ويتوب بصرركم ويصيركم به بفضله ومنه وجوده وكرمه، آمين.

ويا أيها المؤمنون! أطيعوا الله وأطيعوا الرسول في العائدات والشرائع كلها، فلا تشاقوا الله ورسوله في شيء منها، ولا تبطلوا إيمانكم وأعمالكم بالشرك والكفر والنفاق والرياء والمن والأذى والعجب وغيرها.

(١) محمد: ٢٤.

وفي الآية إشارة إلى أن كل عمل وطاعة لم يكن بأمر الله وسنة رسوله؛ فهو باطل، لم تكن له ثمرة؛ لأنه صدر عن الهوى والطبيعة.

فعلبك أيها المؤمن بالإطاعة واستعمال الشريعة، وإياك والمخالفة والإهمال.

ومن جملة الذين بطلت أعمالهم الذين يصدون الناس عن سبيل الله وعن استماع كلام الله وكلام رسوله ﷺ؛ كأكثر البخاريين الذين هم مقيمون في الحرمين؛ يمتنعون مجالسهم عن استماع تفسير كلام رب العالمين، وعن استماع أحاديث رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، ويتفرون الناس عن استماع التوحيد الصحيح وأهله، فهم إن ماتوا على هذا الحال قبل التوبة؛ فقد خبطت أعمالهم، فبش الحال حالهم، وهم، وإن ظنوا أنهم يقرؤون «دلائل الخيرات»، ولكنهم بعيدون ومحرومون عن كل الخيرات، أعادنا الله تعالى من العمى والضلال.

الآية الثامنة والسبعون في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن التقدم بين يدي الله ورسوله، وهذا أدب أدب الله تعالى به عبادة المؤمنين، وهو أن لا يشعروا في أمر من الأمور قبل صدور أمر الله ورسوله، ولا يسرعوا فيه بهواهم أو تقليداً لغير المعصوم من المؤلفين، بل لا بد أن يكونوا تبعاً له في جميع الأمور.

(١) الحجرات: ١

وقد ثبت في الحديث الصحيح^(١) عن معاذ رضي الله عنه أنه حين بعث النبي ﷺ إلى اليمن؛ قال له: «بِمَ تَحْكُمُ؟». قال: بكتاب الله تعالى. قال ﷺ: «فإن لم تجد؟». قال: بسنة رسول الله ﷺ. قال ﷺ: «فإن لم تجد؟». قال: أجتهد رأيي. فضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ ليعايرضي رسول الله ﷺ».

فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما؛ لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة^(٢)، ولا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم.

ولهذا قد أجمعوا على أن مبنى الدين والإيمان والمبادئ على الاتباع لا على الابتداع.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لأقوالكم وبياتكم وأعمالكم وحركاتكم وسكناتكم.

فيا أيها المؤمنون! لا تقدموا أمراً من الأمور بين الله ورسوله، ولا تقطعوه

(١) لم يصح، بل له علل عدة، وقد طوّلت الكلام عليه تخريجاً وتعليلاً في جزءه سُمّيته «الإناس في طرق حديث معاذ في الرأي والقياس»، وهو الجزء الأول من سلسلتي «الأجزاء الحديثية»، وهو تحت الطبع منذ نحو أربع سنوات!!
(٢) رواه ابن جرير (٢٦ / ١١٦)، وأورده السيوطي في «الدرر» (٧ / ٥٤٦) وزاد نسبه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم.

إلا بعد أن يحكما به ويأذنا فيه، فيكونوا عاملين بالوحي المنزل، ومقتدين بالنبي المرسل ﷺ، واتقوا في كل ما تأتون وما تَدْرُونَ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ؛ لأن الله تعالى سمعَ عليهم، فمن حَقَّ أَنْ يَتَّقَى وَيُرَاقَبَ.

ولا شك أن التقدم خروج عن صفة المتابعة، واستقلال في الأمر، فيكون منافياً للإيمان.

وعوم اللفظ يشمل النهي عن الذبح يوم الأضحية قبل الصلاة^(١)؛ كأنه قيل: لا تَذْبَحُوا قَبْلَ أَنْ يَذْبَحَ النَّبِيُّ ﷺ، ويشمل النهي عن صوم يوم الشك؛ أي: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم^(٢).

ولا شك أن ظاهر الآية عام في كل قول وفعل، ولذا حذف مفعول «لا تَقْدُمُوا»؛ لذهب ذهن السامع كل مذهب مما يمكن تقديمه من قول أو عمل؛ مثلاً إذا جرت مسألة في حضوره ﷺ، فلا تسبقوه بالجواب، وإذا حضر الطعام؛ فلا تبدئوا بالأكل قبله، وإذا ذهبتم إلى موضع معه؛ فلا تمشوا أمامه إلا لمصلحة دعت إليه، ومن هذا قالوا: لا يجوز تقديم الأصغر على الأكبر إلا لمصلحة، فيدخل في النهي المشي بين يدي العلماء؛ لأنهم ورثة الأنبياء^(٣).

واعلم أن من شرط المؤمن أن لا يرى رأيه وعقله واختياره فوق رأي النبي

(١) انظر: «صحيح البخاري» (٤ / ١٠)، و«صحيح مسلم» (١٩٦٢).

(٢) قارن بـ «جامع الأصول» (٦ / ٣٥٠ - ٣٥١).

(٣) وهذا القياس ليس دقيقاً كما يلاحظه المتأمل! وما أشبه اليوم بالأسر! فالله الهادي.

ﷺ، ويكون مستسلماً لما أتى به رسول الله ﷺ، فالذين يقدمون قوانين البشر على أوامر الله ورسوله ليسوا مؤمنين؛ كالأثر الكمالين، والعراقيين الجمهوريين^(١).

الآية التاسعة والسبعون فيها أيضاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ»^(٢).

قد نادى الله وخاطب عباده المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ حينما يخاطبونه ويكلمونه في حضوره ومجلسه ﷺ، وقد روي هنا أحاديث في الصحاح^(٣) فعليك بها إن أردت التفصيل.

قال ابن كثير^(٤): «وقد رُوينا^(٥) عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في المسجد النبوي، وقد ارتفعت أصواتهما،

(١) وسألة الحكم بغير ما أنزل الله من شاتك المسائل في هذا العصر، فترى كثيراً من الشباب المسلم يطلق القول بالكفر على عواهنه، دون تأمل أو تفريق بين الكفر المخرج عن الملة - وهو الجحود - أو غير المخرج - وهو عدم العمل فقط -.

والتفصيل في ذلك بطول، فانظر كتاب «الفتاوى المهمات...» (رقم ١) للشيخ محمود شلتوت، بتعليقي، نشر دار ابن الجوزي.

(٢) الحجرات: ٢.

(٣) انظر: «صحيح البخاري» (٨ / ٤٥٢ - ٤٥٤).

(٤) في تفسيره (٤ / ٣١٥).

(٥) كما في «صحيح البخاري» (١ / ٤٦٥).

فجاء فقال: أتدريان أين أنتم؟ ثم قال: من أين أنتم؟ قالا: من أهل الطائف.
فقال: لو كنتم من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً.

وعن هذا قال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبر النبي ﷺ كما كان يكره في حياته ﷺ؛ لأنه ﷺ محترم حياً وميتاً وفي قبره ﷺ دائماً.

وقد نهى الله تعالى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطبه بسكينة ووقار وتعظيم، فما يفعلُه الناس اليوم من الصياح والغواء عند قبره ﷺ من المحرمات المنهي عنها التي لا يرضى بها الله تعالى ولا رسوله ﷺ، فالحذر الحذر، بل اللازم السلام عليه عليه الصلاة والسلام بالأدب والخشوع لدى الزيارة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، فالناس اليوم ينادون عند قبر النبي ﷺ بالصياح الفاحش: يا رسول الله! ونحوه! فهم جهال لا عقل لهم، فلا شك أنهم محرومون عن فضائل اتباع رسول الله ﷺ، ويدخل في هذا النهي الجهر والتكلم عند تحديث أحاديث النبي ﷺ، ولو رأى السلف مجالس هذا الزمان؛ من مجلس الوعظ، والدرس، واجتماع في المولد، ونحوه؛ لخرجوا من ساعيتهم.

الآية الثمانون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ مرشداً إياهم أن يتأنوا في

(١) الحجرات: ٦.

قبول أخبار الفاسقين، ويتبينوا ويحققوا تحقيقاتهم؛ لأن الفاسق من حيث إنه فاسق من شأنه الكذب، ولأنهم إذا قبلوا قوله بلا تبين ربما حكموا بغير حق؛ بناءً على خبره الكاذب، فيصبحون على ما فعلوا من الحكم بالخطأ نادمين، حيث لا ينفعهم الندم بعد الحكم؛ كما وقع في قصة الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه، حيث كذب عليه الوليد بن عقبة، وقال: إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي، فغضب رسول الله ﷺ على الحارث، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا...﴾ الآية؛ كما هو مبسوط في كتب الأحاديث والتفسير^(١).

فلهذا قد أمر الله تعالى المؤمنين بالتثبت في خبر الفاسق؛ لاحتياط؛ لئلا يُحكم بقوله، فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتضى أثره وأراءه، وقد نهى الله تعالى عن اتباع سبيل المفسدين والفاسقين والكاذبين، وعن هذا كان النبي ﷺ يقول: «التثبت من الله، والعجلة من الشيطان»^(٢).

(١) رواه: أحمد (٤ / ٢٧٩)، والطبراني في «الكبير» (٣٣٩٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ٤٥١)؛ من طريق عيسى بن دينار عن أبيه عن الحارث وسنده حسن لولا جهالة دينار والد عيسى!

(٢) وأورد الحديث السيوطي في «الدر المنثور» (٦ / ٨٧)، وزاد نسبه لابن أبي حاتم وابن مردويه وابن منده، وقال: «وسنده جيد».

وقال الهيثمي في «المجمع» (٧ / ١٠٩): «ورجالة ثقات».

وله شواهد عدة، فانظر رسالتي «التحذيرات...» (ص ١٠).

(٢) رواه: أبو يعلى (٤٢٥٦)، والبيهقي (١٠ / ١٠٤)؛ من طريق سعد بن سنان عن أنس، وزاد ابن حجر في «المطالب العالية» (٢٨١٢) نسبه لابن أبي شيبة وابن منيع

نَكَرَ الْفَاسِقُ؛ لِيَدُلَّ عَلَى الْعَمُومِ؛ أَيُّ: أَيُّ فَاسِقٍ كَانَ. وَتَكَرَّرَ النَّبِيُّ أَيْضاً؛ أَيُّ: أَيُّ خَيْرٍ كَانَ؛ لِيُخْتَرَزَ عَنْ قَبُولِ خَيْرِ كُلِّ فَاسِقٍ، وَخُصُوصاً إِذَا كَانَ الْخَيْرُ خَيْراً يَعْظُمُ وَقَعُهُ فِي الْقُلُوبِ، فَالْإِجْمَاعُ التَّعَرُّفُ وَالتَّخَفُّصُ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ مَا جَاءَ بِهِ؛ أَصْدَقُ هُوَ أَمْ كَذِبٌ؟ وَلَا تَعْتَمِدُوا عَلَى قَوْلِهِ الْمَجْرُودِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَا يَتَحَامَى جَنْسَ الْفُسُوقِ لَا يَتَحَامَى الْكَذِبَ الَّذِي هُوَ نَوْعٌ مِنْهُ.

والحارث بن أبي أسامة.

وقال البوصيري في «الإتحاف» (٢ / ١٤٧): «رواته ثقات».

وقال الهيثمي في «المجمع» (٨ / ١٩): «ورجاله رجال الصحيح»!

قلت: وكلاهما وأمان، إذ سعد بن ستان تكلم فيه كثيراً - ووثقه بعضهم، فبعض أهل العلم يحسن له - وهوليس من رجال الصحيح.

وله شواهد:

فقد روى: الترمذي (٢٠١٢)، والبخاري (١٣ / ١٧٦)، والطبراني في «الكبير» (٥٧٠٢) وفي «مكارم الأخلاق» (٢٧)، عن ابن عباس مرفوعاً: «الأنابة من الله، والمجيلة من الشيطان».

وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

وقال السخاوي في «المقاصد» (٣١٢): «وقد تكلم بعضهم في عبدالمهيمن، وضعفه من قبل حفظه».

وله شاهدان مرسلان بلفظ: «التيين من الله...».

الأول: عن قتادة. أخرجه الطبري في «التفسير» (٢٦ / ١٢٤).

الثاني: عن الحسن. أخرجه العسكري من طريق سهل بن أسلم عنه؛ كما في «المقاصد» (٣١٢).

فالحديث بهذه الشواهد حسن إن لم يكن أعلى.

وقد ضُفِّفَ شيخنا في «ضعيف الجامع» (٢٥٠٤) رواية الحسن مرسلًا!

والرواية عندهم جميعاً ليس فيها «الثبت» - كما عند المصنف -، وإن كان المعنى واحداً، ثم رأيتها في «تفسير ابن كثير» (٤ / ٣٢٢) هكذا من مرسل قتادة!!

وفي الآية دلالة على أَنَّ الْجَاهِلَ لَا يَدْرِي أَنْ يَصِيرَ نَادِماً عَلَى مَا فَعَلَهُ جَهْلًا، وَالَّذِي يَكْذِبُ عَمْدًا فَهُوَ فِي النَّارِ.

فيا أيها المسلمون! احترزوا من الفسق، ومن قبول خبر الفاسق؛ لأنه يكون سبباً لمفاسد لا تحصى، ولكنَّ الأسفَ أَلَفَ أسفٍ على حال المسلمين اليومَ أَنَّهُ غَلَبَ عَلَيْهِمُ الْفُسْقُ وَالْكَذِبُ، وَيَعْدُونَهُ تَذْبِيرًا وَعَقْلًا، فَلِهَذَا فَسَدُوا وَأَفْسَدُوا، وَخُصُوصاً بَعْضُ مُجَاوِرِي الْحَرَمَيْنِ، وَالسَّبَبُ فِي هَذَا كُلِّهِ إِنَّمَا هُوَ غَفْلَتُهُمْ أَوْ جَهْلُهُمْ بِمَعَانِي كَلَامِ رَبِّهِمْ، وَغَفْلَتُهُمْ وَنِسْيَانُهُمْ كَوْنَهُمْ مَسْئُولِينَ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُجَاوِزُونَ بِذَلِكَ.

فيا أيها المسلمون! أما تخافونَ مِنَ اللَّهِ الْخَبِيرِ الْبَصِيرِ وَعَذَابِهِ الْأَلِيمِ؟ تُخَادِعُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَحُجَّاجَ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

الآيَةُ الْحَادِيَةُ وَالْثَامِنُونَ فِيهَا أَيْضاً: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (١).

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين؛ أمراً يُبَاهِمُ أَنْ يُصْلِحُوا بَيْنَ إِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَهُمْ مَنَازَعَةٌ وَمَخَاصِمَةٌ؛ لِأَنَّ الْبَشَرَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ بَشَرٌ، قَدْ يَخْطِئُ، فَقَدْ تَعَمَّ الْمَقَاتِلَةُ خَطَا، «وَاتَّقُوا اللَّهَ» فَلَا يَظْلُمُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، وَلَا يَتَعَدَّى بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَأَصْلَحُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ، «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، وَالْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ لَا يَخْرُجُ بِالْمَعْصِيَةِ عَنِ الْإِيمَانِ إِذَا لَمْ يَسْتَحِلِّهَا وَإِنْ كَثُرَتْ.

(١) الحجرات: ١٠.

والمؤمنون جميعهم - عربهم وعجمهم، وأبيضهم وأسودهم - إخوة في الدين؛ كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يُسْلَمُه»^(١).

وإذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب؛ قال الملك: أمين، ولك بمثله»^(٢).

ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسهر»^(٣).

«المؤمن للمؤمن كالبنيان؛ يشدُّ بعضه بعضاً، (وثبتك بين أصابعه)»^(٤).

وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يشتمه، من كان في حاجة أخيه المؤمن؛ كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة؛ فرج الله تعالى بها عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»^(٥).

اعلم أن أخوة الإسلام أقوى من أخوة النسب، بحيث لا تعتبر أخوة النسب إذا خلت عن أخوة الإسلام، ألا ترى أنه إذا مات المسلم وله أخ كافر

(١) رواه: البخاري (٥ / ٧٠)، ومسلم (٢٥٨٠)؛ عن ابن عمر.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٢) عن أبي الدرداء.

(٣) رواه: البخاري (١٠ / ٣٦٦)، ومسلم (٢٥٨٦)؛ عن النعمان بن بشير.

(٤) رواه: البخاري (٥ / ٧١)، ومسلم (٢٥٨٥)؛ عن أبي موسى الأشعري.

(٥) وانظر ما سبق (ص ٢٢٥).

يكون ماله للمسلمين لا لأخيه الكافر؟ وكذا إذا مات أخوه الكافر لا يرثه المسلم؟ وذلك لأن الجامع الفاسد لا يفيد الأخوة، ولما كان الجامع المعترف هو الدين؛ قال رسول الله ﷺ: «أهل محمد كل تقي»^(١)؛ أي: المؤمن التقي، «وسلماناً من آل البيت»^(٢)، كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(٣)، «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». الذين آمنوا وكانوا يتقون»^(٤).

وكما أنه من حق الأخوة في الدين الإصلاح بين الإخوان المؤمنين، كذلك أن تجب لأخيك المؤمن ما تحب لنفسك، فإن استعانك أعتته، وإن استنصرَكَ نصرته.

ولكن الأسف أن المسلمين تركوا العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وجعلوا معانهم، فصاروا يفيض بعضهم بعضاً، حتى صار إخوان الزمان جواسيس العيوب.

(١) هو حديث ضعيف جداً، مروى عن انس رضي الله عنه من طرق، وكلها شديدة الضعف، فانظر «السلسلة الضعيفة» (١٣٠٤) لمعرفة التفصيل.

(٢) رواه: البيهقي في «الدلائل» (٣ / ٤١٨)، وابن سعد (٤ / ٨٢)، وابن جرير

(٢١ / ٨٥)، والحاكم (٣ / ٥٩٨)؛ عن عمرو بن عوف المزني.

وقال الذهبي في «السيرة» (١ / ٥٤٠) غيب إirاده: «كثير متروك».

قلت: هو كثير بن عبدالله المزني!

وروي الحديث موقوفاً على علي:

رواه الفسوي في: «المعرفة والتاريخ» (٢ / ٥٤٠)، والطبراني في «الكبير»

(٦٠٤١)، والخطيب في «الموضح» (٢ / ٢٦٢)؛ من طرق عنه.

فهو حسن إن شاء الله موقوفاً، موضوع مرفوعاً.

(٣) الأنفال: ٣٤.

(٤) يونس: ٦٢-٦٣.

فالحذر الحذر من إخوان الزمان؛ لأنهم محرومون من الوظائف الإسلامية الواجبة؛ كما صاروا محرومين من العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وإن ادَّعوا إِنْهُمْ أَهْلُ الْحَدِيثِ أَوْ سَلَفِيُون^(١)، ولكن أعمالهم تكذب دعوائهم كما هو المشاهد، فبِاَلْغُرْبَةِ الإسلام من علمائه وأدعيائه! ولهذا قد حرَّهم الله تعالى من خلافة الأرض، وجعلهم محكومين أدلاء تحت أرجل الكافرين؛ إلا آل السعدود وآل محمد بن عبد الوهاب، وعلى رأسهم الملك عبدالعزيز؛ فإن الله تعالى وقَّعهم للخيرات والميراث، فالحمد لله رب العالمين.

الآية الثانية والثمانون، فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْخَرُوا قَوْمَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ^(٢)﴾.

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن السخرية بالناس واحتقارهم والاستهزاء بهم؛ كما ثبت في «الصحيح»^(٣) عن رسول الله ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «الْكِبْرُ: يَنْظُرُ الْحَقُّ، وَغَمْصُ النَّاسِ (أَوْ غَمَطُ النَّاسِ)»، والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام قد نهى الله عنه؛ فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له.

(١) ليسوا سواء!

والدُّعَاوى ما لم تقيموا عليها

يَنَسِبُ أَصْحَابُهَا أَدْعِيَاءُ

(٢) الحجرات: ١١.

(٣) رواه مسلم (رقم ٩١) عن ابن مسعود.

والسخرية أَنْ يُحَقِّرَ الْإِنْسَانُ أَخَاهُ، ويستخفَّه، ويستهزئ به، وعن التحقير يحدث الكِبْرُ، ومنه ينشأ عدم قبول الحق، فيصير الساخر كأنه من حزب الشيطان، وتوصفت بصفاتِه.

وقد ثبت^(١) عن رسول الله ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرٍ، ذِي طَمَرَيْنِ، لَا يُؤْتِيَهُ بِهِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بُرَّةَ».

فلا ينبغي لمسلم أَنْ ينظر إلى مسلم ينظر الحفارة عسى أَنْ يكون خيراً منه؛ إلا إذا ظهر منه ما يوجب التحقير والسخرية؛ كالشُّرْك، والنَّفَاق، والفَسَق، والفجور.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أي: لا تلمزوا الناس؛ فإن من لَمَزَ غيره كأنه لَمَزَ نفسه، اللَّمَزُ: الطعن باللسان، والهمزُ: بالفعل، والهُشَارُ اللَّمَازُ من الناس مذموم ملعون؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَيَلْ لَّكَ هَمَزَةٌ لَمَزَةٌ^(٢)﴾، ﴿هَمَزٌ مَشَاءٌ

(١) رواه: الطحاوي في «مشكل الآثار» (١ / ٢٩٢)، والحاكم (٤ / ٣٢٨)، وأبو نعيم (١ / ٧)؛ من طريق كثير بن زيد عن المطلب عن أبي هريرة.

والمطلب: صدوق، مدلس، وقد عتبه.

وكثير: صدوق يخطئ.

وقد توبع المطلب بنحوه:

فقد أخرجه مسلم (٣٦٢٢) من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً: «رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بُرَّةَ».

وله شواهد أخرى، ذكرها شيخنا الألباني في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» (رقم ١٢٥)، جزم فيها بصحة الحديث.

ولنما اكتفى بإيراد هذا المتابع من «صحيح مسلم»؛ لأن شيخنا حفظه الله لم يذكره في المصدر المذكور.

(٢) الهَمزة: ١.

بنميم^(١)، فلا يطمئن بعضكم على بعض، واللمسُ الإشارةُ بالعين واليد ونحوهما، ولا يحب بعضكم على بعض؛ فإنَّ المؤمنين كنفس واحدة، والأفراد المتشتركة بمنزلة أعضاء تلك النفس، فمن عاب مؤمناً؛ فكأنما عاب نفسه؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٢).

وقال بعض المفسرين: أي: لا تفعلوا ما تَلْمِزُونَ به؛ فإنَّ مَنْ فَعَلَ ما يستحقُّ به اللِّمَزَ؛ فقد لَمَزَ نفسه؛ أي: تسبَّب لللِّمَزِ نفسه، أو لا تلمزوا غيركم؛ فإنَّ ذلك يكون سبباً لأنَّ يبحثَ الملموز عن عيوبكم، فيلمزكم، فتكونون لا مبرزين لأنفسكم، فيصير مثل ما ثبت في «الصحاحين»^(٣) من قوله ﷺ: «من الكبائر شتم الرجل والديه». قالوا: يا رسول الله! وهل يشتم الرجل والديه؟! قال: «نعم؛ يسبُّ الرجل أبا الرجل فيسبُّ أياه، ويسبُّ أمة فيسبُّ أُمَّه».

ولا يدخل في النهي ذكرُ الفاسق؛ لقوله ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه؛ كي يحذره الناس»^(٤).

(١) القلم: ١١.

(٢) النساء: ٢٩.

(٣) رواه: البخاري (١٠ / ٣٣٨)، ومسلم (٩٠)، عن عبدالله بن عمرو.

(٤) حديث موضوع، رواه: ابن حبان في «المجروحين» (١ / ٢١٥)، والبيهقي في «سننه» (١٠ / ٢١٥)، والخطيب في «تاريخه» (١ / ٣٨٢ و ١٨٨ / ٧ و ٢٦٢)، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٣٠٠)، عن معاوية بن حيدة.

ومدار طرقه على الجارود النيسابوري، وهو وُضِّعَ. وانظر: «المقاصد الحسنة» (٩٢١)، و«الأسرار المرفوعة» (٢٩٧)، و«الضعيفة» (٩٨٣).

وقد صحَّ نحوه مقطوعاً من قول الحسن البصري؛ كما قال السخاوي.

﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾؛ أي: لا تدعوا بالألقاب التي يسيء الشخص سماعها.

﴿يُنْسَى الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾؛ أي: ينسى التوسيفُ بالألقاب السيئة؛ كما هو عادة أهل الجاهلية، والمؤمن لا يلقبُ باللقب السيئ؛ مثل: ابن اليهودي، أو النصراني، أو يا كلب! يا ابن الكلب!

قال ابن عباس^(١) رضي الله عنهما: «التَّابَرُ بالألقاب: أن يكون الرجلَ عملَ السيئات ثم تاب عنها، فنهى أن يُعَيَّرَ بما سَلَفَتْ مِن عملِهِ؛ لأنَّ الإيمانَ والإسلامَ يَجِبُ ويمحو ما قبله»، و«التَّابَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»^(٢).

فتصوروا أيها المؤمنون من كل ما جئتم وارتكبتم من الأفعال القبيحة والأقوال الفاحشة، ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ﴾ عَمَّا نَهَى عَنْهُ؛ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

(١) انظر: «الدر المنثور» (٧ / ٥٦٣ - ٥٦٤).

(٢) صحَّ مقطوعاً من قول الشعبي، رواه عنه: وكيع في «الزهد» (٢٧٨)، والبيهقي في «الشعب» (٧١٩٦)؛ بسند صحيح.

وقد رُوي الحديث مرفوعاً من طرق؛ أجودها ما رواه: ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني في «الكبير» (١٠٠ / ١٨٥)، والقضاي في «مسند الشهاب» (١٠٨)؛ من طريق عُثَيْبِ بْنِ خَالِدٍ عن معمر عن عبدالكريم الجزري عن أبي عبيدة عن ابن مسعود.

رجاله ثقات، ولكن لم يسمع أبو عبيدة من أبيه؛ كما هو معلوم. وقد أعلَّ الخطيب في «الموضوع» (١ / ٢٥٧) الحديث بالوقف، فقال: «تفرَّد بروايته محمد بن عبدالله الرَّقَّاشي عن عُثَيْبِ بْنِ هَذَا الإسناد مرفوعاً، ولم يُتابع عليه».

ونقله عنه وأقرَّه أخونا الفاضل محمد عمرو عبداللطيف في رسالته النافعة وتبييض الصحيفة (ص ٥٧)!

الآية الثالثة والثمانون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا مخضاً، فاجتنبوا الكثير منه احتياطاً.

ولهذا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير محملاً»^(٢).

وقد روى البخاري في «صحيحه»^(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال:

= مع أنه تويع: إذ رواه الطبراني وغيره من طريق معلى بن أسد عن وهيب به. ومعلى ثقة ثبت.

وله شاهد: أخرجه أبو نعيم (١٠ / ٣٩٨) عن أبي سعد الأنصاري - لا أبو سعيد كما في بعض المراجع، كما جزم ابن حجر في «الإصابة» (٧ / ٨٤) -.

وفي سنده جهالة.

وقال السخاوي في «المقاصد» (ص ٢٤٩): «بل حسنه شيخنا الشواهد».

قلت: وكذا شيخنا.

نعم؛ للحديث شواهد أخرى، لكنها واهية، لا تصلح للشهادة؛ كما فضله شيخنا في «الضعيفة» (٣١٣).

أما الأخ محمد عمرو؛ فقد انفصل في «تبليص الضعيفة» (ص ٦٢) إلى إعلاؤه بالوقف!

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد»؛ كما في «الدر المنثور» (٧ / ٥٦٥).

(٣) (٩ / ١٧١)، وأخرجه مسلم (٢٥٦٣)، كلاهما عن أبي هريرة.

قال رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا الظَّنُّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَنَافَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْرَاءً»، فلا يتجسس بعضكم على بعض.

والتجسس: هو البحث عن عيوب الناس، والتحسس: هو استماع كلام الناس بقصد الإفساد.

وأفادت الآية أن أكثر الظنون من قبيل الإثم؛ لأن الشيطان يلقي الظنون في النفس، فتظن النفس الظن الفاسد، وعلى أن بعض الظن ليس بإثم، بل هو حقيقة؛ كالفراسة الصحيحة؛ بأن يرى القلب بنور اليقين^(١).

وقد نهى الله تعالى عن الغيبة، وقد فسرهما الشارع كما ثبت في «الصحيح»^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قيل: يا رسول الله! ما الغيبة؟ قال رسول الله ﷺ: «ذَكَرْتُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ؛ فَقَدْ اغْتَيْبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ؛ فَقَدْ بَهْتَهُ»، رواه الترمذي وأبو داود^(٣).

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يستثنى منها إلا ما رجحت مصلحته؛ كما

(١) وليس مثل هذه الفراسة صادقة دائماً، فالواجب التمييز بين الفراسة الصادقة وبين وسوسة الشيطان وتلبسه، وهذا لا يستطيعه كل أحد؛ كما هو واضح.

(٢) «صحيح مسلم» (رقم ٢٥٨٩).

(٣) رواه: الترمذي (١٩٣٤)، وأبو داود (٤٨٧٤)، والدارمي (٢ / ٢٩٩)، وأحمد (٢ / ٢٣٠ و ٣٨٤ و ٣٨٦ و ٤٥٨)، والبيهقي (١٠ / ٢٤٧)، والبخاري (١٣ / ١٣٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٠٤).

في الجحيم والتعديل^(١)، والنصيحة؛ كقوله ﷺ لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «أُذِّنُوا لَهُ، وَيَسِّرْ أَخُو الْعَشِيرَةِ»^(٢)، وكقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس رضي الله عنها وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: «أَمَّا معاوية؛ فضعلوك، وأما أبو الجهم؛ فلا يضغ عساه عن عاتقه»^(٣). . . . وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيت تبنى على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا قد شبهها الله تعالى بأكل لحم الإنسان الميت، «أَيُّبُ أَخَذَكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ» أي: كما تكرهون هذا طبعاً فأكروهوا ذلك شرعاً؛ فإن عقوبته أشد من هذا.

وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه! لا تقتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته» رواه أبو داود^(٤).

- (١) انظر: «الكفاية» (ص ٣٧) للخطيب، و«المجروحين» (١ / ١٦ - ١٧) لابن حبان، و«معرفة علوم الحديث» (ص ١٦٣) للحاكم.
- (٢) رواه البخاري (١٠ / ٤٥٢)، ومسلم (٢٥٩١).
- (٣) رواه مسلم (١٤٨٠) عن فاطمة بنت قيس.
- و(الضعلوك): الفقير.
- وقوله: «فلا يضغ العصا...» أي: كثير الضرب للنساء.
- (٤) برقم (٤٨٨٠).
- وفي سنده ضعف.
- لكن له طرقاً أخرى كثيرة، يجزم الراغب عليها بصحته، ولي جزء مفرد في تخريجه.
- فانظر تعليقي على «الفارق بين المصنف والسارق» (ص ٣٢ - ٣٣) للسيوطي.

ونظر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يوماً إلى الكعبة، فقال: «ما أعظمك وأعظم حرمتك! وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»^(١).

ولكن الأسف أن المسلمين اليوم ابتلوا بارتكاب هذه القبائح، وغرقوا فيها، وتلوثوا بها؛ كالظن السوء - خصوصاً بالصالحين المفلحين من أهل التوحيد والعلماء العاملين - والتجسس والغيبة، فلا يخلو مجلس من المجالس سواء مجلس العلماء أو الجهلاء؛ إلا والغيبة إدامهم، والنميمة خلواهم، والبهتان فاكهتهم يتفكهون بها^(٢)، والسبب في ذلك غفلتهم عن معاني كتاب ربهم، وعدم مياليتهم به وبسنة رسول الله ﷺ، وهذه الغفلة من أعظم جند الشيطان، فتنبه.

الآية الرابعة والثمانون في سورة الحديد: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»^(٣).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين الذين آمنوا بالأنبياء السابقين؛ كموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، فقال لهم: «اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ» محمداً ﷺ «يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ»، ويزدكم فضلاً ورحمة؛ لجميعكم بين

- (١) رواه: ابن حبان (٥٧٣٣)، والترمذي (٢٠٣٢)، بسند حسن.
- وهو قطعة من الحديث السابق موقوفاً ملحقاً به في بعض طرقه الأخرى.
- (٢) فلا قوة إلا بالله، وهو سبحانه العاصم.
- (٣) الحديد: ٢٨.

الإيمان بجميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ﴿وَبِرَكَّةٍ هَذَا الْإِيمَانُ الْكَامِلُ﴾ يُجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴿فِي الدُّنْيَا عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَفِي الْآخِرَةِ عَلَى الصِّرَاطِ كَالْبُرْقِ الْخَاطِفِ﴾^(١).

ولا ريب أن من استقام في هذه الدنيا على الصراط المستقيم استقامة تامة؛ فهو يستقيم على صراط الآخرة بفضل الله ورحمته، وأما من حاذ عنه وتعوّج في هذه الدنيا؛ فهو في الآخرة أضل وأعوّج.

وهذا النور هو القرآن، ففيه الهدى والبيان.

وهذه كقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا يُفَكِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٢).

فأرأس الأمر ومداره: الإيمان بالله وتقواه، ومن لازمه الإيمان برسوله محمد ﷺ، فإذا حصل هذا وصح؛ نال المتصنف به كل سعادة ودولة؛ من هدى، ومغفرة، ورحمة، وجنة، ورضوان.

فيا أيها المؤمنون! كمّلوا إيمانكم بكل ما يؤمن به، ولا تكونوا كالذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، أو كالذين يؤمنون فيعملون بما وافق مذهب إمامهم، ويكفرون فلا يعملون بما خالف مذهبهم؛ كما هو شأن كثير من مقلدة المذاهب وأهل الطرق، فتنبّه.

(١) كما في صحيح مسلم، (١٩٥) عن أبي هريرة (٢) الأنفال: ٢٩.

الآية الخامسة والثمانون في سورة المجادلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين مؤدباً إياهم أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين الذين يتناجون بالإثم، وبما بينهم، والفسق والعدوان على غيرهم، ومنه معصية الرسول ﷺ ومخالفته، ويصرون عليها، ويتواصون بها فيما بينهم؛ كأكثر البخاريين^(٢) الذين يجاورون الحرمين وهم مصرون على عداوة أهل التوحيد العاملين بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فيعادون الوهابيين، ويعادون السلفيين، ويقولون على طريق التشيع: إنه وهابي^(٣)، ويتواصون بذلك بعضهم بعضاً، ويتواصون بعضهم بعضاً أن لا يحضروا ولا يستمعوا دروس التفسير والحديث والتوحيد.

وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ﴾ وتناجى فيما بينكم ﴿فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ﴾ كما يتناجى الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن على شاكلتهم ومالهم على ضلالهم من المنافقين والمقلدين الجامدين، بل أنتم أيها المؤمنون ﴿تَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، فيجازيكم على أعمالكم وأقوالكم وقد أحصاها عليكم.

(١) المجادلة: ٩ - ١٠.

(٢) وغيرهم أيضاً.

(٣) قرآن بما سبق لإيراده تعليقا (ص ٢٢٢).

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾؛ أَي: الْمَسَارَظَةُ حَيْثُ يَتَوَهَّمُ الْمُؤْمِنُ بِهَا سُوءاً مِنْ تَزْيِينِ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلِهِ؛ ﴿لِيُخْزِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أَي: إِنَّمَا يَزِينُ لَهُمْ ذَلِكَ لِيُخْزِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَسُوِّأَهُمْ، ﴿وَلَيْسَ ذَلِكَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ كَمَا يَفْعَلُ أَكْثَرُ الْمُتَبَدِّعِينَ فِي حَقِّ السَّلَفِيِّينَ الْمُؤَحِّدِينَ^(١)، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَحَقُّ نَسْتَعِيزُ مِنْهُمْ بِاللَّهِ، وَتَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ تَعَالَى، فَهُوَ حَسْبُنَا وَنَعْمَ الْوَكِيلُ.

فِيهَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ! اتَّقُوا رَبَّكُمْ؛ فَإِنَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ، وَعَذَابُهُ أَلِيمٌ وَشَدِيدٌ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسَانِ.

الآيَةُ السَّادِسَةُ وَالْثَمَانُونَ فِيهَا أَيْضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ فَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٢).

قَدْ نَادَى اللَّهُ تَعَالَى وَخَاطَبَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مُعَلِّماً إِيَّاهُمْ وَأَمَرَهُمْ أَنَّهُ يَحْسِنُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي الْمَجَالِسِ، وَيُوسِّعُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، فَإِذَا أَحْسَنُوا إِلَى إِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَوَسَّعَ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ الْجِزَاءَ مِنْ جَنْسِ الْعَمَلِ، وَلَا يَضُرُّ الْجَالِسَ عَلَى الْقَادِمِ فِي مَجَالِسِ الْعِلْمِ وَالذِّكْرِ وَالصَّلَاةِ.

(١) وَذَلِكَ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَمَعْرَا!

(٢) الْمَجَادِلَةُ: ١١.

وَقَالُوا فِي سَبَبِ النَّزُولِ^(١): مَجِيءُ الْبَدْرِيِّينَ فِي مَجْلِسِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يُوَسِّعْ لَهُمْ أَحَدٌ فِي الْمَجْلِسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَجِمَ اللَّهُ تَعَالَى رَجُلًا يَفْسَحُ لِأَخِيهِ»، فَجَعَلُوا يَقُومُونَ بَعْدَ ذَلِكَ سِرَاعاً، يَفْسَحُ الْقَوْمُ لِإِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ.

وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقِيمَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ وَيَجْلِسَ فِي مَكَانِهِ؛ لَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ^(٢) عَنْ ابْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ فَيَجْلِسَ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَتَوْسَعُوا».

وَفِي رِوَايَةٍ^(٣): «لَا يُقِيمَنَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ لِيَقْلُ: افْسَحُوا».

وَهَلْ يَجُوزُ الْقِيَامُ لِلْقَادِمِ؟ فِيهِ قَوْلَانِ، وَفِي «السَّنَنِ»^(٤) أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ إِذَا جَاءَ لَا يَقُومُونَ لَهُ؛ لَمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كِرَاهِيَةِ ذَلِكَ، وَكَانَ ﷺ يَجْلِسُ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ^(٥)، وَلَكِنْ حَيْثُ يَجْلِسُ

(١) وَالْوَرَادُ فِيهِ مَرَاتِبٌ لَا تَصُحُّ، فَانْظُرْ: «الدَّرُ الْمَشْهُورَةُ» ٦ / ١٨٤، وَتَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ ٤ / ٣٢٤، وَأَسْبَابُ النَّزُولِ (ص ٤٧٥) لِلْوَلَّاحِدِيِّ.

(٢) رِوَاةُ: الْبُخَارِيِّ (١١ / ٥٢)، وَمُسْلِمٍ (٢١٧٧).

(٣) رِوَاةُ مُسْلِمٍ (٢١٧٨) عَنْ جَابِرٍ.

(٤) رِوَاةُ التِّرْمِذِيِّ (٢٧٥٥) عَنْ أَنَسٍ.

(٥) رِوَاةُ: الْبُخَارِيِّ فِي «الْأَدَبِ الْمَفْرُودِ» (٩٤٦)، وَأَحْمَدُ (٣ / ١٣٢)، وَالطَّحَاوِيُّ فِي «الْمَشْكَلِ» (٢ / ٣٩)؛ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

(٥) عَنْ جَابِرٍ؛ قَالَ: «كَانَ إِذَا أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ؛ جَلَسَ أَحَدُنَا حَيْثُ يَنْتَهِي».

رِوَاةُ: أَبِي دَاوُدَ (٤٨٢٥)، وَالتِّرْمِذِيِّ (٢٧٢٧)؛ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

يكون صدر ذلك المجلس ، فكان الصحابة رضي الله عنهم يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديق عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وبين يديه غالباً عثمان وعلي ؛ لأنهما كانا ممن يكتبان الوحي وكان يأمرهم بذلك .

﴿وإذا قيل أنشروا فأنشروا﴾ ؛ أي : إذا دعيت إلى خير؛ فأجيبوا ، أو إذا قيل لكم ارجعوا فارجعوا ، ولا تتناقلوا في المجلس .

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ ؛ أي : لا تظنوا أنه إذا فسح أحدكم لأخيه إذا أقبل أو إذا أمر بالخروج فخرج أن ذلك نقص في حقه ، بل هو رفعة ورتبة عند الله ، والله تعالى لا يضع ذلك له ، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة ؛ فإن من تواضع لله ولأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكره ، ﴿والله بما تعملون خبير﴾ .

قال ابن مسعود^(١) رضي الله عنه : أيها الناس ! افهموا هذه الآية ؛ فإنها لتسرغبكم في العلم ، ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ ، فالمؤمن العالم فوق الذي لا يعلم درجات .

وروى مسلم^(٢) عن عمر رضي الله تعالى عنه : أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين» .

والعلماء العاملين هم ورثة الأنبياء^(٣) ، والله خير بنبأكم وأعمالكم . وأفاضت الآية سر تقدم العلماء على غيرهم في المجالس والمحافل ؛

(١) لم أره عنه في تفسير ابن كثير (٤ / ٥٠٨) ، ولا في الدر المنثور (٨ / ٨٢) .

(٢) برقم (٨١٧) .

(٣) كما صرح عنه ﷺ ، وقد سبق تخريجه (ص ٦٣) .

لأن الله تعالى رفع قدرهم وأعلى درجاتهم ، فمن رفعهم وأكرمهم ؛ رفعه الله وأكرمهم في الدارين ، ومن وضعهم وأهانهم ؛ وضعه الله تعالى وأهانته في الدارين ، وإنما هذا في حق العلماء الذين يعملون بعلمهم ويخشون ربهم ، لا العلماء الذين جعلوا علمهم آلة للرئاسة والجاه وتحصيل المال ؛ فإنهم محرومون ، بل مردولون .

فسأل الله تعالى علماً نافعاً ، وقلباً خاشعاً ، ولساناً ذاكراً .

الآية السابعة والثمانون فيها أيضاً : ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نازيكم الرسول فاقبلوه وما ينذركم صدقة ذلك خير لكم وأطهره فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم . أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فاقبضوا الصلوات وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خير بما تعملون﴾^(١) .

وقد قالوا في سبب النزول^(٢) : إنهم كانوا يأتون النبي ﷺ ، فيكثرون مناجيئهم ، ويجلسون طويلاً ، حتى كره النبي ﷺ طول جلوسهم ، وكثرة مناجيئهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فأما أهل العسرة ؛ فلم يجدوا شيئاً ، وأما أهل اليسرة ؛ فضنوا ونجلوا ، فنزلت الرخصة .

وقال مجاهد رحمه الله تعالى : «وأنها عن المناجاة حتى يتصدقوا ، فلم

(١) المجادلة : ١٢ - ١٣ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل ؛ كما في الدر المنثور (٨ / ٨٤) .

وهو معضل لا يصح .

يُنَاجِهِ إِلَّا عَلَى رِضَى اللَّهِ عَنْهُ؛ تَصَدَّقْ بِدِينَارٍ، فَتُجَاهِدَ، ثُمَّ تَزِلْ الرِّخَصَةَ، فَكَانَ عَلَى رِضَى اللَّهِ عَنْهُ يَقُولُ: آيَةُ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَمْ يَعْمَلْ بِهَا أَحَدٌ قَبْلِي وَلَا يَعْمَلُ بِهَا أَحَدٌ بَعْدِي، وَهِيَ آيَةُ الْمُنَاجَاةِ^(١).

وهذه الصدقة إنما يُصَدَّقُ بها على الفقير المستحق، لا على النبي ﷺ؛ كما يدعيه أو يظنه من لا خلاق له من أهل الطرق والمشايخ الدجالين؛ لأن الصدقة حرام على النبي ﷺ كما لا يخفى.

﴿فَقَسَّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾؛ أي: فتصدَّقوا قبلها على المستحق، وهذا كقول عمر رضي الله عنه: أفضل ما أُوتيت العرب الشعر؛ يقدِّمه الرجل أمام حاجته، فيستعطر به الكريم، ويستنزل به اللئيم.

وفي هذا الأمر: تعظيم لرسول الله ﷺ، ونفع للفقراء، والنهي عن الإفراط في السؤال، والتمييز بين المخلص والمنافق ومحبة الآخرة ومحبة الدنيا.

قال المفسرون: إن رسم الثارات للملوك والأمراء مأخوذ من أدب الله تعالى في شأن رسوله محمد ﷺ في هذه الآية.

﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾: أخفتم من الفقر إذا تصدَّقتم؟

﴿فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما أمركم به، وشق عليكم ذلك، ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛

(١) روي هذا الخبر من طرق، انظر تخریجها في «الفتح الساموي بتخريج أحاديث تفسير البيضاوي» (رقم ٩٢٤)، وتعليق محققه عليه.

بأن رخص لكم في أن لا تفعلوه، وأسقط عنكم تقديم الصدقة، وعفا عنكم بفضلها؛ فتدركوه بامتثال ما تُؤثرون به بعد هذا، وهو ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ﴾ في أوقاتها مع أركانها وستنها، ﴿وَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ إلى مستحقها، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأوامر؛ فإن القيام بها كالجابر لما وقع في ذلك من التفريط، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من أعمالكم الظاهرة والباطنة، لا تخفى عليه خافية، فيجازيكم عليه، فاعملوا بما أمركم الله؛ ابتغاء لمرضاته، لا لرباؤه أو سمعته.

فيا أيها المسلمون! أطيعوا ربكم، وامتثلوا أمره، ولا تنسأهوا فيه، عسى الله تعالى أن يرحمكم ويعفو عنكم، ويصلح بالكم وحالكم، ويؤزركم في الدارين.

الآية الثامنة والثمانون في سورة الحشر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً بإياهم بأن يتقوا عذابه وغضبه، ثم أمرهم بأن ينظر الإنسان وكل عاقل مكلف فيما فعل من الأعمال الخيرية التي قدَّمها لنفسه؛ ليرى أجرها يوم القيامة.

﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾؛ أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وانظروا ماذا آذرتكم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم؟

(١) الحشر: ١٨ - ١٩.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: تأكيد بعد تأكيد، ولا تغتروا ببعض الأمانى والخيالات والتوهمات؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، وإخلاص ورياء.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾، فتركوا أمره، فكل من ترك أمر الله كأنه نسي الله، ﴿فَ﴾ مجازاة لذلك ﴿أَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، فلم يعملوا لأنفسهم الأعمال الصالحة التي تنفعهم في معادهم؛ فإن الجزاء من جنس العمل، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، الخابرون يوم معادهم.

ومن عمل لغير الله؛ فقد نسي الله تعالى، وكل من غفل عن ذكر الله؛ فقد نسي الله تعالى، لا خير في قول أو عمل لا يراؤ به وجه الله تعالى، ولا خير في مال لا يُنْفَق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله جلته، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم.

ويا أيها المؤمنون! لا تكونوا كالذين نسوا الله؛ أي: نسوا حقوقه عز وجل، فما قدره حق قدره، وما وحدوا الله في عبادته، ولم يراعوا مواجب أوامره ونواهيه حق رعايتها، فأنسَاهُمْ بسبب ذلك أنفسهم، فلم يسمعوها ما ينفعها، ولم يفعلوا ما يخلصها، فأولئك الناسون بالإنساء هم الفاسقون الغارقون في الفسق، والخروج عن طريق الطاعة.

فيا أيها المسلمون! اتقوا الله حق التقوى، واعملوا ما أمر بالإخلاص والرضا، ولا تنسوا الله ربكم، ولا تنسوا أمره ولا نهية لحظة من اللحظات، ولا تغفلوا عن ذكره؛ حتى تكونوا من الصالحين المفلحين، وأما إذا نسيتم الله، ولم تتقوه، وأنتم هواكم ونفسكم وشيطانكم؛ فأنتم الفاسقون، وأنتم

الهالكون، وأنتم الأذلاء في السارين: في الدنيا تحت أرجل الكفرة المستعمرين المستعبدين، وفي الآخرة في نار الجحيم والعذاب الاليم.

الآية التاسعة والثمانون في سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمُ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُخْرِجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُبْرِئُونَ إِلَيْهِمُ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِثْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ ناهياً إياهم أن يتخذوا عدو الله وعدو المؤمنين من المشركين والكفار والزنادقة الأشرار وأحباب وأصدقاء لأنفسهم؛ يعاملونهم بالمودة والمحبة وبث الأسرار، والحال أنهم قد كفروا بما جاءكم به محمد رسول الله ﷺ من عند الله من الحق، وهم يقصدون دائماً إخراج رسول الله وإياكم من أوطانكم، وإنما سبب هذه العداوة هو إيمانكم بالله ربكم وحده لا شريك له... إلخ.

وذكروا في سبب النزول قصّة حاطب بن أبي بلتعة؛ كما هو المشهور المسطور في الصحاح^(٢)، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ كما لا يخفى على الخبير.

(١) الممتحنة: ١.

(٢) رواه: البخاري (٧ / ٤٠٠)، ومسلم (٢٤٩٤) عن علي.

ولا شك أنَّ اتِّخاذَ الكفارِ أولياءَ سببٍ لضعفِ الإسلامِ وأهله؛ كما هو المشاهدُ المجزَّبُ في جميعِ أنحاءِ العالمِ الإسلامي^(١).

فيا أيُّها المسلمون! إذا كنتم تُسرونَ إلى الكفارِ بالموثقةِ وبثِّ الأسرارِ؛ فقد ضللتُم وخرَجْتُم عن سواءِ السبيلِ، وقد صرَّتمُ خُدَّاماً لهدمِ بُنيانِ الإسلامِ؛ لأنَّهم إنَّ يُظفِّروا بكمُ؛ يَقتُلُوا بكمُ كلَّ ما استطاعوا بأيديهم وألسنتهم، حتى يرُدُّوكُم إلى الكفرِ، فكيفَ توالونَ مثلَ هؤلاءِ وقد قالَ اللهُ العليمُ الحكيمُ: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾^(٢)!

وأما أنتَ؛ إذا ظننتَ أنَّ التقربَ والتودُّدَ إليهم ينفَعُكَ في دولتِكَ أو سياستِكَ؛ فاعلمْ أنَّ اللهَ تعالى إذا أرادَ بكُ سوءاً؛ فلا مردَّ لهُ، فلا تنفعُكم أرحامُكم ولا أولادُكم ولا مودَّتُكم ولا سياستُكم؛ لأنَّ اللهَ تعالى خبيرٌ بأعمالِكُم وبنيَّاتِكُم، فيجازيكم بحسبِ ذلك في الدارينِ.

فيا أيُّها المسلمون! حيثُ إنَّكم على مِلَّةِ إبراهيمَ خليلِ الرحمنِ عليه الصلاة والسلامِ؛ فاقْتَدُوا به فيما عملَ؛ فَإِنَّهُ فِيهِ الْأَسْوَةُ الْحَسَنَةُ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ كُفْرُ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ وَجَمَاعَتِهِ؛ أَعْلَنَ التَّبَرُّؤَ مِنْهُمْ^(٣) وممَّا يعبدونَ من دونِ اللهِ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إظهارُ العداوةِ والبغضاءِ على المصْرِفِ على الشركِ والكفرِ، فلا توالُوا ولا تحبُّوا أحداً من الكافرينَ والمشرِكينَ، بل تبرؤوا منهم تبرؤوا كلياً ما داموا كافرينَ ومشرِكينَ يعبدونَ معَ اللهِ غيرَ اللهِ مِنَ الملائكةِ والأنبياءِ

(١) فانظرُ تَرا!

(٢) البقرة: ١٢٠.

(٣) كما في سورة التوبة: ١١٤.

واللَّاتِ والعُزَّى، أو يغوثَ ويعوقَ ونسراً^(١)، أو الأوثانَ والقبورَ وأهلها، أو الأرواحَ والمشاهِدَ.

فلِهَذَا قَرَّرَ الشارحُ^(٢) محمدَ رسولَ اللهِ ﷺ أنَّ الحبَّ والبغضَ مِنَ الإيمانِ؛ أي: حبُّ الإيمانِ والمؤمنينَ وأهلِ التَّوحيدِ مِنَ الإيمانِ، وبغضُ الكفارِ والمشرِكينَ مِنَ الإيمانِ، فَمَنْ سَاوَى بَيْنَهُمَا؛ فَقَدْ بَرَى مِنَ الإيمانِ.

فيا أيُّها المسلمون! امْتثلُوا أمرَ رَبِّكُمْ، وتوكَّلُوا عليه، وتوسَّعُوا إليه، واستعِذُوا باللهِ مِنَ الشركِ والكفرِ، ومن فتنَةِ أهلِ الشركِ والكفرِ، ولا تهديموا باختيارِكُم أركانَ دينِكُم وبنیانَهُ بتولِّيِ أهلِ الشركِ والكفرِ والضَّلالِ، وإنَّ تولَّيْتُم الكفرةَ كما تولَّى كثيرٌ ممَّنْ أَصْلَهُ اللهُ تعالى وأزاعَ قلبَهُ من أهلِ الهند والصينِ والتُّركِستانِ والتُّركِ؛ فَإِنَّ اللهَ تعالى هو الغنيُّ الحميدُ جَلَّ جلالُهُ، وأنتم لا تضرُّونَ إلا أنفُسَكُم.

الآيةُ التسعونَ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَاتَّقُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ الآية^(٣).

قد نادى اللهُ تعالى وخاطَبَ عبادهَ المؤمنينَ؛ أمراً بِإِيَّاهُم إذا جاءَهُمُ النساءُ المؤمناتُ مهاجراتٍ من دارِ الكفرِ إلى دارِ الإسلامِ، أنَّ يَمْتَحِنُوهُنَّ.

(١) كما في سورة نوح: ٢٣ - ٢٤.

(٢) وهو من الألفاظِ المنهيِّ عنها؛ كما سبقَت الإشارةُ إليه.

(٣) الممتحنة: ١٠.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «امتحناتها أن تستحلّف إنها ما خرجت لبغض زوجها، ولا عشقاً لرجلٍ من المسلمين، ولا رغبةً عن أرضٍ إلى أرض، ولا ليحدث أحدتته، ولا لالتماس دنيا، وما خرجت إلا رغبةً في الإسلام، وجباً لله ورسوله محمد ﷺ»^(١).

وفي رواية^(٢): «امتحناتها أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبد الله ورسوله، وأن هجرتي إنما هي لله ورسوله».

فإذا ثبت بإقراره إيمانه؛ «فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هنّ حلّ لهنّ ولا همّ يحلونّ لهنّ»، ما أحلّ الله مؤمنةً لكافرٍ، وآتوا أزواجهنّ الكفار ما أنفقوا عليهنّ من المهر، ثم بعد عدّتهنّ إذا أردتم أن تتزوجوا بهنّ فتزوجوا بالرّضى والمهر.

وأنتم أيها المؤمنون لا تمسكوا بعضكم الكوافر، والبعض: جمع عصمة، وهي ما اعتصم به من العقد والنسب، والكوافر: جمع كافرة.

وقد نهى الله تعالى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، فعلى هذا لا يحلّ للعبد المؤمن أن يعاشر زوجته المشركة، بل يجب عليه مفارقتها بعد استتابتها كما لا يخفى؛ ككثير من الجاهلات اللاتي تفتقدن أن أرواح الأولياء تعلم الغيب، أو تحضر في المجالس، أو تنصرف في الأمور، أو تعمل «بي بي من شنبه»^(٣) على ما هو المعروف بين البخاريات؛ فإنهنّ بهذه الاعتقادات

(١) قال السيوطي في «الدر المنثور» (٨ / ١٣٧): «أخرج ابن أبي أسامة والبرّاء وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند حسن».

(٢) أخرجها ابن مردويه عنه؛ كما في «الدر المنثور» (٨ / ١٣٤).

(٣) لعلمها من رقى الضلال التي تنطلي على عقول جهلة العجم!

الباطلة مشركت بالشرك الأكبر، ولا تنفعهنّ كلمة الشهادة؛ ما لم يعتقذن معناها بعد العلم به، وإجراء كلمة الشهادة على اللسان بطريق العادة من غير قصد التوبة لا ينفع، فتدبر^(١)!

الآية الحادية والتسعون فيها أيضاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ»^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ ناهياً أيّاهم عن موالاة الكفرة الذين قد غضب الله عليهم ولعنهم واستحقوا من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأحلاء وهؤلاء الكفار قد يئسوا من حكم الله تعالى في ثواب الآخرة ونعيمها؟!

وقد روي^(٣) أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين؛ يتوصلون إليهم بذلك، فيصيرون من ثمارهم، فنهاهم الله تعالى عن ذلك.

وهكذا كثير ممن يدعي الإسلام؛ يخدمون الكفرة سرّاً، ويدلّونهم على أسرار المسلمين وعوراتهم؛ لينالوا بذلك منهم مالا ومنصباً، فهؤلاء قد خانوا الله

(١) انظر تعليقي على رسالة ومفتاح الجنة: لا إله إلا الله (ص ٦٣) للمصنف.

(٢) المتنحة: ١٣.

(٣) لم أراه فيما بين يدي، وقد صدره المصنف بصيغة التبريس.

نعم؛ في «الدر» (٨ / ١٤٤) نحوه مختصراً عن ابن عباس عند ابن إسحاق وابن المنذر، فالله أعلم.

تعالى، وخاتوا المسلمین، وخاتوا ديار المسلمین، فهؤلاء لما تولوا الكفار الذين غضب الله عليهم؛ صاروا من حزب المغضوب عليهم، فأبشوا وصاروا من المحرومين من الرحمة ومن نعيم الآخرة، كما ينس الكفار من أصحاب القبور، أي: كما ينس الكفار الأحياء من قراباتهم المدفونين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك؛ لأنهم لا يعتقدون بعثاً ولا نشوراً، أو ينسوا أن يرجعوا إليهم، أو كما ينس الكفار الذين هم في القبور من كل خير لما عاينوا العذاب.

فيا أيها المؤمنون! لا تولوا الكافرين أبداً، ولا تتخذوهم لأنفسكم أولياء أو أصدقاء، وإلا؛ فتستحقون غضب الله، وتبتلون بعذاب الله، فتندمون، وتكون لا ينفعكم الندم.

الآية الثانية والتسعون في سورة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَثِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين بالاستفهام الإنكاري على من يعد وعداً أو يقول قولاً لا يفي به، وهذا يدل على أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً كما يجب العمل بما علم من العلم مطلقاً.

ويؤيده ما في «الصحيحين»^(٢): أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا أوترى خان».

(١) الصف: ٢ - ٣.

(٢) سبق تخريجه (ص ١٩٧).

وزاد مسلم في روايته: «وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم».

وأكد الله ذلك بقوله: ﴿كَثِيرٌ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وهذا إنكار وتوبيخ من الله تعالى على أن يقول الإنسان من نفسه ما لا يفعله من الخير والعمل، وأن الإنسان إذا أخبر أنه فعل كذا وهو لم يفعله كان كاذباً، وإن وعد أنه يفعله في المستقبل ولا يفعله كان خلفاً، وكلاهما مذموم، فيشمل الكذب وإخلاف الوعد بلا عذر. فمن يمدح الجهاد في سبيل الله ولا يجاهد عند الإمكان؛ فهو داخل في الوعيد، ومن يمدح العلم ولا يجتهد في طلبه مع الإمكان؛ فهو داخل أيضاً في الوعيد، ومن يمدح السخاء والجود وهو يبخل مع قدرته وثروته؛ فهو داخل في الوعيد؛ قال الله عز وجل: ﴿اتَّامِرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).

لَا تَنسَ عَنْ خُلُقِي وَنَسِيتِي مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَسَلْتُ عَظِيمُ
أما العجب العجائب المؤسف؛ فإن أكثر الناس في هذا الزمان يقولون ويتقولون ما لا يفعلون، بل يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، والعياذ بالله تعالى الجبار كما هو شأن أكثر المقلدين وأهل الطرق؛ فإنهم يمنعون الناس من حضور دروس التوحيد والتفسير والحديث، ولكنهم يرغبونهم في البدعيات والخرافات؛ من تقليد المذاهب المحرقة، والطرق الفاسدة الباطلة، ومع ذلك يدعون التوحيد والتقوى، فهم داخلون في الوعيد البتة.

(١) البقرة: ٤٤

الآية السالفة والتسعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجْزِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِيكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَآخَرَىٰ تُجِوِّدُهَا نُصَرِّفُ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيُنْفِثُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ منبهاً إياهم، فقال: يا أيها المؤمنون الصادقون الطالبون سعادتي الدنيا والآخرة والفوز بالرضا والرضوان والجنة! ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ عَظِيمَةٍ مُبَارَكَةٍ رَابِعَةٍ، تَكُونُ سَبِيلاً لِنِجَاءِ اللَّهِ إِيَّاكُمْ، وَتُخْلِصُكُمْ لَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَكُونُ سَبِيلاً لِلْعَزَّةِ وَالسَّعَادَةِ، وَهِيَ تِجَارَةٌ لَنْ تَبُورَ أَصلاً، وَلَنْ تَخْسَرَ أَبَداً، هِيَ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إيماناً صادقاً، وتؤمنون برسوله محمد ﷺ، وكلُّ ما جاء من عند الله، ﴿وتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾؛ قاصدين إعلاء كلمة الله تعالى، ونشر التوحيد، وقد ثبت^(٢) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «جاهدوا المشركين والكفار بأموالكم وأنفسكم وأسمائكم».

وإذا جمعتهم هذه الأوصاف الجميلة، فـ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ لأن هذه التجارة لا تكون إلا رابحة؛ بخلاف التجارة الدنيوية؛ فإنها قد لا تكون رابحة، بل قد تكون خاسرة، ولو ربحت؛ فربحها قليل زائل.

(١) الصف: ١٠-١٣.

(٢) رواه: أبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٦ / ٧)، والدارمي (٢١٣ / ٢)، وأحمد

(٣ / ٢٤ و ١٥٣ و ٢٥١)، وابن حبان (١٦١٨)، والحاكم (٢ / ٨١)؛ عن أنس .
وسنده صحيح .

فيا أيها المؤمنون! إذا فعلتم ما أمركم به ودللكم عليه؛ غفرت لكم الزلات، وأدخلتكم الجنات والمسكن الطيبات، والدرجات العاليات، وعلاوة على هذه النعم العظيمة السرمديّة أزيدكم أيها المؤمنون نعماً أخرى عاجلة في الدنيا، وأنتم تحبونها وترغبون فيها، ألا وهي ﴿نُصَرِّفُ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ ينصركم على أعدائكم، ويفتح عليكم الفتح حات؛ أي: إذا قاتلتم في سبيل الله، ونصرتُم دينه، وعملتُم بأمره؛ تكفل الله تعالى بنصركم، فهو ينصركم ألبتة؛ كما قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ تَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (١)، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢)؛ كما ذكرناها وفسرناها سابقاً في الآية السادسة والسبعين، وهي في سورة محمد ﷺ، وكما يأتي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ (٣) الآية.

وهذه النعم من النصر والفتح عاجلاً هي خير الدنيا موصولاً بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله، ونصر الله ودينه، ولهذا قال: ﴿وَيُنْفِثُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يا رسولي محمدٌ بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة، ﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾.

وقد صدق الله العظيم؛ إِنَّ النَّاسَ حِينَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ صَادِقِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَسْتَبْتَهُمْ؛ كالخلفاء الراشدين رضي الله عنهم؛ نصرهم الله تعالى على الأعداء، وفتح لهم البلدان شرقاً وغرباً، ورفعوا أعلام الإسلام، فصارت تجارتهم رابحة، ونجتهم من ظلم الظالمين،

(١) سورة محمد: ٧.

(٢) الحج: ٤٠.

(٣) الصف: ١٤.

واستعباد المستعبدين، واستعمار المستعمرين، وقد غفر الله تعالى ذنوبهم، وأدخلهم جنات النعيم، ومساكن طيبة في جنات عدن؛ ذلك الفوز العظيم.

وأما الخلف الذين قد خالفوا السلف الصالحين، ولم يعملوا بموجب إيمانهم، ولم يجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، بل إنما نظاهروا ببعض مظاهر الإيمان والإسلام، وصار مقصدهم الجاة والرياسة، والهوى والشهوة، فصاروا محرومين من النصر والفتح، والتجارة الرابحة، والخير الكثير، فذهبت دولتهم وديارهم في أيدي الكفرة، والله أعلم، كما أنهم صاروا من المحرومين من دولة الدنيا، فسُخِرَ من المغفرة والرحمة وحنان النعيم والمساكن الطيبة في الآخرة؛ لأنهم قد غيروا ما بأنفسهم من الوظائف الإيمانية والالزام الإسلامية، فغَيَّرَ اللهُ تعالى عليهم؛ جزاءً وفاقاً، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١).

فيا أيها المسلمون! آمنوا بالله ورسوله إيماناً صادقاً كاملاً مثيراً مقترناً بالعمل بموجبه، ولا تتخذوا أنفسكم، ولا تتخذوا بتسويات شياطينكم من العلماء السوء الذين جعلوا العلم فتاً ومصيدةً لمآكلهم وشهواتهم، وشيوخكم الذين مهروا في الدجل حتى جعلوا الطريقة والتصوف غير الشرعية^(٢)، حتى قالوا بلا تحاش: الطريقة غير الشرعية، فخرجوا عن الشرعية المحمدية إلى الطريقة الوثنية، وهم لا يشعرون؛ لجهلهم بمعاني كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

(١) البقرة: ٥٧.

(٢) فارن بتعليقي على «المتنقى للنفس» (ص ٤٣٣).

فيا أيها الناس! إلى متى هذا الضلال؟ وإلى أين هذا الخيال؟ أما تفتقرون من السكر؟ أما تصحون من الغفلة؟ أم أنتم خرجتم عن مرتبة الإنسانية، فهبطتم في مهاوي الحيوانية، وسلكتُم المسالك الشيطانية وقد غرَّكُم الدنيا!! فلا تغرَّكُم الحياة الدنيا وزينتها، ولا يغرَّكُم بالله الغرور.

الآية الرابعة والسمعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لَلخَوَارِجِينَ مِنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُونَ تَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً بإياهم أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم؛ بأقوالهم، وأفعالهم، وأنفسهم، وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ورسوله كما استجاب الخواريون لعيسى عليه الصلاة والسلام حين قال: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ؟﴾ أي: مَنْ مُعَيَّنِي فِي الدُّعْوَى إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ ﴿قَالَ الْخَوَارِجُ﴾ - وهم أتباع عيسى عليه السلام - ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾؛ أي: نحن أنصارك ومساعدوك يا رسول الله على ما أُرْسِلْتُ به، ومؤازروك على ذلك، ولهذا بعثهم دعاءً إلى الناس في البلدان.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الموسم: «هل من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي؟»^(٢)، حتى

(١) الصف: ١٤.

(٢) رواه: أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، والنسائي في «الكبرى» - كما في

فَيُضِلُّ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْأَرْضَ وَالْخَرْجَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَيَابِعُوهُ وَوَارِثُوهُ وَشَارَطُوهُ أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنَ الْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ إِنْ هُوَ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَيْهِمْ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ وَقَفُوا لَهُ بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا سَمَّاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ الْأَنْصَارَ، وَصَارَ ذَلِكَ عَلَمًا عَلَيْهِمْ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَجَعَلْنَا فِي زُمْرَتِهِمْ وَمِنْ مُحِبِّيهِمْ وَمُتَّبِعِيهِمْ، وَحَشَرْنَا مَعَهُمْ بِفَضْلِهِ وَمَنَّهُ.

اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمْنَا أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ طَوَائِفُ، فَأَمِنَتْ طَائِفَةٌ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ، وَقَدْ غَالَتْ فِيهِ طَائِفَةٌ حَتَّى قَالَتْ: إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ، وَافْتَرَقُوا فِرْقًا وَشَيْعًا، فَتَجَادَلُوا وَتَنَاقَلُوا، فَأَيَّدَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ، فَأَصْبَحَ الْمُؤْمِنُونَ ظَاهِرِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ظُهُورًا بَيِّنًا، وَقَدْ زَادَ ذَلِكَ ظُهُورًا بِبَيْعَةِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ كَمَا اخْتَلَفَتْ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ كَذَلِكَ اخْتَلَفَتْ وَكَفَرَتْ طَوَائِفٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَغَلَتْ فِي نَبِيِّهَا وَآلِهِ؛ كَالرَّافِضَةِ، وَالشَّيْعَةِ، وَغُلَاةِ الصُّوفِيَّةِ، وَالْحَنْفِيَّةِ الْهِنْدِيَّةِ الْبِرْلَوِيَّةِ^(١)، فَادَّعَتْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَعْلَمُ الْغَيْبَ الْآنَ، وَأَنَّ حَالَهُ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ كَحَالِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَهَوَّجَتْ فِي قَبْرِهِ كَحَيَاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَلِهَذَا يَنَادُونَهُ وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِ، حَتَّى إِنَّهُمْ حِينَمَا يَقْرَءُونَ قِصَّةَ الْمَوْلِدِ يَقُومُونَ قِيَامًا بِغَايَةِ التَّعْظِيمِ، وَيَقُولُونَ:

مَرْحَبًا يَا مَرْحَبًا يَا مَرْحَبًا مَرْحَبًا بِجَدِّ الْحُسَيْنِ مَرْحَبًا

= «تَحَفُّة الْأَشْرَافِ» (٢ / ١٧٧)، - وَابْنُ مَاجَهَ (٢٠١)، وَأَحْمَدُ (٣ / ٣٩٠)، وَابْنُ خَالٍ فِي «خَلْقِ أَعْمَالِ الْعِبَادَةِ» (٨٠٦)، وَغَيْرُهُمْ؛ عَنْ جَابِرٍ، بِسَنَدٍ صَحِيحٍ. (١) وَلِلشَّيْخِ إِحْسَانَ اللَّهِ ظَهِيرِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى كِتَابٌ كَبِيرٌ كَشَفَ فِيهِ زُيُوفَ الْبِرْلَوِيَّةِ وَضَلَالَتِهِمْ، طُبِعَ فِي الْبَاكِسْتَانِ، فَلْيَنْظُرْ.

وَأِنَّمَا يَقُومُونَ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ رُوحَهُ ﷺ قَدْ حَضَرَ هُنَاكَ.

وَزَادَ غَلُوَّ مَتَأَخَّرِيهِمْ حَتَّى صَارُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْأَوَّلِيَاءَ - كَعَبِيدِ الْقَادِرِ الْجِبَالِيِّ مَثَلًا - يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، وَيَتَصَوَّفُونَ فِي الْأُمُورِ، فَلِهَذَا تَرَاهُمْ يَنَادُونَهُمْ وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ وَيَتَقَرَّبُونَ لَهُمْ، فَهَؤُلَاءِ وَأَمَنَاتُهُمْ كَقَرَّةٍ مَشْرُكُونَ، وَالْعِبَادَةُ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وَعَنْ هَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً». قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «هُمْ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(١).

وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذِهِ الْفِرْقَةِ الْوَاحِدَةِ النَّاجِيَةِ بِقَوْلِهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، أَوْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَحَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الدُّجَالَ مَعَ الْمَسِيحِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٢).

فَنَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ أَنْ تَجْعَلَنَا مِنْ هَذِهِ الْفِرْقَةِ الظَّاهِرَةِ عَلَى الْحَقِّ، وَهُمْ أَنْصَارُ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُمْ الدَّاعُونَ إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى التَّوْحِيدِ؛ تَوْحِيدِ الْأَلُوْهِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ، وَإِلَى الْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

(١) حَدِيثٌ حَسَنٌ، انْظُرْ تَخْرِيجَهُ فِي «الرَّبْعِيِّ الْأَجْرِيِّ» (رَقْمُ ١٣) بِتَحْقِيقِي وَتَخْرِيجِي.

(٢) رَوَاهُ: أَبُو دَاوُدَ (٢٤٨٤)، وَالحَاكِمُ (٤ / ٤٥٠)، وَأَحْمَدُ (٤ / ٤٢٩) وَ٤٣٤ وَ٤٣٧ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حَصِينٍ، وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ. وَهُوَ حَدِيثٌ مُتَوَاتِرٌ، لَهُ طَرَفٌ كَثِيرَةٌ.

الآية الخامسة والتسعون في سورة الجمعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّى
لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ﴾ (١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ منبهاً إياهم أنه إذا نادى
المُنادي لصلاة الجمعة؛ فالواجب عليهم أن يسعوا إلى أداء الصلاة وسماع
الخطبة، وأن يتركوا البيع وكل عمل يشغلهم عن أداء الصلاة، فاداء صلاة
الجمعة وسماع الخطبة والذكر والوعظ هو الخير النافع للمؤمنين إن كانوا يعلمون
مصالح أنفسهم وما ينفعهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم.

ومعنى السعي: الذهاب والحضور، لا العُدُو، والمراد من هذا النداء هو
النداء الذي يكون بين يدي الخطيب إذا جلس على المنبر، وأما النداء الذي
على المنابر؛ فإنما زاده عثمان رضي الله عنه في إمارته (٢) لما كثرت الناس،
فليس بمراد، فمن حين النداء يجب المشي والحضور، ويحرم البيع والاشتغال.

واعلم أن صلاة الجمعة من فروض الأعيان، فتجب على كل مسلم
عاقلاً بالغ حر ذكر إذا كان مقيماً في بصر أو قرية، فمن تركها بدون عذر؛
استحق الوعيد الشديد، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تجب الجمعة
على كل مسلم إلا امرأة أو صبياً أو مملوكاً» رواه الترمذي والنسائي (٣).

(١) الجمعة: ٩.

(٢) كما رواه البخاري (٢ / ٣١٤) وغيره.

وانظر له لإمام الأئمة النافعة (١٧ - ٢٦) لشيخنا الألباني.

(٣) لم أر هذا الحديث عندهما!

ولكن؛ رواه بنحوه أبو داود (١٠٦٧) عن طارق بن شهاب.

والعذر المسقط للجمعة المرض، أو تمهيد مريض، أو خوف، أو مطر،
أو وحل كثير.

ومن لا يجب عليه حضور الجمعة، إذا حضر وصلى مع الإمام الجمعة؛
سقط عنه فرض الظهر؛ لأنها فرض الوقت.

وقد صح عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «من ترك الجمعة ثلاث مرات
تهافت بها؛ طبع الله على قلبه» (١).

ولا شك أن صلاة الجمعة من أركان فرائض الإسلام، ومع هذا؛ فإننا قد
شاهدنا كثيراً من المسلمين يتركون الجمعة؛ تهافتاً بها، حتى إنهم قد رأيت رجالاً
من أغنياء مكة، وأنا نازل عنده ضيفاً في أيام الصيف في الطائف، وهذا الغني
لا يحضر لصلاة الجمعة، وعنده السيارات والمراكب الفاخرة، وإذا قيل له في
ذلك؛ يتعلل بوجع الرجل أو صداع الرأس، ولكن أراء يسعى كل يوم بعد
صلاة الفجر ماشياً على رجليه؛ لزيارة قبر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما،
فلما رأيتهم مراراً؛ قلت له: يا فلان! لم لا تحضر صلاة الجمعة وهي فرض عين؟

وقال عي: «طارق بن شهاب رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً».

فقال النووي في «الخلاصة»: «وهذا غير قاطع في صحته، فإنه يكون مرسل
صحابي، وهو حجة، والحديث على شرط الشيخين».

نقله الزيلعي في «نصب الرابة» (٢ / ١٩٩).

وقال شيخنا في «الإرواء» (٣ / ٥٥): «فكانه لذلك صححه غير واحد».

ثم ساق له شيخنا شواهد عدة.

(١) رواه: أبو داود (١٠٥٢)، والترمذي (٥٠٠)، والنسائي (٣ / ٨٨)؛ عن أبي
الجعد الضمري.

وسنده حسن.

فأجاب بأنه متأثر أو رأسه دائع أو مريض، فأعدت القول، فقلت: لم تذهب كل يوم ماشياً إلى زيارة قبر ابن عباس رضي الله عنهما ولا تتأثر ولا تسأم؟ فأجاب بأن شيخه فلان أوصاه بأن لا يترك زيارة قبر الخبر؛ فإنه منبج البركات! وهذه الدولة التي يلتها كلها ببركة هذا الخبر. فقلت: يا هذا! أتى الله؛ إن البركة إنما هي بيد الله، وعنده جل جلاله، لا عند أحد من المخلوقات، وروية البركة من غير الله - وخصوصاً من القبور وأصحاب القبور - من شعار عبادة الأصنام والأوثان والمشركين. ولكن لم يقبل نصيحتي، ولم يلتفت إلى ما قلت، وقال: الوهابيون يقولون هكذا! فقاطعه قائلاً: هذا فراق بيني وبينك^(١).

فانظروا أخي المؤمن إلى حال المسلمين وجهلهم، وحال من يسكن في الحرم، قد سخر منهم الشيطان، ولعب بهم، وأغفلهم عن أمر الله، وأبعدهم عن فهم معاني كتاب الله والعمل به وبسنة رسول الله ﷺ.

ثم أعلم أن الله تعالى لم يأمر عباده المسلمين أن يتركوا الأشغال المعاشية ويجلسوا في المساجد معتكفين كما يفعل الجهلة وأهل البطالة من أهل الطرق والأكايا، بل أمرهم بعد أداء فرائض الصلوات أن يشتبوا في الأرض، ويطلبوا من فضل الله الرزق والمعاش.

ومن هذا قال بعض السلف: من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة؛ بارك الله تعالى له سبعين مرة.

وكان عراك بن مالك رضي الله عنه إذا صلى الجمعة؛ انصرف، ثم وقف

(١) هذا هجر مشرّع، ليس للنفس فيه نصيب، إنما هو - إن شاء الله - لله سبحانه وحده، وانظر: «هجر المتدع» للأخ الشيخ بكر أبو زيد.

على باب المسجد، فقال: «اللهم إني أجيتُ دعوتك، وصليتُ فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين». رواه ابن أبي حاتم.

«واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون»؛ أي: في حال بيعكم وشرايتكم، وأخذكم وإعطائكم، وفي كل حاليتكم؛ اذكروا الله ذكراً كثيراً، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة، ولا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قياماً وقعوداً واضطجاعاً.

ومن فضل الله طلب العلم؛ كما أن من فضل الله المال الحلال والرزق الحلال.

وأصل الذكر أن يذكر العبد أمر الله في كل شؤنه، فيأتيها موافقاً لأمره برعاية حدوده.

قال سعيد بن جبير رضي الله عنه: «الذكر طاعة لله، فمن أطاع الله؛ فقد ذكره، ومن لم يطعه؛ فليس يذكر، وإن كان كثير التسيب باللسان؛ كما هو شأن كثير من الدجالين المكارين، وذكر الله حقاً سبب الفوز والفلاح في الدارين، وموجب لجمعية الظاهر والباطن، «ألا يذكر الله تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ»^(١).

الآية السادسة والتسعون في سورة المنافقون: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ

(١) الرعد: ٢٨.

الْخَائِرُونَ»^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين: أَمَّا إِيَّاهُمْ بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ، وَنَاهِيًا إِيَّاهُمْ عَنْ أَنْ تَشْغَلَهُمُ الْأُمُالُ وَالْأَوْلَادُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ انْتَهَى وَتَلَهَّى بِمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا عَمَّا خُلِقَ لَهُ مِنْ طَاعَةِ رَبِّهِ وَذِكْرِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنَ الْخَاسِرِينَ، الَّذِينَ يَخْسِرُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ حَثَّهُمْ وَرَعَّبَهُمْ عَلَى الْإِنْفَاقِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَمَرْضَاتِهِ.

وقد روى الترمذي في «سننه»^(٢) بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ يُبْلِغُهُ حَجَّ بَيْتِ رَبِّهِ أَوْ تَجِبَ عَلَيْهِ فِيهِ زَكَاةٌ، فَلَمْ يَفْعَلْ؛ سَأَلَ الرَّجْعَةَ عِنْدَ الْمَوْتِ». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ! اتَّقِ اللَّهَ؛ فَإِنَّمَا يَسْأَلُ الرَّجْعَةَ الْكَفَّارُ. فَقَالَ: «سَأَلُوا عَلَيْكُمْ بِذَلِكَ قُرْآنًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أُمُالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنْفَقُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدَقَ وَأَكْنَ مِنْ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»^(٣). قَالَ: فَمَا يوجبُ الزَّكَاةَ؟ قَالَ: «إِذَا بَلَغَ الْمَالُ مِثْنَيْنِ فَصَاعِدًا». قَالَ: فَمَا يوجبُ الْحَجَّ؟ قَالَ: «الزَّادُ وَالرَّاحِلَةُ».

(١) المناقبون: ٩.

(٢) برقم (٣٣١٣).

وأورد السيوطي في «الدر» (٨ / ١٧٩)، وزاد نسبه لعبد بن محمد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه. وفيه ضعف وانقطاع.

(٣) المناقبون: ٩ - ١١.

فيا أيها المسلمون! لَا تَشْغَلْكُمْ الْاهْتِمَامُ بِتَدْبِيرِ أُمُالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ، وَالْإِعْتِنَاءُ بِمَصَالِحِهَا، وَالتَّمَتُّعُ بِهَا، عَنِ الْإِشْغَالِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى؛ مِنْ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَسَائِرِ الْعِبَادَاتِ الْمَذْكُورَةِ لِلْمَعْبُودِ.

وَذَكَرَ اللَّهُ إِيَّاهُ بِالْقَلْبِ وَإِيَّاهُ بِاللِّسَانِ وَإِيَّاهُ بِالْجَوَارِحِ، وَالْمَرَادُ هُنَا كُلُّ ذَلِكَ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

الآية السابعة والتسعون في سورة التغابن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَوَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. إِنَّمَا أُمُالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَتَّقُوا خَيْرًا لَكُمْ أَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ مَنِّهَا إِيَّاهُمْ، وَمَخْبِرًا أَنَّ بَعْضَ الْأَرْوَاحِ وَالْأَوْلَادِ عَدُوٌّ لِلزَّوْجِ وَالْوَلَدِ؛ فَإِنَّهُ بِسَبِّهِ يَتَلَهَّى وَيَشْتَغِلُ عَنِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، أَوْ يَرْتَكِبُ بِسَبِّهِ بَعْضَ الْمُحْظُورَاتِ؛ مِنْ السَّرْقَةِ، وَالغَيْشِ، وَالْخِيَانَاتِ، فَلِهَذَا قَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَحْذَرُوا مِنْ الْوُقُوعِ بِسَبَبِهِمْ فِي الْمُحْظُورَاتِ، وَكَمْ مِنْ زَوْجَةٍ تَحْمِلُ الزَّوْجَ عَلَى قَطْعِ الرَّحِمِ، أَوْ مَعْصِيَةِ رَبِّهِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الرَّجُلُ مَعَ حُبِّهَا إِلَّا أَنْ يُطِيعَهَا.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ رَجُلًا أَسْلَمُوا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَأَرَادُوا أَنْ يَهَاجِرُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَبَى أَرْوَاجُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ أَنْ يَدْعَوْهُمْ،

(١) التغابن: ١٤ - ١٦.

وقالوا: لا نصبر على فراقكم، فأتاعوهم، وتركوا الهجرة، ثم لما هاجروا بعد مدة إلى رسول الله ﷺ ورأوا الناس الذين سبقوهم أنهم قد فقهوا في الدين؛ هموا أن يعاصروا أزواجهم وأولادهم الذين منعوهم، فأنزل الله: ﴿وَأَنْ تَعْلَمُوا وَتَضْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فأمرهم الله تعالى بالعفو عنهم والصنع^(١).

فيا أيها المؤمنون! إنما الأموال والأولاد فتنة، أي: اختبار وإبتلاء من الله تعالى لخلق؛ ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، ويقع بسببها الإنسان في العظام ومنع الحقوق وتناول الحرام، «والله عنده أجر عظيم».

وقد روى البرزاري^(٢) بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «الولد ثمرة القلوب، وإنهم مخبئة مخلة محزنة».

وحيث إن الإنسان مبدئي بهذه الفتنة؛ فقد لطف الله تعالى بعبيده المؤمنين، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾؛ أي: جهدكم وطاقتكم، «وَأَسْمَعُوا وَأَطِيعُوا»؛ أي: كونوا متقادين لما يأمركم الله تعالى به ورسوله، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتخلفوا عما أمرتم به، ولا تركبوا ما عنه نهيتكم تذرئتم، واسمعوا وأوامره ومواعظه وأطيعوه، وأتقوا مما رزقكم

(١) رواه: الترمذي (٣٣١٤)، وابن جرير (٢٨ / ١٢٤)، والطبراني (١١٧٢٠) عن سماك عنه.

ورواية سماك عن عكرمة مخطوطة.

(٢) برقم (١٨٩٢) عن أبي سعيد.

وفي سنده عطية العوفي، وهو ضعيف.

وقد صحح الحديث؛ دون قوله: «... ثمرة القلوب...» كما تقدم (ص ٢٠١) تخريجه مفصلاً.

الله تعالى على الأقارب والمساكين وذوي الحاجات، وأحيثوا إلى خلق الله كما أحسن الله إليكم؛ يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة.

فيا أيها المؤمنون! كونوا على حذر واحتياط من أزواجكم وأولادكم وأموالكم، واعيدوا في معاملاتهم، ولا تألفوا أنفسكم بسببهم إلى المهلكة، وكم من مال أوقع ماله في أنواع البلاء، حتى في الدنيا!

فاتقوا كل ما يكون سبباً لمواخلة الله إليكم في تدبير أمورهم، وترك تعليمهم أمور دينهم، ولا ترتكبوا ما يخالف أمر الله تعالى من فعل أو ترك، وأتقوا أموالكم فيما أمركم الله تعالى بالإتفاق فيه خالصاً لله تعالى، وفي تربية أولادكم، وأتقوا الشح والبخل، «ومن يوق شح نفسه»؛ أي: من يقي الله ويعصمه من بخل نفسه الذي هو الرذيلة المعجونة في طينة النفس؛ «فأولئك» المحفوظون من الشح، والسامعون لمواظ الله، والمطيعون لأوامره، والمتقون فيما أمر الله تعالى بالإتفاق فيه «هم المفلحون» في الدارين، والفائزون بالسعادتين، اللهم وفقنا لما فيه رضاك.

الآية الشامنة والتسعون في سورة الطلاق: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا . رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾^(١).

(١) الطلاق: ١٠ - ١١.

قد أمر الله تعالى العقلاء من عباده المؤمنين وأصحاب اللب وهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله إيماناً صحيحاً بتقوى الله تعالى، والحذر من غضبه وعقابه، فخطأهم منادياً إياهم بيا ذوي الأبواب والعقول السليمة! الذين عرفوا ربهم فأمنوا به إيماناً صادقاً؛ أي: يا أيها المؤمنون ذوو الأفهام السليمة والعقول المستقيمة! اتقوا الله، ولا تكونوا مثل الذين خالفوا أمره، وكذبوا رسله، وغيروا ما شرعه، وابتدعوا في دينه وعبادته، فأصابهم ما أصابهم من بلاء الله وغضبه وعذابه ولعنته.

فيا ذوي الأبواب الذين اتصفوا بصفة الإيمان الصادق! ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ تعالى ﴿إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾؛ يعني القرآن و﴿رَسُولًا﴾؛ يعني: محمداً ﷺ، ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ أي: من ظلمات الشرك والكفر والجهل والضلال إلى نور الإيمان والترحيد والعلم، وإنما وحّد الله تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد، وسيله واحد، وهو ما جاء به محمد رسول الله ﷺ اعتقادياً وعملياً، وأما الظلمات والكفريات والشركيات؛ فأنواعها كثيرة، وطرقها متعددة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (١).

وأفادت الآية أن ذوي الأبواب إنما هم المؤمنون بالله إيماناً صادقاً، وأما غيرهم من الكافرين والمشركين والزنادقة؛ فليسوا من ذوي الأبواب، وإن اخترعوا الصنائع العجيبة من الشِّارات والطَّيَّارات والقنابل الذريّة والماكينات

(١) الأنعام: ١٥٣

الجهنمية، وحصلوا من الدنيا بالمليارات؛ فإنهم من قُرط جهلهم أعداء أنفسهم كما لا يخفى، فهم كالشياطين الذين كانوا يعملون في دولة سليمان عليه السلام من محارِب وتماثيل وجفانٍ وقُدُورٍ راسيات^(١)، وكالذين كانوا ينجحون من الجبال بيوتاً ومصانعاً لهمم يخلدون^(٢)، فانتبهوا يا ذوي الأبواب.

فالله تبارك وتعالى إنما يخرج بكتابه المؤمنين العقلاء المتفكرين من الضلالة إلى الهدى، ومن الباطل إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الشبهات إلى الدلالات والبراهين الواضحات، ومن الغفلة إلى اليقظة، ومن الأنس بغير الله إلى الأنس بالله؛ على حسب طبقاتهم ودرجاتهم، ويقدر استعدادهم وأهليتهم في السعي والاجتهاد بعناية الله تعالى وتوفيقه، اللهم اهدنا فيمن هديت، يا رب العالمين!

الآية التاسعة والتسعون في سورة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٣).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إياهم أن يحفظوا أنفسهم وأهليهم وأولادهم وأزواجهم ممّا يصير سبباً للدُّخُولِ في نار جهنم،

(١) كما في سورة سبأ: ١٣.

(٢) كما في سورة الشعراء: ١٢٩ و ١٤٩.

(٣) التحريم: ٦.

وقوداً وحطب تلك النار إنما يكون من الأدمي والحجارة المعبودة من الأوثان والأصنام والهيكل والقُبَّ المنيئة على قبور الأنبياء والأولياء وغيرها.

ولا شك أنَّ الوقاية منها إنما تكون: بالإيمان بالله ورسوله، والعمل بمقتضاه، وبشأن الأولاد وتعليمهم الإيمان الصحيح والإسلام الصحيح والإحسان والأخلاق الإنسانية والعمل بطاعة الله والاحتراز عن معاصي الله.

فيا أيها المؤمنون! اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله، فتأمروهم بطاعة الله، وتنهؤهم عن معصية الله، وأن تساعدوهم على ذلك، فإذا رأيتم منهم معصية الله؛ فذعنموهم منها، وزجرتموهم عنها، فالحق الواجب على المسلم أن يعلم أهله وأولاده وقرباته وعبيده ما فرض الله تعالى عليهم، وما أمرهم بفعله، وما نهاهم عنه.

ومما يفسر هذا ما رواه أبو داود والترمذي وأحمد^(١) عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين؛ فاضربوه عليها»، وكذا الصوم؛ ليكون ذلك تمريناً له على العبادة، والله سبحانه هو الموفق.

وقد أخبر الله تعالى أنَّ وقود تلك النار وحطبها: ما يلقي فيها من جثث بني آدم، والحجارة؛ الأصنام والأوثان التي تُعبد وتُعظم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ

(١) رواه: أبو داود (٤٩٤)، والترمذي (٤٠٧)، والدارمي (٣٣٣ / ١)، والحاكم (١ / ٢٠١)، وأحمد (٣ / ٢٠١)، والبيهقي (٢ / ١٤ و ٣ / ٨٣ - ٨٤)؛ من طريق عبد الملك ابن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده.

وسنده حسن.

وللحديث طرق أخرى.

وما تُعبدون من دون الله خصب جهنم^(٢)، فالمشركون والكفار من وقود جهنم، وكذا الأصنام المعبودة، والأوثان المسجودة، والقُبَّ على القبور المركوة، ويدخل فيه الذين يأمرون الناس بالسجود والركوع لهم، أو النذر لهم ولأرواحهم بعد وفاتهم، أو يأمرون مريديهم بأن يطلبوا حاجاتهم منهم؛ متوجهين إلى قبورهم وقبيهم، فهؤلاء هم الطواغيت، والطواغيت في النار، ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيُشْنَ الْقَرَارُ﴾^(٣).

فيا أيها المؤمنون! اتقوا الله، وارحموا أنفسكم وأهليكم من الشراكات والكفرات والضلالات والجهالات وكل ما نهى الله تعالى عنه، وهذا يقتضي ويوجب على المؤمنين معرفة كل ما أمر الله تعالى به وما نهى عنه، ولا شك أنَّ هذا موقف على معرفة معاني القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ.

فعليكم أيها المسلمون بالسعي والاجتهاد في تعلم القرآن وفهم معناه؛ كي تقوا أنفسكم من نار الجحيم والعذاب الآليم في الدنيا والآخرة، والله الموفق.

الآية المتممة للمنة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوَنُّوا إِلَى اللَّهِ تَوَنُّةً نَضُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَكْفُرَ عَنْكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُغْزَىٰ اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْمَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتَيْمُ لَنَا نُورًا وَغَيْرَ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٤).

(١) الأنبياء: ٩٨.

(٢) إبراهيم: ٢٩.

(٣) التحريم: ٨.

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إياهم بالتوبة والأوب والرجوع إلى الله توبة ناصحة خالصة صادقة، تمحو ما قبلها من السيئات، وتلثم شعث التائب وتجمعه، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات.

وقد روى أحمد^(١) في «مسنده» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «التوبة من الذنب: أن يتوب منه ثم لا يعود فيه».

فالتوبة النصوح^(٢): هي أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لأدمي رده إليه بطريقه، والتوبة الصحيحة تجب ما قبلها، كما أن الإسلام الصحيح يجب ما قبله^(٣).

فيا أيها المؤمنون! توبوا إلى الله قبل الفوت؛ فإنك لا تدري متى تموت، ولا بد منه، فالبدار البدار، والاستغفار دائماً أثناء الليل وأطراف النهار.

فتوبوا أيها المؤمنون من هذه المذاهب المبتدعة المفرقة، والطرق الوثنية المضللة، والتوجه إلى القبور والأرواح، والاستمداد من الأموات والروحانيات،

(١) برقم (٤٢٦٤).

ورواه البيهقي في «الشعب» (٧٠٣٦).

وهو إسناده ضعيف لضعف الهجري؛ كما قال الشيخ أحمد شاكر.

وضممه الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ١٩٩ - ٢٠٠).

(٢) ولأخينا سليم الهلالي رسالة مفردة في «التوبة النصوح»، وهي مطبوعة.

(٣) كما في الحديث الذي رواه مسلم (١٢١) عن عمرو بن العاص.

أما «التوبة تجب ما قبلها»؛ فمما لا أصل له في المرفوع، وإن اشتهر على السنة

العامة!

فاتركوا كل هذه الخرافات، وارجعوا إلى العلم والعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، واجتهدوا في استحصال العدة والآلات الدفاعية بالاتفاق والاتحاد، ولكنكم لا تتجدون ما لم تتجدوا في التوحيد والاعتقاد، فجاهدوا أعداء الله تعالى وأعداءكم لتخليص البلاد، عسى الله تعالى أن يفرّ ذنوبكم الماضية، ويكفر عنكم سيئاتكم، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار، فتخلصون في هذه الدنيا من برائين أهل الاستعمار واستعبادهم، فتتمسرون ببلادكم وأوطانكم بشعائر دين الإسلام؛ من إقامة حدود الله، ورفع منار الدين، وأما في الآخرة؛ فيدخلكم الله تعالى بهذه الأعمال الصالحة جنات تجري من تحتها الأنهار؛ لأن الله جلّ جلاله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وأما التوبة والاستغفار باللسان بلا رجوع عما كنتم عليه من الضلال؛ فلا تنفع؛ كما هو شأن كثير من المغرورين المغفلين من أهل الغفلة، وإن ادعى أنه من أهل المعرفة، فهو لا بد اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، وصلواتهم وأذكارهم مكاءً وتضديّة، فتوبتهم صورة بلا روح، وعرض بلا ذات؛ كمدفع بلا قبلة، وسيارة بلا بنزين، فماذا تنفع؟ هيهات هيهات.

اللهم إنا الحق حقاً ووفقنا لأتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وسهّل لنا اجتنابه.

والعبد الضعيف راقم هذه الحروف، حينما كنت في بلدة غولجّة من بلاد الصين كنت ألفت كتاباً في التوبة والاستغفار، وسميته «تحفة الأبرار في فضائل سيّد الاستغفار»، وكان قد طبع هناك عام ١٣٥٠هـ، ونُشر في الآفاق، فأسأل الله تعالى التوفيق والثبات على الحق المبين والصرار بالمستقيم.

●●●●●

فهذه مئة آية؛ قد ذكرتها وفشرتها على ما يشر الله تعالى؛ مفتياً من تفاسير السلف الصالحين والعلماء المحققين رضي الله عنهم وأرضاهم، وما شاكلها من الآيات كثيرة على هذا المعنى، قد خاطب الله تعالى بها عباده المؤمنين كلهم، وناداهم، وأمرهم، ونهاهم، وبشروهم، وأنذروهم، وزجرهم، وخوفهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يقل: يا أيها العلماء، أو: يا أيها العرب، أو: يا أيها السادات والأشراف، ولكن قد خاطب كل المؤمنين بـ (أنتم) و(كم) و(كنتم)، فإذا؛ كل المؤمنين سواء في التكليف، وكلهم مخاطبون بهذه الخطابات الإلهية؛ كما أن كل البشر مخاطبون بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، و﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، فهذا قد توجه الخطاب إليهم، وكل واحد منهم أهل لفهم ذلك ما دام عاقلًا بالغًا، ولأنهم لو لم يكونوا أهلًا؛ لما خاطبهم الله تعالى، ولما كلّفهم، فلا يُعذر أحد بالجهل^(١)، سواء كانوا عرباً أو عجماً، فارسياً أو هندية، جاونياً أو صينياً، رومياً أو حبشياً، جابانياً أو أمريكانياً... أو أي جنس كان.

فما يقوله أو يتقوله كثير من المؤلفين - ولقد هم عامة غوغاء المسلمين -؛ بأنهم ليسوا أهل لفهم معنى القرآن والعمل بمقتضاه، وإنما يُقرأ القرآن للتبرك وتحصيل الثواب فقط، ولو بلا فهم؛ لأن فهم معاني القرآن مختص بالائمة المجتهدين، وهم قد انقضوا منذ تاريخ أربع مئة، فبعد ذلك العصر انسد على الناس باب الفهم والاجتهاد؛ أي: باب رحمة الله وفضله، فالناس قد صاروا محرومين عن فهم كلام ربهم، كأنهم قد مُسخوا عن الإنسانية إلى الحيوانية، وعن الأدمية إلى البهيمة، وانسلخوا عن صفة العلم والإيمان إلى سفاسيف

(١) انظر (ص ٨٩) فيما سبق.

الفلسفة وتزهات الصوفية، فبذلك صاروا محرومين من السعادتين، وقد صاروا مَحْكُومِينَ وَتَرْذُولِينَ وَتَحْذُولِينَ تحت حكم الكفار، فيخديمونهم آتاء الله وأطراف النهار؛ كما لا يخفى على من له أدنى عقل سليم، أو فهم مستقيم.

فهؤلاء المحرومون وإن ادّعوا العلم والفضل والكمال، وتلقبوا بالعلامة المحقق والفهامة المدقق، أو الألمي الدؤعي، أو الشاعر الفريد الفرزدقي؛ لكنهم لا يعلمون الإله ولا معناه، فحيث لا يعرفون معنى الإله فقد اتّخذوا إلههم هواهم، وعبدوا غير الله وهم لا يشعرون، وأشركوا بالله رب العالمين شركاً صريحاً كبيراً، بل أكبر، وهم وإن قالوا: الله رب العالمين، ولكنهم يعتقدون أن الرُوحانيات لها حق التربية، فترى من يدعوها، وتعين من يستعين بها، وكذا أرواح الأنبياء والأولياء يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون.

فهؤلاء المحرومون؛ لو استعملوا عقولهم وفكرهم التي صرفوها في فهم فلسفة أفلاطون ودراسة حكمة أرسطو ومذاكرة ديوان ابن الفارض والفارابي والمثنبي وما ألفه الغير المعصومين من المؤلفات الغامضة والأغلوطن والألغاز والمعميات الغاوية إلى فهم كتاب رب العالمين وتدبر معانيه كما أمر الله جلّ جلاله؛ لوصلوا إلى الحق الصريح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ونالوا رضى الله تعالى ورضوانه، فكانوا من أهل السعادتين في الدارين.

وما علم هؤلاء المحرومون أنهم إن كانوا مؤمنين؛ فهم داخلون البتة في خطاب ونداء يا أيها الذين آمنوا، ومكلفون بامتثال هذه الأوامر. والامتثال لا يتحقق إلا بالفهم، ولكنهم كأنهم لما نسوا أمر ربهم وفهم

كلام خالقهم؛ فأنساهم أنفسهم، وأهمل أمرهم وشأنهم؛ جزاء وفاقاً.

وهذه الآيات صريحة في إيجاب الله تعالى على المؤمنين خصوصاً وعلى عامة البشر عموماً تعلّم لغة القرآن، ومعرفة كلام العرب، ولا يُعزَّر أحد بالجهل بها؛ لأنّ الإنسان قابلٌ للتعلّم ومعرفة اللغات والصناعات والأشياء كلّها، فمضى تساهل وقصّر في التعلّم؛ فهو المقصّر المسؤول في الدنيا والآخرة، وكيف لا تجب على العبد معرفة كلام مولاه وخالقه وربّه؟! فاعتبروا يا أولي الأبصار والأبصار.

•••••

فصل

اعلم أنّ اليهود عندهم التوراة، والنصارى عندهم الإنجيل، وهم يقرؤونها تعبدًا في معابدهم، ولكن لا يعملون بأمرهما ونهيها، فهل نفهم الإنجيل والتوراة؟! كلا، بل صاروا ملعونين وضالّين ومغضوباً عليهم بعد أن قامت حجة الله عليهم؛ كما اختير الله تعالى عن ذلك في سورة المائدة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُفِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١).

فمن يتأمل هذه الآية؛ يعلم يقيناً أنّ حفظ الكتاب ودراسة بدون فهم وعمل اعتقادياً وعملياً ليس بشيء، بل هو وبال عليه، وتضييع للعمى والوقت بلا ثمرة.

ومن ورّك حال المسلمين اليوم وقبل اليوم؛ فإنهم، وإن حملوا القرآن، وحفظوه غيباً، وحسّنوا خطّه ونقشّه، وزخرفوه بأنواع الزخارف والنقوش، ولكنهم عن معانيه غافلون، وعن تدبر ما فيه فارغون، وعن الاعتقاد والعمل بما فيه بعيدون.

(١) المائدة: ٦٨.

فصل

اعلم أن الأمة إذا تركت العمل بكتابتها المنزل من ربها اعتقاداً وعملاً؛ قست قلوبها، فصارت ملعونة؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ الآية^(١)، «ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة» الآية^(٢)، ونقض الميثاق يدنس النفوس، ويُفسد الفطرة، ويُفسد القلوب، فلا تؤثر فيها الحجة والموعظة، فيسبب ترك العمل بالكتاب يقع التفريق في الدين، وتحدث العداوات والبغضاء.

والمسلمون منذ تركوا التدبر في كلام ربهم، وأهملوا العمل به حتى العمل، وكذا تركوا العمل بسنة رسول الله ﷺ إلا ما وافقت هواهم وشهواتهم؛ تفرقت الآراء، وتعددت المذاهب والطرق، وحدثت الشكوك والكفرات والبدع والضلالات، فعادى بعضهم بعضاً، فتباغضوا وتدابروا وتقاتلوا إلى أن

(١) المائدة: ١٣.

(٢) المائدة: ١٤.

والعبرة للمسلم في هذه الآية أن يعلم أن المسلمين لا يكونون على شيء يعتد به من أمر الدين حتى يقيموا القرآن وما أنزل إليهم من ربهم فيه، ويبتدوا بهدايته، فحجة الله تعالى على جميع عباده واحدة، فإذا كان الله تعالى لا يقبل من أهل الكتاب قبلنا تلك التقاليد التي صدت عنهم عما عندهم من وحي الله تعالى على ما كان طراً عليه من التحريف بالزيادة والنقصان؛ فإن لا يقبل منا مثل ذلك مع حفظه لكتابنا أولى، والناس عن هذا غافلون، وبالاتساب إلى المذاهب واطنون، ويهدي أئمة الدين لا يقتدون، وإلى حكمة الدين ومقاصده لا ينظرون، «ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون»^(٣).

وأفاد الله تعالى أن الانتساب إلى الدين لا يفيد في الآخرة إلا بإقامة كتاب الدين.

●●●●●

(١) المجادلة: ١٨.

صاروا طعمةً لتعابين الإفرنج والروس والبطليان والبلاشفة والأمريكان وهم لا يشعرون، ومن سكرتهم لا يُعيقون، وعن غيهم لا يرجعون؛ فإننا لله وإنا إليه راجعون.

فيا أيها المسلمون! لا تغفروا بمجرد تلاوة القرآن بلا فهم معناه والعمل بمقتضاه، وأنتم إنما تقيمون الحجة على أنفسكم؛ كما أخبر النبي ﷺ: «القرآن حجة لك أو عليك» رواه مسلم^(١)، وكما قال النبي ﷺ: «وَبِئْسَ ثَلٌّ لِلْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ يُلْعَنُ»^(٢).

فحيث ترك المسلمون العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؛ تركهم الله تعالى، بحيث تسلطت عليهم الكفار، واستولت على أوطانهم الفجار، فحكمت عليهم بما شاءت من قانون جبار، وأدلتهم تذليل الخمار للحمار، وهذا هو جزاؤهم في هذه الدار، وأما جزاء إعراضهم عن العمل بالقرآن واتخاذهم الأرباب من دون الله من الأحيار والرهبان، واتخاذهم القبور وأصحابها معبوداً كالأوثان، واستغاثتهم بالأرواح، وتذويهم للجن والشيطان، وتباعدتهم وتدابيرهم لأهل التوحيد والإيمان، وتركهم الجهاد في سبيل الله، وموالاةهم لأهل الخذلان؛ فهو تعالى العليمُ الخبيرُ، يجازيهم يوم الدين بالعدل، وهو جلُّ جلاله قد أخبر أن جزاء المشركين والكفار النيران، فنعوذ بالله منهما ومن شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ومن شر شياطين الإنس والجان.

(١) برقم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري، وهو قطعة منه.

(٢) لا أصل له في المرفوع.

فانظر تعليقي على «الفتاوى المهمة».

فصل

في ذكر الأحاديث النبوية الواردة الثابتة في الصحاح والسُنن والمسائيد المعتمدة في لزوم فهم معنى الكتاب والسنة والعمل بموجبهما

وذلك أن - تعالى أمر رسوله محمداً ﷺ ببيان ما أنزله الله تعالى إلى الناس، فقال جلُّ جلاله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية^(١)، وهو صلى الله عليه وسلم بين بياناً واضحاً، فالأحاديث النبوية كلها - قولية كانت أو فعلية - بيان لما في القرآن، وتفسير له كما لا يخفى.

الحديث الأول: ما رواه الإمام ابن ماجه في «سننه»، والإمام البيهقي في «شعب الإيمان»؛ عن أنس رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «وَلَبَّ الْعِلْمُ فَرِيضَةً عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَوَضَعَ الْعِلْمُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمَقْلَدٍ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ»^(٢).

(١) التحل: ٤٤.

(٢) الحديث بهذا التمام موضوع؛ كما تراه مبيناً في تعليقي على «جزء حديث طلب

ولا شك أن العلم المفروض طلبه إنما هو علم التوحيد، والحلال والحرام، وهو المبين في الكتاب والسنة لا غير.

فإذاً؛ يجب على كل إنسان مسلم معرفة معاني القرآن والحديث، وخصوصاً ما يتعلق بالتوحيد، ثم الحلال والحرام، ولا يُعذر أحد بتركه والجهل به، وهو فرض عين بلا خلاف، وكذا علم ما يحتاج إليه الإنسان في حياته ومعاشه، فمن ذلك الصنائع الضرورية، ومعرفة لغة العرب، وإعداد آلات الجهاد والدفاع، وحفظ دار الإسلام.

وفي رواية ابن عبد البر: «طلب العلم فريضة على كل مسلم».

وفي «مسند الفردوس»^(١): «طلب العلم أفضل عند الله من الصلاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «طلب العلم ساعة خير من قيام ليلة»^(٢) الحديث.

العلم» (رقم ١)، وأما زيادة: «... ومسلمة...» فيه؛ فلا أصل لها؛ كما نبه عليه غير واحد من أهل العلم فيما نقلته عنهم في مقدمة الجزء المذكور (ص ٧ - ٨).

وقد سبق (ص ٢٠) بيان حسن طلب العلم فريضة على كل مسلم.

(١) أورده السيوطي في «جمع الجوامع» (٢٨٦٥٥ - ترتيبه)، وعزاه للطبراني وابن عبد البر!

ولم أجده عندهما، ولم أر أحداً عزاه إليهما؛ إلا أن يكون وهماً أو غلطاً طباعياً! ثم رأيت عزاه في «الجامع الصغير» (٣٦٢٣ - ضعيفه) إلى «مسند الفردوس» حسب! وقد وقعت على سنده في «أمالي الشجري» (١ / ٦٠)، وفي تصحيقات، وفي سنده وشاع!

(٢) أورده السيوطي في «جمع الجوامع» (٢٨٦٥٦)، وعزاه لـ «الفردوس»!

ولا شك أن هذا المفروض إنما هو علم الدين؛ من التوحيد، ومعرفة رب العالمين بصفاته جل جلاله، والحلال والحرام، والجهاد، وما تنوَّفت عليه الحياة الإنسانية دنيوية وأخروية.

والتكامل بهذه العلوم كلها إنما هو القرآن والحديث النبوي، وأما الاشتغال بالفلسفة والأشعار؛ فمزعجلات وتزهات، وكذا ما يدعيه أكثر متصوفة الزمان كما لا يخفى.

الحديث الثاني: ما رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلَّمُوا الفرائض والقرآن وعلموها الناس؛ فإنني مقبوض»^(١).

والفرائض: جمع فريضة، وهي كل ما أوجبه الله تعالى على عباده؛ من علم التوحيد وكل ما يتعلق بالدين، وتعلموا القرآن، وافهموا معناه، وعلموه الناس، ولا شك أن العلم مقدم على العمل؛ لأنه تعالى يقول: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٢).

قال التوريشي: «الظاهر أن المراد ما افترضه الله تعالى على عباده؛ كأنه

= وأورده ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١ / ٢٧٨)، وزاد نسبه لأبي الشيخ، وقال: «وفيه نهش بن سعيد».

قلت: وهو متروك منهم!

(١) أخرجه: الحاكم (٤ / ٣٣٣)، والترمذي (٢٠٩٢)، والبيهقي (٦ / ٢٠٨)، والدارقطني (٤ / ٦٧).

وفيه ضعف واضطراب؛ كما شرحه شيخنا في «الإرواء» (١٦٦٤).

(٢) محمد: ٢٩.

قَالَ: تَعْلَمُوا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ... إلخ.

وَذَكَرَ الْجَلَالَ السَّيُوطِيُّ فِي «الْجَامِعِ الصَّغِيرِ»^(١) مَا يُؤَيِّدُ هَذَا، وَهُوَ: «تَعْلَمُوا مَنَاسِكَكُمْ؛ فَإِنَّهَا مِنْ دِينِكُمْ»^(٢)، وَ«تَحَذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»^(٣)، وَ«صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصْلِي»^(٤).

فَتَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ الْحُجِّ وَالصَّلَاةِ وَصِفَاتِهَا مِنَ الْفُرُوضِ الْعَيْنِيَّةِ عَلَى كُلِّ مَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْحُجُّ وَعَلَى كُلِّ مَنْ وَجِبَتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ.

الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ: مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعْلَمُوا الْقُرْآنَ وَافْرُزُوهُ...» الْحَدِيثُ.

(١) برقم (٣٣٧).

(٢) رَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرَ (٨ / ق ٨٧٢ - مَصُونِي) مِنْ طَرِيقِ عِبَادَةَ بْنِ نُسَيْبٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ.

وَعِبَادَةُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَقْطُوعٌ؛ كَمَا فِي «جَامِعِ التَّحْصِيلِ» (٢٨٦).

وَسَكَتَ عَنْهُ الشَّوَارِبِيُّ فِي «الْفَيْضِ» (٣ / ٢٥٣)!

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٢٩٧) عَنْ جَابِرٍ.

(٤) سَبَقَ تَخْرِيجُهُ.

(٥) رَوَاهُ: التِّرْمِذِيُّ (٢٨٧٩)، وَابْنُ مَاجَةَ (٣١٧)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «الْكَبَرِيِّ» - كَمَا فِي

«التَّحْفَةِ» (١٠ / ٢٨٠) -، وَابْنُ خُزَيْمَةَ (١٥٠٩)، وَابْنُ حِبَانَ (٨٧٩ - مَوَارِدُ): مِنْ طَرِيقِ عَطَاءِ مَوْلَى أَبِي أَحْمَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

وَعَطَاءُ هَذَا مَجْهُولٌ.

وَقَدْ أَعْبَلْ أَيْضاً بِالْإِسْرَالِ.

وَرَوَى أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»^(١) عَنْ عَقِبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعْلَمُوا كِتَابَ اللَّهِ، وَتَعَاهَدُوا، وَتَعْتَنُوا بِهِ».

أَيُّ: أَحْفَظُوا الْقُرْآنَ وَتَفْهَمُوا وَاقْتَنُوا وَالزَّمُوا؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْقُرْآنِ فَهْمُهُ وَالْعَمَلُ بِمَوْجِبِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَثُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ، وَأَنْ تَقُولُوا بِلَا دَلِيلٍ: هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ؛ لِنَفْتَرَا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ.

وَالْعَمَلُ بِمَا عَلِمَ فَاسِدٌ، كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ بِمَا عَمِلَ بَاطِلٌ، بَلْ حُجَّةٌ عَلَى صَاحِبِهِ، وَخِزْيٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ وَلِأَنَّ الْعِلْمَ كَالشَّجَرَةِ، وَالْعَمَلُ بِهِ كَالثَّمَرَةِ، فَإِذَا كَانَتِ الشَّجَرَةُ لَا ثَمَرَةً لَهَا؛ فَلَا فَائِدَةَ فِيهَا؛ وَإِنْ كَانَتْ حَسَنَةً الْمَنْظَرِ.

الْحَدِيثُ الرَّابِعُ: مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَالدَّارِمِيُّ^(٢) عَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ وَأَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالََا: قَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا هَائِلًا، فَقَالَ:

(١) (٤ / ١٤٦).

وَرَوَاهُ: الدَّارِمِيُّ (٢ / ٤٣٩)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (١٠ / ٤٧٧)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» (٥٩)، وَالتَّطَبُّرِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (١٧ / رَقْم ٨٠١)؛ مِنْ طَرِيقِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ رِيَّاحٍ عَنْ عَقِبَةَ بْنِ عَامِرٍ.

وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ.

(٢) رَوَاهُ: أَحْمَدُ (٤ / ٢١٨)، وَابْنُ مَاجَةَ (٤٠٤٨)، وَالحَاكِمُ (١ / ٩٩)، وَأَبُو خَيْثَمَةَ فِي «الْعِلْمِ» (٢٣)؛ عَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ.

وَفِي سَنَدِهِ انْقِطَاعٌ.

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٦٥٥) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ.

وَرَوَاهُ الدَّارِمِيُّ (١ / ٧٧) عَنْ أَبِي أَمَامَةَ.

فَالْحَدِيثُ بِهَذِهِ الشُّوَاهِدِ صَحِيحٌ، وَأَنْظُرِ التَّعْلِيلَ عَلَى «الْمَشْكَاةِ» (رَقْم ٢٤٥).

«ذلك عند أوإن ذهاب العلم». قلت: يا رسول الله! كيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، ونقرئه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «مكثتكم أملك زياد! إن كنت لأراك من أفقه رجل في المدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا يعملون بشيء مما فيهما؟!».

قال عليّ القاري في «مقاواة المفاتيح»^(١): «أي: فكما لم تُقدّم قراءتهما مع عدم العلم والعمل؛ فكذلك أنتم، والجملة حال من «يقرؤون»؛ أي: يقرؤون غير عالين بمعناهما، ولا عابدين بموجبهما، ففيه تنزيل العالم الذي لا يعمل بعلمه منزلة الجاهل، بل منزلة الحمار الذي يحمل أسفارا، بل أولئك كالأنعام، بل هم أضل».

الحديث الخامس: ما رواه البيهقي في «شعب الإيمان»^(٢) والخطيب في «المشكاة»^(٣) عن عليّ رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه، مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدى، علماؤهم شر من تحت أديم

(١) (١ / ٢٤٦).

(٢) برقم (١٧٦٣)، وفي سنده ضعف وانقطاع.

وله طريق أخرى عنده (١٧٦٤)، وعند ابن عدي في «الكامل» (٤ / ١٥٤٣).

وفي سنده بشر بن الوليد؛ ضعيف، وانظر ما سبق (ص ٩١).

(٣) برقم (٢٧٦).

وعزو المصنف له غير علمي، إذ الخطيب - وهو التبريزي - لا يُسند الأحاديث في «مشكاته»، فلا يُقال لما أورده فيه: «رواه» فتنبه.

السماء، من عندهم تخرج الفتنة وفيهم عمود».

أي: لا يبقى من علوم القرآن وآدابه إلا أثره الظاهري؛ من قراءة لفظه، وكتابة خطه بطريق الرسم والعادة، لا على جهة تحصيل العلم والعمل والعبادة، فالقراء إنما يراعون التجويد وحفظ مخارج الحروف وتحسين الألحان فيه؛ دون التفكير في معانيه، والامتنان بأوامره، والانتباه عن نواهيه، وأكثر الناس ساهون عن الصلاة، هم يراؤون ويمنعون الماعون.

قال الإمام البخاري في «جامعه الصحيح»^(١): (العلم قبل القول والعمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٢)، ﴿وَمَا يَتَّقِهَا إِلَّا الْغَالِبُونَ﴾^(٣)، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٤)، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ يَرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا؛ يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ»^(٥)؛ أي: يفهمه، والمراد به علم الدين وما جاء به محمد ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال والأخلاق، و«إنما العلم بالتعلم»^(٦).

وروى الطبراني^(٧) عن معاوية رضي الله عنه مرفوعاً: «يا أيها الناس!

(١) (١ / ١٥٩) كتاب العلم.

(٢) محمد: ١٩.

(٣) المتكوت: ٤٣.

(٤) الملوك: ١٠.

(٥) رواه: البخاري (٦ / ١٥٢)، ومسلم (١٠٣٧)؛ عن معاوية.

(٦) في «المعجم الكبير» (١٩ / ٣٩٥).

قال في «المجمع» (١ / ١٢٨): «وفيه رجل لم يسم، وعنه بن أبي حكيم وثقه أبو حاتم وأبو زرعة وابن حبان، وصنّفه جماعة».

تعلّموا؛ إنما العلم بالتعلّم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

أي: لا يحصل العلم المعتد به النافع إلا المأخوذ عن الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات على سبيل التعلّم والتعليم؛ لا بالكشف والإلهام، أو الخيال والمنام، ولا بالفلسفة والسفسطة، ولا بالمنطق والشمسية وحكمة العين والشفاء والإشارات؛ كما يدعيه كثير ممن غرق في ردة الفلسفة أو سفاست الصوفية.

قال العلامة العيني في «عمدة القاري»^(١): «لا شك أن من أراد شيئاً؛ تعلّم علم ذلك الشيء، ثم يعمل به، فالعلم مقدّم على العمل بالذات، كما أنه لا عمل إلا بالنية، ولا توجد النية إلا بالعلم؛ لأن النية إنما هي قصد فعل الشيء بعد العلم به كما لا يخفى. وأفادت الآية الكريمة أن التوحيد ممّا يجب العلم به، ولا يجوز فيه التقليد، فإذا لا بد لكل طالب نجاة وسعادة من طلب علم الكتاب والسنة، وهذا لا يحصل إلا بتعلّم لغة الكتاب والسنة، فيجب على كل البشر عموماً والمسلمين خصوصاً تعلّم معنى الكتاب والسنة، ومعرفة ما معرفة صحيحة كما لا يخفى».

وللحديث طرق أخرى وشواهد، فانظر: «تليق التعليق» (٢ / ٧٨)، و«مجمع الزوائد» (١ / ١٧٨)، و«العلل المتناهية» (١ / ٧٦)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٤٢)، و«المدخل» (٣٨٥) للبيهقي.
(١) (٢ / ٣٩).

الحديث السادس: ما روى البخاري ومسلم وأصحاب السنن^(١) عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمساً لم يُعطهن أحد قبلي... (فذكر منها:) وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة ويُبعث إلى الناس عامة».

أي: العرب والعجم، والأسود والأحمر؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾^(٢)، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾^(٣).

فالواجب على المرسل إليهم معرفة كلام رسول الله إليهم، وإلا فلا يحصل من الإرسال شيء.

فيا أخي المسلم! إن كل عاقل يعرف أن رعاية الحكومات بتثيرون بتعلّم لغات حكوماتهم، ويعلمون أولادهم إياها؛ لما يعلمون أنهم يتفهمون بها في معاشهم ومعاملاتهم وحياتهم الدنيوية، وكذا يحصلون بها بعض المناصب العالية والدرجات السامية في هذه الحياة القصيرة الفانية، فإذا كان الأمر هكذا؛ أليس الأثر الواجب الأنفع عاجلاً وأجلاً تعلّم كلام رب العالمين تعلّم تاماً حتى يعرفوا مقاصد ربهم الحكيم ومراضة مولاهم الرؤوف الرحيم، فيعملوا به؛ لينالوا العز والشرف في الدنيا والآخرة، ويفوزوا بدولة الرضى والرضوان

(١) رواه: البخاري (١ / ٣٦٩)، ومسلم (٥٢١)، والنسائي (١ / ٢١٠)، والدارمي (١ / ٣٢٢ - ٣٢٣)، والبيهقي (١ / ٢١٢)؛ عن جابر.

وروى نحوه: البخاري (٦ / ٩٠)، ومسلم (٥٢٣)، والترمذي (١٥٥٣)، والنسائي (٣ / ٦)؛ عن أبي هريرة.

(٢) سبأ: ٢٨.

(٣) الأعراف: ٥٨.

والرحمة في دار النعيم، والخلود الدائم أبداً الأبدين؟

فانتبهوا يا أيها المفتونون والمغرورون؛ إما بزخارف الدنيا الفانية، وإما بدجل الدجالين ووساوس الشياطين.

اللهم نود بصرتنا وبصيرتنا، واهدنا صراطك المستقيم، آمين يا مجيب السائلين.

الحديث السابع: حديث جبريل الذي رواه الشيخان وأصحاب السنن^(١) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، ففيه آخراً: قال رسول الله ﷺ: «فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم».

فاعلم أن رسول الله ﷺ قال: «يعلمكم دينكم»، ولم يقل: يروي لكم دينكم؛ ليفيد بذلك أن المقصود العلم والفهم؛ كما أن الإيمان التصديق، وهو لا يحصل إلا بالعلم بالمؤمن به، فإذا؛ يجب العلم على كل مؤمن ومسلم، فلا يصح إيمانه ولا إسلامه إلا بالعلم؛ علم ما جاء به رسول الله ﷺ، فنتبه.

الحديث الثامن: ما رواه ابن الأنباري في كتاب «الوقف»^(٢) والسيوطي في (١) أخرجه: البخاري (٥٠ و ٤٧٧)، ومسلم (٩)، وابن ماجه (٦٤)، والنسائي (٨ / ١٠١)، وأحمد (٢ / ٤٢٦)؛ عن أبي هريرة. وأما ما ذكره المصنف عن عمر؛ فأخرجه: مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، وابن ماجه (٦٣)، والنسائي (٨ / ٩٧ و ١٠١)، وأحمد (١ / ٢٨ و ٥١ و ٥٢)، ولم يخرج به البخاري. (٢) (١ / ٢٥ - طبع الشام).

٣٣٤

«الجامع الصغير»^(١) عن أبي جعفر الأنصاري^(٢) رضي الله عنه: أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعربوا الكلام كي تُعربوا القرآن».

وروى الحافظ ابن كثير في «فضائل القرآن»^(٣)؛ قال الحافظ أبو يعلى^(٤) بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعربوا القرآن، والتبسوا غرائب».

وحيث إنه يجب معرفة معاني القرآن، وذلك موقوف على معرفة لغة العرب معرفة كاملة؛ لأن ما يتوقف عليه الواجب واجب كما لا يخفى.

والعبد الضعيف قد بيئت هذا الأمر في (رقم ٩٥٥) من كتابي «حبل الشرع المتين»، فعليك به.

= وأخرجه أبو عبيد في «غريب الحديث» (٩٩ / ١) معضلاً عن أبي جعفر. وفيه ضعيفان ومدلس ومجهول. وقد حكم عليه شيخنا في «الضعيفة» (١٣٤٧) بأنه منكر. (١) برقم (٩٣٧ - ضعيف)، ويقال أيضاً: «ذكره»، لا «رواه»! (٢) ليس هو الأنصاري؛ كما رجّح شيخنا في «الضعيفة» (٣ / ٥٢٤). (٣) (ص ٢٤). (٤) برقم (٦٥٦٠). ورواه: ابن أبي شبة (١٠ / ٢٥٦)، والحاكم (٢ / ٢٣٩)، والخطيب في «التاريخ» (٨ / ٧٧)؛ عن عبد الله بن سعيد المقرئ عن جده - وبعضهم قال: عن أبيه - عن أبي هريرة. وعبد الله متروك. وبه أهله: الذهبي في «تلخيص المستدرک»، والهيتمي في «المجمع» (٧ / ١٦٣)، والبوصيري - كما في حاشية «المطالب العالية» (٣ / ٢٩٨) -، وغيرهم.

٣٣٥

الحديث التاسع: ما رواه في «شرح السنة»^(١) والنووي في «أربعينه»^(٢) عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

فإذا؛ لا بد لكل من يريد أن يكون مؤمناً بالله ورسوله ويتألم ما وعد الله ورسوله المؤمنين أن يعلم كل ما جاء به محمد رسول الله ﷺ من الدين والشرع، وأما من لم يعلم ذلك؛ فكيف يتبعه؟ وإنما يتبع هذا الرجل من يظنه إماماً أو يعتقد عالماً؛ من غير معرفة دليل ذلك الغير، ومن كان حاله هكذا؛ فهو قد اتخذ ذلك الغير أرباباً من دون الله؛ كما هو شأن كثير من مقلدي المذاهب وأصحاب الطرق، فتنبه.

الحديث العاشر: ما رواه زَيْنُ والخطيب في «المشكاة»^(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: «من تعلم كتاب الله، ثم أتبع ما فيه؛ هداه الله

(١) رقم (١٠٤).

(٢) برقم (٤١)، والنووي ذكره ولم يروه!

وهو حديث معلول، انظر تخريجه ونقده في تعليقي على رسالة «دم الهوى واتباعه» (ص ٨ - ٩) لابن القيم، طبع المكتبة الإسلامية، عمان.

(٣) أورده ابن الأثير في «جامع الأصول» (١ / ٢٩٢) دون عزو لأحد! وكذا سكت عليه محققه!

وهو - يمين - من زيادات رزين! كما صرح به التبريزي في «المشكاة» (رقم ١٩٠).

وقد قال الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص ٤٩) عن كتابه: «... ولقد أدخل في كتابه الذي جمع فيه بين دواوين الإسلام بلايا وموضوعات لا تُعرف، ولا يُدرى من أين جاء بها، وذلك خيانة للمسلمين».

من الضلالة في الدنيا، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب».

وفي رواية^(١)؛ قال: «من اقتدى بكتاب الله؛ لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة»، ثم تلا هذه الآية: «فَمَنْ أَتَّبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى»^(٢).

ويؤيده ما رواه مالك في «موطئه»^(٣) مرسلًا عن أنس رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله».

فأفاد رضي الله عنه أن تعلم كتاب الله وفهم معناه مقدم على الاتباع؛ لأن الاتباع موقوف على معرفة ما يتبعه، فهذا يوجب على كل مسلم تعلم كتاب الله وسنة رسوله ومعرفة معناه.

ولكن الأسف أن عامة المسلمين تركوا تعلم كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ، والذين تعلموا القرآن أو حفظوه؛ فإنما تعلموا قراءته فقط، وحفظوا حرفه وألفاظه؛ من غير معرفة معناه، فحيث إنهم جاهلون بالمعنى تراهم قد خالفوه اعتقاداً وعملاً، فصار القرآن حجة عليهم؛ كما لا يخفى على كل من له عقل أو ألقى السمع وهو شهيد، ويقولون: «الحمد لله رب العالمين»، ثم

(١) تابع لما قبله.

(٢) طه: ١٢٣.

(٣) (٢ / ٨٩٩).

وهو عن مالك بلاغاً، وليس فيه ذكر أنس!!

وانظر له «تجريد التنبيه» (ص ٢٥١) لابن عبد البر.

ولكن له طرقاً أخرى تحسنه، فانظرها في «أربعي الدعوة والدعاة» (رقم ٧) بغلمي.

يقولون: إِنَّ الْأَرْوَاحَ تُرْبِي، ويقولون: ﴿إِنَّكَ نَعِيدٌ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١) ثم يركعون ويسجدون لأكابريهم عند الملاقاة، ويتَّكِرُونَ لِلرُّوحَانِيَّاتِ وَأَهْلِ الْقُبُورِ، بل الجنُّ والشَّيْطَانِ، ويستعينون بأهل القبور، ويستمدون من الأرواح - أرواح مشايخهم - وعبدالقادر الجيلاني، أليس هؤلاء قد خالفوا ما قرؤوا؛ لأنهم جاهلون بمعنى ما تَلَّوْا، ومحرومون من الانتفاع بكلام ربِّ العالمين، ويعيدون عن سنة سيد المرسلين؟! فلهذا تراهم قد ضَلُّوا وأضَلُّوا، وإن ادَّعَوْا أَنَّهُمْ مسلمون، ولكنَّ إسلامهم لفظي فقط، أو إسلامٌ جغرافي، فتدبَّر.

الحديث الحادي عشر: ما رواه الشيخان^(٢) عن معاوية رضي الله عنه؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا، يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ، وَاللَّهُ يُعْطِي».

وروى مسلم^(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فُتِّهُوا».

وروى مسلم^(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ عَنْهُ، إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ عِلْمٌ يَنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ».

(١) الفاتحة: ٥.

(٢) سبق تخريجه (ص ٣٣١).

(٣) برقم (٢٦٣٨)، ورواه البخاري (٦ / ٧٦) ضمن حديث.

(٤) برقم (١٦٣١).

٣٣٨

فهذه الأحاديث الثلاثة صريحة في أَنَّ الْخَيْرَ كُلَّ الْخَيْرِ، والسَّعَادَةُ كُلُّ السَّعَادَةِ، والشَّرَفُ كُلُّ الشَّرَفِ؛ فِي التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ.

وفقهُ الدين وعلمهُ إِنَّمَا يُؤْخَذُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَا اعتِزَّازٌ هُنَا لِلرَّأْيِ وَالْهَوَى وَالتَّفَلُّسِ؛ لِأَنَّ الدِّينَ مَا يُدَانُ بِهِ فِي يَوْمِ الدِّينِ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا عِنْدَ اللَّهِ، فَلَا يُعْرَفُ إِلَّا بِإِخْيَارِ اللَّهِ تَعَالَى؛ إِمَّا فِي كِتَابِهِ الْقُرْآنَ، أَوْ بِإِذْنِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَلَا مَدْخَلَ لِلْعَقْلِ وَالْقِيَاسِ هُنَاكَ، وَأَهْلُ الضَّلَالِ مَا ضَلُّوا إِلَّا بِقِيَاسِهِمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ بِالْمَخْلُوقِينَ^(١)، فقياسوا الله بالملوك، وقياسوا عالم البرزخ بهذا العالم، وقاسوا الغائب بالشاهد، فضلُّوا وأضَلُّوا، فاستحقُّوا غضبَ الله تعالى، وصاروا مِنَ الْمَحْرُومِينَ، فتدبَّر.

الحديث الثاني عشر: ما رواه البخاري^(٢) عن أنس رضي الله عنه؛ قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تَفْقَهُمْ عَنْهُ، وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا».

فقد ظهر من هذا الحديث أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْكَلَامِ إِنَّمَا هُوَ الْفَهْمُ وَالْإِفْهَامُ، فالواجب على كُلِّ مَكَلِّفٍ الْفَهْمُ وَالْإِفْهَامُ، ولأجل تعليم العباد أنزل الله القرآن، فمن لم يفهم؛ فليس من بني الإنسان، بل هو حيوان في صورة إنسان.

(١) قارن بكتاب «النوسل» (ص ١٣٢ - ١٣٦) لشيخنا الألباني (٢) برقم (٩٥).

٣٣٩

الحديث الثالث عشر: ما رواه الترمذي^(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابده».

لأن الفقيه لا يقبل إغواءه، ويأمر الناس بالخير والترحيد والاعتماد على الله وحده والعمل بكتابه وأتباع سنة نبيه، ويصونهم عن إغوائه؛ ببيان الصراط المستقيم، وإيضاح صراط أهل الجحيم؛ من دعاء غير الله أيًا كان، وعبادة غير الله أيًا كان، والاعتماد على غير الله أيًا كان، وتقليد غير المصومين في الدين، والشك في الله وعلى الرسول بالظن والتخمين.

ولا يخفك أن إمام الفقهاء على الإطلاق إنما هو سيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ، ثم بعده أبو بكر الصديق، ثم بعده عمر الفاروق رضي الله عنهما، الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب! والذي نفسي بيده؛ ما لقيك الشيطان سالكاً فحاً قط؛ إلا سلكت فحاً غير فحك»^(٢)، وهو الذي قال حينما حج وأراد طواف البيت حينما وصل إلى الحجر الأسود: «إني أعلم أنك حجر لا تضر

(١) رواه: الترمذي (٢٦٨١)، وابن ماجه (٢٢٢)، والطبراني (١١ / ٧٨)، وابن الجوزي في «الرايات» (١٩٢)، وابن حبان في «المجروحين» (١ / ٢٩٨)، وابن عبد البر في «العلم» (١ / ٢٦)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١ / ٢٤).

وفي سننه روح بن جراح؛ منهم. وله طريق أخرى عند: الخطيب في «تاريخه» (٢ / ٤٠٢)، وابن الجوزي (١٩٤)، وابن عبد البر (١ / ٢٦).

وفيه يزيد بن عباس، وهو كذاب.

(٢) رواه: البخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٣٩٦)؛ عن سعد بن أبي وقاص.

ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبلك؛ ما قبلك»^(٣)، فقبل اقتداء بالنبي ﷺ، وأتباعاً له، وهو الذي أمر بقطع شجرة الرضوان^(٤) التي كانت في الحديبية، وذكرها الله تعالى في كتابه، وقد جلس النبي ﷺ تحتها، وأخذ البيعة من أصحابه هناك، وإنما قطعها حينما رأى الناس يبحون عنها ليتبركوا بها، وهذا هو الفقيه الذي هو أشد على الشيطان من ألف عابده.

ثم من الفقهاء عبد الله بن مسعود، وعثمان، وعلي، وحذيفة، وسائر الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، ثم تابعوهم بإحسان، ومن هذه الأمة الإمام شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، وابن قيم الجوزية، ومحمد بن عبد الوهاب النجدية، وأمثالهم ممن أنعم الله تعالى عليهم بالعلم النافع والعمل الصالح، جعلنا الله تعالى منهم، وحشرنا في زميرتهم، فهؤلاء هم فقهاء ملّة الإسلام، وهذه الأنام، وهم وإن كانوا قليلين عدداً، ولكنهم كثيرون درجة ورفعة عند الله تعالى.

وأما غيرهم من أدعياء العلم والدين والزهد والتقوى؛ فهم وإن سودوا الدفائر وألفوا الأساطير وصنفوا الكتب، ولكنهم مخلطون، ولعقيدة الأنام مخربون، قد ملؤوا الدنيا بالخرافات، وأفسدوا العقول بالثرهات والخيالات، ولقيوها بالتصوف، وزينوها بالتفلسف، فصارت التقى عندهم من يدعو غير الله، ويعبد من دون الله، وينتدر لغير الله، ويرجو غير الله، ويخاف غير الله؛ مسمياً

(١) رواه: البخاري (١٦١٠)، ومسلم (١٢٧٠)؛ عنه.

(٢) انظر تعليقي على «الحوادث والبدع» (ص ٣٨) للإمام الطرطوشي، طبع دار ابن الجوزي، الدمام.

إِيَّاهُ بِالْأَقْطَابِ وَالْأَبْدَالِ وَالْجَبَابِ وَالْأَوْتَادِ وَرِجَالِ الْغَيْبِ، فَبِذَلِكَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ شِرْكًا أَكْبَرَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَقَدْ لَعِبَتْ بِهِمُ الشَّيَاطِينُ وَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ، وَقَدْ حَصَلَ إِسْلَاسٌ مَقْصِدُهُ مِنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا غَوْثُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ^(١)، وَلَكِنْ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الشُّكُورُ الْمُخْلَصُونَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الْمُخْلَصِينَ وَالْمُوحِدِينَ الشَّاكِرِينَ.

كُلُّ جَمْعٍ تَجَمُّعُوا وَيَنْفَقِصِي تَحَدَّثُوا
لَا أُنَالِي بِجَمْعِهِمْ كُلُّ جَمْعٍ مُؤَنَّثٌ

* أَوْلَسْكَ آيَاتِي فَجَنَّبَنِي بِمِثْلِهَا
إِذَا جَمَعْتُنَا يَا عُسُودَ الْمَبَاحِثِ

* وَهَذَنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفِي بِهِمْ
وَطَوَّلَ اخْتِبَارِي صَاحِبًا بَعْدَ صَاحِبٍ
فَلَمْ تُرْنِي الْيَوْمَ خِلًا يُسْرَنِي
مَبَادِيهِ إِلَّا سَاءَنِي فِي الْعَوَاقِبِ

* لِقَاءَ النَّاسِ لَيْسَ يُغَيِّرُ شَيْئًا
يُؤَيِّ هَلْهَلَّيَانِ مِنْ قَبْلِ وَقَالِ
فَقَلَّلَ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إِلَّا
لَاخِذَ الْعِلْمِ أَوْ إِصْلَاحِ خَالِ
وَيَحْلُلَانِ السُّرْمَانَ بِكُلِّ خَالِ
جَوَابِيْسِ الْعُيُوبِ بِكُلِّ خَالِ

•••••

(١) مَن: ٨٢

٣٤٢

فصل

فِي أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي لَزُومِ فَهْمِ مَعَانِي الْقُرْآنِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ أَيِّ جَنَسٍ كَانَ عَرَبًا أَوْ عَجَمًا شَرْقِيًّا أَوْ غَرْبِيًّا وَلَا يُسْتَنَى مِنْهُ إِلَّا الصَّبِيُّ الْغَيْرُ الْبَالِغُ وَالْمَجْنُونُ الَّذِي لَا يَعْقِلُ أَصْلًا؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِمَا الْخُطَابُ، وَلَا فَرْقُ بَيْنَ الذَّكْرِ وَالْأُنْثَى

وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ مُحَمَّدُ صَالِحُ الْفُلَانِيُّ الْمَتَوَفَّى عَامَ ١٢١٨ هـ فِي كِتَابِهِ «إِقْبَاطُ هَمَمٍ أُولَى الْإِبْصَارِ»^(١) (ص ٨٠) مَا نَصَّهُ:

«قَالَ حَافِظُ الْمَغْرِبِ أَبُو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ^(٢): طَلَبَ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ، فَأَوَّلُ الْعِلْمِ: حَفَظُ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفَقَهُهُ، وَكُلُّ مَا يَحِينُ عَلَى فَهْمِهِ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ، ثُمَّ النَّظَرُ فِي السُّنَنِ الْمَأْثُورَةِ الثَّابِتَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَبِهَا يُصَلُّ الطَّلَابُ إِلَى فَهْمِ مَرَادِ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، وَكَانَ عَمْرُ بْنُ الْجُطَابِ رَضِيَ اللَّهُ

(١) وَهُوَ مِنَ الْكُتُبِ النَّافِعَةِ جَدًّا، رَحِمَ اللَّهُ مُؤَلَّفَهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً.

(٢) فِي «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ» (٢ / ٣٤).

عنه يكتسب إلى الأفاق أن يتلغوا السنة والفرائض واللحن^(١)؛ يعني النحو؛ كما يتعلم القرآن.

وعن أبي عثمان؛ قال: كان في كتاب عمر رضي الله عنه: تعلموا العربية، فتقهموا في السنة.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: من حفظ القرآن؛ عظمت قيمته، ومن طلب الفقه؛ تلب قدره، ومن كتب الحديث؛ قويت حجته، ومن نظر في النحو؛ رقى طبعه، ومن لم يصن نفسه؛ لم يصنه العلم، ومن عارض السنن برأيه؛ فهو ضال ومضل^(٢).

واعلم أن القرآن والسنن هما الأصل والمعيار والميزان، وليس الرأي والقياس معياراً على الكتاب والسنة، ومن جهل الأصل لم يصب الفرع أصلاً.

وروي في «جواهر الأدب» أنه روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: «اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما ينلوه لساني من كتابك، والفهم له، والمعرفة بمعانيه، والنظر في عجائبه، والعمل بذلك ما بقيت؛ إنك على كل شيء قدير».

قال الحافظ ابن الجوزي في كتابه «تلبس إبليس»^(٣): «إن من تلبس إبليس أنه قد شغل القراءة بتحسين القراءة والاشتغال بالشاذ طول عمرهم، مع

(١) «المدخل» (٣٧٦) للبيهقي.

(٢) أخرجه: الخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١ / ٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩ / ١٢٣).

(٣) انظر: «المنتقى النفيس»... (ص ١١٥) بقلمي.

الغفلة عن المعاني وفهمه والعمل به. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: أنزل القرآن ليتمل به، فاتخذ الناس تلاوته عملاً؛ يعني أنهم اقتصروا على التلاوة وتركوا العمل به.

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»^(١): «وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً»^(٢)، فمن هجرانه ترك الإيمان به، ومن هجرانه ترك تدبره وتفهمه، ومن هجرانه ترك العمل به وترك امتثال أمره وترك اجتناب زواجره، ومن هجرانه العدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة أو مذهب مأخوذ من غيره، والصحابة رضي الله عنهم كانوا يقرؤن ويفهمون فيعملون أن العمل بلا فهم وعلم متعذر.

وقال الإمام حجة الإسلام أبو حامد محمد الغزالي الطوسي في الفصل الثالث من قواعد العقائد من «إحياء علوم الدين»^(٣): «إن عصابة السنة وأهل الحق، الذين حفظهم الله تعالى عن زئج الزائغين وضلال الملحدين، ووقفهم للاقتداء بسيد المرسلين ﷺ، ويسر لهم اقتفاء آثار السلف الصالحين؛ هم تحقّقوا وأتقوا على أن الشفق بما تعبّد به من قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ليس له طائل ولا محصور إن لم تتحقّق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الاقطاب والأصول، وقد عرفوا أن كلبتي الشهادة على إيجازها تتضمن

(١) (٣ / ٥٠٧).

(٢) الفرقان: ٣٠.

(٣) (١ / ١٠٤).

وانظر لزمام كتابي «إحياء علوم الدين في ميزان العلماء والمؤرخين»، طبع دار ابن

الجوزي.

إثبات ذات الإله، وإثبات صفاته، وإثبات أفعاله، وإثبات لا معبود بحق إلا هو وحده لا شريك له، وإثبات صدي الرسول ﷺ، وأن مخالفته توجب تكذيبه، فتنبه.

قال الإمام محيي السنة البغوي في «تفسيره»^(١): «إن الناس كما أنهم متعبدون باتِّباع أحكام القرآن وحفظ حدوده ومعرفة معانيه؛ فهم متعبدون بتلاوته وحفظ حروفه أيضاً».

فقد تبين أن فهم معاني القرآن والحديث والتفهم لها واجب؛ لأنه لا يصح العمل إلا بعد العلم، والعلم لا يحصل إلا بالفهم والتفهم، والقرآن وإن كانت تلاوته عبادة مطلوبة يُتَعَبَّدُ بها، ولكن المقصد الأصلي منه الفهم والعمل، فمن يتلو ولا يفهم معناه ولا يعمل به؛ فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا، أو كمثل اللون بلا طعم، ولا رائحة طيبة، أو كمثل بُدْقِيَّةٍ أو مدفع بلا قنابل ولا رصاص، أو كمثل سيارة بلا بنزين فتنبه.

قال الجلال السيوطي في النسخ الحادي والخمسين من كتابه «الإتقان»^(٢): «روى البيهقي وأبو حبيب عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فأوعه سمعتك؛ فإنه خير تأمر به، أو شر ينهى عنه».

وأخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد^(٣) عن علي رضي الله عنه: «من قرأ

(١) قارن بـ «معالم التنزيل» (٤ / ٢٣٦) له.

(٢) (٣ / ١٠٠).

(٣) رواه: عبدالله بن أحمد (١ / ١٤٨)، والترمذي (٢٩٠٥)، وابن عدي في

القرآن، فاستظهره، فأحل حلاله وحرم حرامه؛ أدخله الله الجنة».

وعن عائشة رضي الله عنها: «المأجر بالقرآن مع الشفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتنعم فيه وهو عليه شاق له أجران»^(١).

ثم ذكر الجلال في النسخ السابع والسبعين منه^(٢): «اعلم أن من المعلوم أن الله تعالى إنما خاطب خلقه بما يفهمونه، ولذلك أرسل كل رسول بلسان قومه وأنزل كتابه على لغتهم».

وقال الإمام ابن تيمية: «يجب أن يُعْلَمَ أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم الفاظه، فقولته تعالى: ﴿الَّذِينَ لِلنَّاسِ مَأْزُولٌ إِلَيْهِمْ﴾^(٣) يتناول هذا وهذا».

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يُقرئون القرآن؛ كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما رضي الله عنهما: أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات؛ لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل؛ قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً»^(٤).

= «الكامل» (٢ / ٧٨٨)، وابن ماجه (٢٤٣٦)، والبيهقي في «الشعب» (٢٤٣٦) مرفوعاً.

وفي سنده حفص بن سليمان؛ متروك.

(١) رواه: البخاري (٨ / ٥٣٢)، ومسلم (٨٩٨).

(٢) (٤ / ١٧٠) ناقلاً له عن (بعضهم).

(٣) التحل: ٤٤.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (رقم ٨٢) من طريق جرير عن عطاء بن السائب

عنه.

ورواية جرير عن عطاء بعد الاختلاط.

وأقام ابن عمر رضي الله عنهما على حفظ البقرة ثمان سنين. أخرجه في «الموطأ»^(١).

لأنه تعالى قال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾^(٢)، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^(٣)، وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وكيف لا يجب فهم كلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم... إلخ؟!

●●●●●

ولكن؛ ذكر الذهبي في «طبقات الفراء» (١ / ٥٤) أن حماد بن زيد رواه عن عطاء أيضاً، وروايته عنه قبل الاختلاط.
فصح السند بحمد الله.
وله شاهد عن ابن مسعود، أخرجه الطبري (٨١) أيضاً.
(١) (١ / ٢٠٥) بلاغاً.
(٢) ص: ٢٩.
(٣) النساء: ٨٢.

فصل

في أقوال علماء أصول الفقه من أهل المذاهب الأربعة المشهورة - كالحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة - والظاهرية وأهل الحديث من علماء أصول السنة والجماعة، شكر الله تعالى سعيهم، ورجمهم الله تعالى رحمة واسعة، وأدخلهم في فردوس الجنات، في لزوم فهم معنى القرآن الكريم والحديث النبوي على كل مكلف من المسلمين، وأنه لا يعذر أحد في ترك ذلك ما دام عاقلاً بالغاً، والعباد كلهم مكلفون بمعرفة الله وتوحيده والإيمان به وبرسوله؛ كما أن المسلمين كلهم مكلفون بفهم معاني الكتاب والسنة والعمل بمقتضى ذلك، فأسأل الله تعالى الكريم الوهاب أن يوفقنا لذلك بفضلِهِ ومَنِّهِ؛ فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال الشيخ موفق الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة الحنبلي المقدسي في كتابه «روضة الناظر وجنة المناظر» (٢ / ١٤٧): «ما ورد من خطاب مُضافاً إلى الناس والمؤمنين؛ دخل فيه العبد؛ لأنه من جملة من يتناولهُ

اللفظ، ويدخل النساء في الجمع المضاف؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، ﴿وَتَوَسَّوْا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١)، و﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، ونحو ذلك يتناول العبد والمرأة؛ لأنهما من الناس والمؤمنين والأمة والمكلفين، ولفظ (الناس) و(البشر) و(الإنسان) وُضِعَ للعموم، فيتناول الذكور والإناث والعبد والأمة والصغير، ويخرج العبد والأمة والصغير والنساء عن بعض التكليف لا يوجب رفع العموم فيه؛ كالمريض والمسافر والحائض، وأكثر خطاب الله تعالى في القرآن بلفظ التذكير؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، و﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٣)، و﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤)، و﴿بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥)، والنساء يدخلن في جمليته، وذكره تعالى لهن بلفظ مفرد تبييناً وإيضاحاً لا يمنع دخولهن في اللفظ العام الصالح لهن، وما من عموم إلا وقد تطرق إليه التخصيص إلا اليسير، فالعام إذا دخله التخصيص يبقى حجة فيما لم يخص عند الجمهور؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتمسكون بالعمومات، فتدبر... إلخ.

وفيه أيضاً (٢ / ١٥٧): «اللفظ العام يجب اعتقاد عموميه في الحال، ولفظ العموم يفيد الاستغراق، ولا يجب البحث عن المخصص، وإذا ظهر المخصص؛ فلا يسقط قيام الحجة بالعام، ثم يجب اعتقاد عموميه في الحال»

(١) المؤمنون: ٣١.

(٢) آل عمران: ١١٠.

(٣) الزمر: ٥٣.

(٤) البقرة: ٣.

(٥) البقرة: ٩٧.

والزمان ما لم يرد نسخ، وكذلك في الأعيان، ولا نعلم خلافاً في جواز تخصيص العموم، ويستحيل خطاب وتكليف من لا يفهم؛ كالصبي والمجنون.

وفيه أيضاً: (١ / ٣٣٢): «والأمة كلها متعبدة بالنصوص والأدلة القواطع، معرضون للعقاب بمخالفتها... إلخ».

وفيه أيضاً: (٢ / ٩٧): «الأمر لجماعة يقتضي وجوبه على كل واحد منهم، ولا يسقط الواجب عنهم بفعل واحد منهم؛ إلا أن يدل دليل عليه، فيكون فرض كفاية... إلخ».

وقال محمد بن إسماعيل الأمير الصنعائي الشوكاني^(١) في كتابه «إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد» (١ / ٣٨): «ومعلوم يقيناً أن كلام الله وكلام رسوله أقرب إلى الأفهام وأدنى إلى إصابة بلوغ المرام؛ فإنه أبلغ الكلام بالإجماع، وأعذب في الأقوال والأشعار، وأقرب إلى الفهم والانتفاع، ولا ينكر هذا إلا جلمود الطباع، ولا حفظ له من النفع والانتفاع، والأفهام التي فهم بها الصحابة رضي الله عنهم الكلام الإلهي والخطاب النبوي هي كأفهامنا، وأحلامهم كأحلامنا، إذ لو كانت الأفهام متفاوتة تفاوتاً يسقط معه فهم العبارات الإلهية والأحاديث النبوية؛ لما كنا مكلفين ولا مأمورين ولا منتهين؛ لا اجتهاداً ولا تقليداً... إلخ».

وفيه أيضاً (١ / ٤٦): «لا بد للمكلف من تفهم معاني ما كُلف به من كلام ربه أو كلام رسوله ﷺ أو من كلام شيخه وأستاذه؛ ضرورة أنه لا يتم له

(١) لا، ليس شوكانياً، وإنما الشوكاني آخر، واسمه محمد بن علي، توفي سنة (١٢٥٠ هـ)، ترجمته في «البدل الطالع» (٢ / ٢١٤) له.

التكليف إلا بالفهم، وإلا كان معدوداً غير مكلف ولا مخاطب بشيء من الشرعيات، فالفهم الذي يصرّفه في حلّ عبارات شيوخه وبيان معانيها لو صرفه في تفهم كلام ربّه وحديث رسول الله ﷺ؛ لوَصَل إلى المقصود بأسهل طريق، ولا شك أن أكثر العلّوم التي يُشْتَغَل أكثر النَّاس بها فضول... إلخ».

وفي «روضة الناظر» أيضاً (٢ / ١٥٤): «ذهب بعض القديريّة إلى أن العامة يلزمهم النظر في الدليل في الفروع أيضاً كما يلزم في الأصول، وهو باطل بإجماع الصحابة رضي الله عنهم؛ فإنهم كانوا يفتنون العامة ولا يأمرؤنهم بتلّ درجة الاجتهاد، وذلك معلوم بالضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم، وضدّهم ما ذهب إليه الحشوية والتعليمية من أن طريق الحق ومعرفة التقليد، وهذا هو الواجب، وأن النظر والبحث حرام، وهؤلاء نزلوا أنفسهم منزلة الحيوانات المجهّم، وهؤلاء هم أكثر من يدعي الإسلام اليوم وقبل اليوم، والحق سؤال الجاهل العالم؛ لقوله تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾^(١)».

وفي أيضاً (٢ / ٣٢١): «قد أجمع المسلمون على وجوب تعلّم علم الدين على كلّ مسلم، وأجمعوا أيضاً على جواز شرح الشرع للمعجم بلسانهم؛ لضرورة التعليم والتفهم، وكذلك كان سفراء النبي ﷺ يبلّغونهم أوامره بلغتهم؛ لأن المقصود فهم المعنى وإيصاله إلى الخلق... إلخ، وأن التعبد في الحديث بالمعنى؛ لأنه المقصود؛ لا باللفظ، ولهذا قد جوزوا رواية الحديث بالمعنى؛ بخلاف القرآن؛ فإن التعبد بمعناه للإبلاغ، ويلفظه للتلاوة

والإعجاز؛ بدليل الحروف المقطعة في أوائل السور؛ فإنه ليس لها معنى يُفهم فيمتثل، ونحو متعبّدون بلفظها، والأجر يترتب عليها على كلّ حرف عشر حسنة؛ كسائر حروف القرآن... إلخ».

وفي أيضاً (٢ / ٣٤٨): «إن العوام لا يُعتبر قولهم عند الأكثرين، والمقلّد حكمه حكم العامي؛ يعني أن لفظ العامي يشمل كلّ من ليس مجتهداً وعالماً، والحق أن المقلّد والعامي من وإد واحد، فلا عبرة بقولهم ولا بفعلهم؛ سواء وافق أو خالف، والمحقّقون لا يقيمون لقولهم وزناً؛ لأنهم كالذّابة والأنعام، والعامي إذا قال قولاً فإنما يقوله عن جهل وتقليد وليس يدري ما يقول، ولهذا قد انعقد الإجماع على أنه يغني بمخالفة العلماء، ويحرم عليه مخالفتهم، ولذلك دّم النبي ﷺ الرؤساء الجهال الذين أفنوا بغير علم، فضّلوا وأصلوا... إلخ».

وفي «إتحاف السادة المتّقين شرح إحياء علوم الدين» للمُرتضى الزبيدي (١ / ٤٣٢): «اعلم أنه يجب على كلّ مسلم معرفة ما ثبت عن رسول الله ﷺ قولاً وفعلًا؛ لأن أتباعه إنما يحصل لمن علّم ذلك، والإمام المقلّد إنما هو محمد رسول الله ﷺ حقًا، وهو الإمام الأعظم ﷺ حقًا، وإنما يقلّد الصحابة رضي الله عنهم من حيث إن فعلهم يدلّ على سماعهم من رسول الله ﷺ، وهذا هو الذي أئرنّا باتباعه لا غيره، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما من أحدٍ إلّا يؤخذ من علمه ويُترك لإلا رسول الله ﷺ؛ فإن كلّ ما ثبت عنه ﷺ مقبول». قال العراقي: رواه الطبراني في «الكبير»، وإسناده حسن، وكذا في «قوت القلوب»... إلخ».

قال الإمام علي بن أحمد بن حزم الأندلسي في كتابه «النَّبَذ» (١) / ٥٤: «التقليد في الدين لغير المعصوم حرام، ولا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد بلا برهان لقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾^(٢)، والعالم والعامة في هذا سواء؛ كل على قدر حفظه ونصيبه، ولم يخص الله تعالى عالماً من عالمي، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾^(٣)، وإنما نحن نسأل العلماء كيخبرونا بما عندهم من أوامر الله تعالى الواردة على لسان محمد ﷺ لا عن شرع يشرعونه لنا من قبل أنفسهم».

قال: «ثم العجب أن يكون الله تعالى فرض للعامة الذي بالاندلس تقليد مالك، ومن باليمن ومصر تقليد الشافعي، ومن بخراسان وما وراء النهر تقليد أبي حنيفة، لا غير، وإذا أسلم رجل من أهل دار الحرب وشهد بـ (لا إله إلا الله محمد رسول الله)؛ فهذا لا شك دخل في دين الإسلام، فهل الفرض عليه السؤال عما فرض الله تعالى عليه وأمره به وأمر رسوله محمد ﷺ، أو يلزمه أن يسأل عما قال أبو حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد رحمهم الله تعالى؟ فما يقول فيه هذا المقلد... إلخ، وماذا يجيب؟».

قال العبد الضعيف جامع هذه الكلمات: إني قد ألفت في هذه المسألة رسالة حينما ورد علي سؤال من مسلمي الشرق الأقصى بلاد اليابان، وسميتها «هدية السلطان إلى مسلمي بلاد جابان»^(٤)، فجاءت رسالة بديعة؛ فعليك بها إن أردت التحقيق، وبالله التوفيق.

(١) الأعراف: ٣.

(٢) مريم: ٦٤.

(٣) وقد اشتهرت وطُبعت باسم «هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين؟».

وانظر التعليق المتقدم (ص ٣٣).

وفي «الوحي المحمدي» للشيخ محمد رشيد رضا (١ / ١٢٢): «يجب على كل المسلمين تعلّم اللغة العربية؛ لغة القرآن، وهذا مجتمّع عليه بين المسلمين؛ كما قرره الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في «رسالته»^(١)، وقد جرى عليه العمل في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم، ثم خلفاء الأمويين والعباسيين، إلى أن كثّر الأعاجم، وقُلّ العلم، وغلب الجهل، فصاروا يكتفون من لغة الدين بما فرضه في العبادات من القرآن والأدكار، وقد جعل الله تعالى لغة الدين والتشريع لغة لجميع المؤمنين، والمؤمنون باعقاداتهم الإيمانية يكونون مُسوّقين إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لفهمهما، والتعبّد بهما، والأُنْحَاد بأخوتهم فيهما، وهما مناط سعادتهما وسيادتهما في الدنيا والآخرة، ولذا قد كرّر في القرآن بيان كونه كتاباً عربياً، وحكماً عربياً، وكُرّر الأمر بتدبره والتفقه فيه والأنماط والتأدّب به.

اعلم أنّه ما أفسد المسلمين وما أدلهم إلا جهلهم بكتاب ربهم، وسنة نبيهم، وعدم فهمهم معانيهما ومواعظهما، وما أوقعهم في البدع والخرافات إلا هذا الجهل، ومن الجهل ينشأ التقليد، والبدع تروج في سوق التقليد والجهل، لا في سوق الدين والعلم الصحيح المأخوذ من الدلائل، ومن باب الجهل والتقليد دخل أكثر الخرافات على المسلمين؛ لانتساب جميع الدّجائيل إلى أهل الطرائق وغيرهم من أئمة المذاهب المعترين، وهم في دعوى أتباعهم من الكاذبين، ويذكر في كثير من كتب التفسير والفقه والتصوف وشروح الأحاديث للعلماء المنسوبين إلى الأئمة كثير من البدع والخرافات التي

(١) (رقم ١٦٧ و ١٦٨)

يُتَبَرَأُ مِنْهَا أُمَّةُ الْهَدَى، وَتَرَى عُلَمَاءَ الرُّسُومِ الْجَابِدِينَ يَحْتَجُّونَ بِذِكْرِهَا فِي هَذِهِ الْكُتُبِ عَلَى شَرْعِيَّتِهَا، وَعَلَى رَدِّ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ بِهَا، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ».

وكذا في المجلد (١١) من «تفسير المنار» (ص ٢٥٨).

قُلْتُ: كَمَا ذَكَرَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي «تفسيره»^(١) رَوَاةَ الْعُثَيْبِيِّ قِصَّةَ الْأَعْرَابِيِّ الْمَجْهُولِ^(٢) فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاوَزُوا فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(٣)، وَلَمْ يَتَعَقَّبْهُ، وَكَانَ اللَّازِمُ عَلَيْهِ تَعَقُّبُهُ، وَبَيَانُ حَالِ الْخَيْرِ، أَوْ عَدَمُ ذِكْرِهِ أَصْلًا؛ كَمَا لَا يَخْفَى، وَلَكِنَّ الْجَوَادَ قَدْ يَكْبُرُ، وَالصَّارِمَ قَدْ يَنْبُو، فَتَنْبُو.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «إعلام الموقعين» (٢ / ١٨٦): «وَمَا قِيلَ أَنَّ النَّاسَ لَوْ كَلَّفُوا كُلَّهُمْ فَهَمَّ الْخُطَابُ؛ يَلْزِمُهُمُ الْجِتْهَادُ، وَأَنْ يَكُونُوا عُلَمَاءَ؛ لَضَاعَتْ مَصَالِحُ الْعِبَادِ، وَتَعَطَّلَتْ الْمَصَانِعُ وَالْمَتَاجِرُ، وَهَذَا مِمَّا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ شَرْعًا وَقَدْرًا؛ فَالْجَوَابُ مِنْ وَجْهِ:

أَحَدُهَا: أَنَّ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَأْفَتِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكْلَفْنَا بِالتَّقْلِيدِ، فَلَوْ كَلَّفْنَا بِهِ؛ لَضَاعَتْ أُمُورُنَا، وَفَسَدَتْ مَصَالِحُنَا؛ لِأَنَّا لَمْ نَكُنْ نَدْرِي مَنْ نَقْلُدُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمُفَتِّينَ، وَهُمْ عَدَدٌ لَا يُحْصَرُونَ وَقَدْ انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ بِحَمْدِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ، فَلَوْ كَلَّفْنَا

(١) (١ / ٧٨٧).

(٢) انظر نقدها وردها في «القول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي» (ص ٣٥).

للسفييري - بتحقيق.

(٣) النساء: ٦٤.

بِالتَّقْلِيدِ؛ لَوَقَعْنَا فِي أَعْظَمِ الْعَثِّ وَالْفَسَادِ، وَلَكَلَّفْنَا بِتَحْلِيلِ الشَّيْءِ وَتَحْرِيمِهِ وَإِجَابِ الشَّيْءِ وَإِسْقَاطِهِ مَعًا إِنْ كَلَّفْنَا بِتَّقْلِيدِ كُلِّ عَالِمٍ، وَإِنْ كَلَّفْنَا بِتَّقْلِيدِ الْأَعْلَمِ فَلَا أَعْلَمَ؛ فَمَعْرِفَةُ مَا دُلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَالسُّنَنُ مِنَ الْأَحْكَامِ أَسْهَلُ بِكَثِيرٍ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَعْلَمِ، وَإِنْ كَلَّفْنَا بِتَّقْلِيدِ الْبَعْضِ؛ كَانَ جُحُولُ ذَلِكَ إِلَى تَشْهِيدِنَا وَاخْتِيَارِنَا؛ صَارَ دِينَ اللَّهِ يُتِمُّ لِإِرَادَتِنَا وَشَهَوَتِنَا، وَصَارَ الدِّينُ الْعُوبَةُ.

قُلْتُ: كَمَا هُوَ الْوَاقِعُ الْآنَ، بَلْ مِنْذُ عَصُورٍ وَأَزْمَانٍ.

«فَلَا يَدُّ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ رَاجِعًا إِلَى مَنْ أَمَرَ اللَّهُ بِاتِّبَاعِ قَوْلِهِ، وَتَلْقَى الدِّينَ مِنْ بَيْنِ شَفَقَتَيْهِ، أَلَا وَهُوَ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، رَسُولُ اللَّهِ، وَأَمِنُهُ عَلَى وَجْهِهِ، وَحُجَّتُهُ عَلَى خَلْقِهِ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْمُنْتَصِبَ لِسُوَاءٍ بَعْدَهُ أَبَدًا، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

الثَّانِي: بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ صَلَاحِ الْأُمُورِ لِضَائِعَاتِهَا، وَبِإِهْمَالِهِ وَتَقْلِيدِ مَنْ يَخْطِئُ وَيَصِيبُ إِضَاعَتِهَا وَفَسَادَهَا، كَمَا أَنَّ الْوَاقِعَ شَاهِدٌ بِهَذَا.

الثَّلَاثُ: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَصْدُقَ الرَّسُولُ مُحَمَّدًا ﷺ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ، وَيَطِيعَهُ فِيمَا أَمَرَ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ أَمْرِهِ وَخَبَرِهِ، وَلَمْ يَوْجِبِ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْأُمَّةِ إِلَّا مَا فِيهِ حِفْظُ دِينِهَا وَدُنْيَاهَا، وَصَلَاحُهَا فِي مَعَايِشِهَا وَمَعَادِهَا، وَإِهْمَالُ ذَلِكَ تَضْيِيقُ مَصَالِحِهَا وَتَفْسُدُ أُمُورُهَا، فَمَا خَرَابُ الْعَالَمِ إِلَّا بِالْجَهْلِ، وَلَا عِمَارَتُهُ إِلَّا بِالْعِلْمِ، وَإِذَا ظَهَرَ الْعِلْمُ فِي بَلَدٍ أَوْ مَحَلَةٍ؛ قَلَّ الشَّرُّ فِي أَهْلِهَا، وَإِذَا خَفِيَ الْعِلْمُ هُنَاكَ؛ ظَهَرَ الشَّرُّ وَالْفَسَادُ، وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذَا؛ فَهُوَ مَعَمَّنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا.

قَالَ الْأَمَامُ أَحْمَدُ: لَوْلَا الْعِلْمُ كَانَ النَّاسُ كَالْبَهَائِمِ.

والعلمُ النافعُ هو الذي جاء به محمدٌ رسولُ الله ﷺ؛ دونَ مقدوراتِ الأذهانِ ومساائلِ الخرصِ والالغازِ، وذلكَ بحمدِ الله تعالى أيسرُ على النفوسِ تحصيلُهُ وحفظُهُ وفهمُهُ؛ فإنه كتابُ الله الذي يشره للذكرِ، وكذا سنةُ رسوله ﷺ، وهي بحمدِ الله تعالى مضبوطةٌ محفوظةٌ، وأسهلُ من كلِّ سهلٍ، وإنما الذي هو في غايةِ الصعوبةِ والمشقةِ مقدراتُ الأذهانِ، وتُرْهاتُ اليونانِ، وأغلوطاتُ المسائلِ والفروعِ والأصولِ التي ما أنزلَ الله بها من سلطانٍ، وإنما هي من دسائسِ الشيطانِ انتهى .

وفيه أيضاً (٢ / ١٣٨): «إن أقيح التقليدُ وأشنعه الإعراضُ عما أنزله الله تعالى، وعدمُ الالتفاتِ إليه؛ اكْتفاءً بتقليدِ الآباءِ والمشايخِ» .

تنبيهٌ: على أي شيء كان الناس قبل أن يولد فلان وفلان والذين قلدتموهم وجعلتم أقوالهم بمنزلة نصوص الشارع، أفكان الناس قبل وجود هؤلاء على هدى أو ضلالة؟ فلا بد أن تقرّوا بأنهم كانوا على هدى، فيقال لهم: فما الذي كانوا عليه غير اتباع القرآن والسنة والآثار، وتقديم قول الله وقول رسوله وآثار الصحابة على ما يخالفها، والتحاكم إليها دون قول فلان وفلان؟ فإذا كان هذا هو الهدى؛ «فماذا بعد الحق إلا الضلال فأتى تضلّون»^(١).

اعلم أن الله تعالى قد دهم من إذا دعي إلى الله ورسوله؛ أعرض ورضي بالتحاكم إلى غيره، وهذا شأن أهل التقليد؛ قال الله تعالى: «وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً»^(٢).

(١) يونس: ٣٢.

(٢) النساء: ٦١.

فكل من أعرض عن الداعي له إلى ما أنزل الله على رسوله إلى غيره فله نصيب من هذا اللثم، فمستكثر ومستقل.

فالواجب على كل مسلم: طلب الحق، وبذل الاجتهاد في الوصول إليه بحسب الإمكان؛ لأن الله سبحانه أوجب على الخلق تقواه بحسب الاستطاعة، وتقواه إنما هو فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، فلا بد أن يعرف العبد ما أمر به ليفعله، وما نهى عنه ليجتنبه، وما أبيح له ليأتيه، ومعرفة ذلك لا تكون إلا بنوع اجتهاد وطلب وتحري للحق.

وقد ذم الله تعالى من حاكم إلى غير الرسول ﷺ في حياته، فكذا هذا ثابت بعد مماته ﷺ؛ لأن سنته وما جاء به من الهدى ودين الحق لم يمت، وإن فقد من بين الأمة شخصه الكريم؛ فلم يُفقد من بيننا سنته ودعوته وهدى به محمد الله، وقد ضمن الله تعالى حفظ الذكر الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ، فلا يزال محفوظاً بحفظ الله؛ لتقوم حجة الله على عباده إلى أبد الأبد.

وفيه أيضاً (٤ / ٢٠٦): «ولا يسع الحاكم والمفتي إلا الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ البينة عند وجود المسألة فيهما؛ فإن الله تعالى سائل كل أحد عن رسوله وما جاء به، لا عن الإمام المعين وما قاله، وإنما يسأل الناس في قُبورهم ويوم معادهم عن الرسول ﷺ، فيقال له في قبره: ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ ويوم القيامة يُسألون فيقول: «ماذا أجبتُم المرسلين»^(١)، ولا يسأل أحد قط عن إمام ولا شيخ ولا متبوع غير رسول الله ﷺ، بل يسأل عن أتبعه واثم به غير رسول الله ﷺ؛ فلينظر بماذا يجيب؟

(١) القصص: ٦٥.

ففي ذلك اليوم يتبرأ التابع من المتبوع ، والمتبوع من التابع .

والعبد الضعيف قد ألفت في هذه المسألة رسالتي «البرهان الساطع في تبرؤ المتبوع من التابع»، فعليك بها ؛ فإنها مطبوعة في مصر، ومنشورة في العالم الإسلامي كله.

●●●●●

خاتمة

قال العبد الضعيف محمد سلطان المعصومي رَزَقَهُ اللهُ تعالى الحُسنى وزيادة: وقد فتح اللهُ تعالى لي اليوم فتحاً، وهو أن الله تعالى حينما أرادَ تعمير الدنيا؛ قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً^(١)﴾، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ الْآيَةَ^(٢)﴾، ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ^(٣)﴾.

فهذه الآيات تفيد أولاً - وبالذات - أن الله تعالى جعل آدم عليه وعلى نبيينا محمد أفضل الصلاة والسلام خليفة^(٤) في الأرض، ثم أولاده إلى يوم القيامة، فهم يتصرفون فيها، ويعمرونها، ويعيشون فيها بما منحهم الله تعالى من العقل والفهم والذكاء وأودع الله تعالى فيهم من قوة التعلم؛ يتعلمون

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٣١.

(٣) البقرة: ٣٣.

(٤) لا يُقال: «خليفة الله»؛ كما سبق (ص ٢٣)

باستعمال تلك القوة جميع العلوم والصنائع، فيذلك يعرفون ربهم وخالقهم، وأنه واحد لا شريك له؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فلا يستحق العبادة إلا هو وحده جلّ جلاله.

فبنو آدم كلهم - أولهم وآخرهم - لهم أهلية العلم والتعلم، فإذا استعملوا قواهم فيما خلّقوا له؛ نالوا السعادة في الدارين، وإذا أهملوا وقصروا في ذلك؛ خابوا وخسروا، فكانوا من الهالكين.

فحيث إن بني آدم لهم أهلية العلم والفهم، وجّه الله تعالى إليهم الخطاب وخطبهم أولاً بـ (يا أيها الناس)، ثم بـ (يا أيها المؤمنون)، فأمرهم ونهاهم، وبشرهم وأنذرهم، فعلمنا منها قطعاً أنه يجب فهم خطاب الله تعالى على كل إنسان، ولا يخرج منه إلا الصبي والمجنون، فهذا يجب الإيمان بالله وبالرسل على كل بني آدم، ثم خصّص الله تعالى المؤمنين بخطاب خاصة، وأوامر مخصوصة بـ (يا أيها الذين آمنوا) . . . الآيات، فهل بعد هذه الآيات يُعذّر أحد بترك تعلم الخطاب الإلهي؟ كلا؛ لا يُعذّر أبداً، فجزاؤه في الدنيا المذلة والحفارة والإساءة، وأما في الآخرة؛ فالعذاب أشد وأبقى.

فانتبهوا يا أيها الذين ضيعوا أعمارهم في الشهوات والخرافات والفلسفة اليونانية والأشعار الجاهلية وديوان ابن الفارض والمتنبي أو ميرزا عبدالقادر والبطل الفارسي؛ كما هو شأن أهل ما وراء النهر؛ فإنهم بذلك اقتنوا وأوقعوا الناس في الفتن العمياء كما لا يخفى.

قال العبد الضعيف جامع هذه الكلمات: هذا آخر ما قصدت جمعه وبيانه مما يتعلق بالمبحث، فأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم،

وينفع به العباد في عامة البلاد بفضلِهِ ومنه وإحسانه، وكان ذلك في داري الكائنة في مكة المكرمة، قريبة من المسجد الحرام، في زقاق البخاريّة، من حارة المسفلة، في ١٥ / ٤ / ١٣٦٦ هـ.

وآخر دعوانا ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).



(١) الصفات: ١٨٠ - ١٨٢.

قال أبو الحارث الحلبي الأثري عفا الله عنه: هذا آخر ما أردت تعليقه على هذا الكتاب المبارك من رأس القلم؛ سائلاً المولى عز شأنه أن ينفع به ويأمله. ولقد استراح القلم من الجزيان قبيل غروب يوم الثلاثاء لتسعة أيام بغين من شهر صفر سنة إحدى عشرة وأربع مئة ألف، والبال مهموم، والقلب مغموم، ولا مفرج إلا الله جلّ شأنه، ولا حول ولا قوة إلا به.

الفهارس

فهرس الأحاديث والآثار المخرجة

على الترتيب الهجائي

٢٨٠	الذنوا له، وئس أخو العشيعة
٢٧٣	آل محمد كلّ تقى
٢٩٦ ، ١٩٧	آية المناق ثلاث
٢٠٨	أخرجوا المشركين من جزيرة العرب
٢٣٠	أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي
١٩٧	إذا حدث الرجل يحدث ثم التفت
٢٤٥	إذا دعا أحدكم أخاه
٢٧٢	إذا دعا المسلم لأخيه يظهر الغيب
٢٤١	إذا دُعيت إلى كراع، فأجيبوا
٢٥١	إذا سمعتم المؤذن؛ فقولوا مثل ما يقول
٣٣٨	إذا مات الإنسان؛ انقطع عمله إلا
٢٧٦	اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس
٢٣١	ارجع فقل: السلام عليكم، أَدْخِلْ؟
٣١٠	أسلم رجال من أهل مكة، فأرادوا
٣٣٥	أعربوا القرآن وأنتموا غرائبه

١٨٧	بل اتتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر	٣٣٥	أعربوا الكلام كي تُعربوا القرآن
٣٠٤	تجب الجمعة على كل مسلم إلا	٣٣٣	أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي
٩١	ترفع الأمانة، ويُقال للرجل: ما أحذقه!	٢٣٤	أفعميتُما أنتما؟
٣٣٧	تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتن	١٨٢	أني كل عام الحج يا رسول الله؟
١٦١	تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله	٢٠١	أما إنهم مبخلةٌ مجبةٌ
٣٢٧	تعلّموا الفرائض والقرآن، وعلموها الناس	٢٩٤	امتحانها أن تُستخلف أنها ما خرجت
٣٢٨	تعلّموا القرآن واقرؤوه	٢٨٠	أما معاوية؛ فضحكوك
٣٢٩	تعلّموا كتاب الله وتماهدوه	٢٧٩	إن كان فيه ما تقول؛ فقد اغتبت
٣٢٨	تعلّموا مناسككم؛ فإنها من دينكم	١٦٧	أنا بريء من كل مسلم يُقيم
٢٧٧	التائب من الذنب كمن لا ذنب له	٢٢١	أنا الضحوك القتال
٢٦٩	التبّيت من الله، والعجلة من الشيطان	١٨٤	إن هذا الدين يسر
٣١٦	التوبة تجب ما قبلها	١٨٢	إن الله فرض فرائض؛ فلا تضيعوها
٣١٦	التوبة من الذنب: أن يتوب منه، ثم	٢٤٧	إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف
٣٣٠	تكلتك أمك يا زياد	٢٤٧	إن الله وملائكته يصلون على الذين يعبدون الصفوف
١٧٠	ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان	٣٥٣	إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً
٥٤	ثلاث من روجع على أهلها	٨٣	إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم
٢٩٨	جاهدوا المشركين والكفار بأموالكم	٢٨٦	إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً
٢١٦	حبّ الدنيا رأس كل خطيئة	١٥٢	إن العراد بالعقود عهد الله
٢٦٥	الحمد لله الذي وفقّ رسولَ رسولِ الله	١٨٥	إن الناس إذا رأوا منكروا لم يغيروه
٣٤٧	حدثنا الذين كانوا يقرئون القرآن	٢٣٠	إنما جعل الاستئذان من أجل النظر
٣٠٤	حديث أذان عثمان	٣٤٠	إنّي أعلم أنّك حجر لا تضر ولا تنفع
٢٣٠	حديث الاستئذان للدخال	٢٥٠	أولى الناس بي يوم القيامة
١٨٠ و ٨١	حديث الثلاثة الذين أطبق عليهم الغار	٢٧٩	إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث
٣٣٤	حديث جبريل في الإيمان	٣١٦	الإسلام يجب ما قبله
٢٨٧	حديث سبب نزول: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ...﴾	٢٧٠	الأناسة من الله، والعجلة من الشيطان
٢٦٩	حديث سبب نزول: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ...﴾	٢٤٩	اللهم صلّ على محمدٍ وأزواجه
٨١	حديث السبع الموبقات	١٨٣	بُعث بالحنيفية السمحة

٣٢٦	طلبُ المعلم أفضل عند الله من الصلاة
٣٢٦	طلب المعلم ساعة خير من قيام ليلة
٣٢٥ و ٢٠	طلب المعلم فريضة على كل مسلم
٢١٩	عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر
٦٣	العلماء ورثة الأنبياء
٣٤٠	فقيه واحد أشد على الشيطان
٢٦٠ و ١٦٠	قال الله: إذا عصاني من يرفني
٢٥٤	قال الله: من عادي لي ولياً
٢٤٨	قولوا: اللهم صل على محمد
٣٢٤	القرآن حجة لك أو عليك
٢٣٠	كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم
٣٣٩	كان النبي ﷺ إذا تكلم بكلمة؛ أعادها ثلاثاً
١١٩	كتاب الله هو جبل الله الممدود
٢٥١	كل دعاء محجوب حتى يصل على النبي ﷺ
٢٨٥	كنا إذا أتينا النبي ﷺ؛ جلس أحدنا
٢٧٤	الكبير يطر الحق وغمط الناس
٢٠٨	لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب
٢١٢	لشيئين شئت الذين من قبلكم
٢٨٥	لم يكن شيء أحب إلينا من رسول الله
٢٣٠	لو أن امرأة أطلع عليك من غير إذن
٢٤٦	لو دُعيت إلى ذراع؛ لأجبت
٢٦٨	لو كنتم من أهل المدينة؛ لأوجعتكما ضرباً
٢٨١	ما أعظمك وأعظم حرمتك!
١٧٤	ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا
٢٢٥	ما نواذرجلان في الله؛ ففرق بينهما
٥٤	ما من ذنب يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة
٢٧٢	مثل المؤمنين في توادهم وتراحهم

١٦٩	حديث قتال مانعي الزكاة
٢٩١	حديث قصة حاطب بن أبي بلتعة
١٤٦	حديث ماعز والغامديّة
٢٥٣	حديث موسى وبني إسرائيل
٢٩	حديث الحلائكة الكرويين
٢٠٠	حديث نفاق (١) ثعلبة بن حاطب
٣٢٨	خذوا عني مناسككم
٢٢١	خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم
١٦٥	الدُّعاء مع العبادة
٢٥١	الدُّعاء موقوف بين السماء والأرض
١٦٥	الدُّعاء هو العبادة
٣٨	الدُّنيا مزرعة الآخرة
١٨٢	ذروني ما تركتكم
٢٧٥	ربّ أشعث أغبر ذي طمرين
٢٧٥	ربّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب
٣٢٤	ربّ نال للقرآن والقرآن يلعنه
٢٨٥	رحم الله تعالى رجلاً يفسخ لأخيه
٥٩	الراحمون يرحمهم الرحمن
٥٧	الرحم شجرة من الرحمن
٢٣٢	سألت النبي ﷺ عن نظر المفجأة
٣٠٣	ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة
٢٧٣	سلمان منا آل البيت
٩١	سيكون في آخر الزمان قوم يجلسون
١٣٥	صلُّوا كما رأيتموني أصلي
٣٢٨	صلُّوا كما رأيتموني أصلي
٢٥٠	صلاة أمتي تُعرض عليّ في كل يوم جمعة
١٥٢	الصلح جائز بين المسلمين

٣١٠	الولد ثمرة القلوب، وإنهم مُجَنَّبَةٌ مَحْزَنَةٌ
٢٠١	الولد من رُحْمَانِ الجنة
١٩٧	لا إيمان لمن لا أمانة له
٢٥٢	لا تجعلوا قُبُري عَيْدًا
٢٨	لا تحاسدوا، ولا تدابروا
٣٠٣	لا تزال طائفة من أُمَّتِي ظاهرين
٢٧٨	لا تَنْظُرْ بكلمة خرجت من أَمْسِكَ المؤمن
٢٦٥	لا تَقُولُوا خلافَ الكتاب والسنة
٥٨	لا تُنَزِّعُ الرحمة إلا من شَقَقْ
٨٢	لا فضل لعربي عن أعجمي
٣٣٦	لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تباعاً
٢٠٩	لا يجتمع دينان في جزيرة العرب
٢٢٤	لا يُشِيرُ أحدكم إلى أخيه بالسلاح
٢٨٥	لا يُقِيمُ الرجلُ الرجلَ من مجلسه
٢٨٥	لا يُقِيمُنْ أحدكم أخاه يوم الجمعة
٩١	يأتي زمان لا يبقَى من القرآن إلا رسمه
٩١	يأتي على الناس زمان يجتمعون ويصلون
٣٤٠	يا ابن الخطاب! والذي نفسي بيده ما لقيك
١٨٥	يا أيها الناس! إياكم والكذب
٣٣١	يا أيها الناس! تعلّموا؛ إنما العلم بالتعلّم
٢٣٢	يا علي! لا تُبْجِعِ النظرة النظرة
٨٤	يا معشر قريش! إن الله قد أذهب عنكم
٢٨٠	يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه
١٨٤	يَسْرُوا ولا تَعْسَرُوا
٣٣٠	يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى



١٧٨	مدعى الخمر كما يد ويُن
٣١٤	مُرُوا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين
٣٣٧	من اقتدى بكتاب الله لا يضل
١٨١	من أنا ومن أبائي؟
٣٠٥	من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً
٣٣٦	من تعلّم كتاب الله ثم أتبع ما فيه
٢٢٥	من حَسَنَ إسلامَ العره تركه ما لا يعنيه
٦٣	من سلك طريقاً يلتمس منه علماً
١٠٢	من صام رمضان إيماناً واحتساباً
٢٥٠	من صَلَّى عليّ صلاة؛ صلى الله عليه بها عشراً
٢٤٩	من صَلَّى عليّ صلاة؛ لم تزل الملائكة
٢٥٦	من قرأ بدنيه من أرض إلى أرض
١٣٢	من قتل نفسه بحديد
٣٤٧	من قرأ القرآن فاستظّهره
٣٠٨	من كان له مال يُبلّغه حج بيت ربه
٢٢٥	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر
٢٧٦	من الكياش شتم الرجل والديه
٢٥١	من نسي الصلاة عليّ؛ أخطأ طريق الجنة
٣٣٨ و ٣٣١	من يرد الله به خيراً؛ يفقهه في الدين
٣٤٧	الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة
١٩٦	المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس
٢٧٢ و ٢٢٥	المسلم أخو المسلم
١٠٣	المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده
١٥٣	المسلمون على شروطهم
٦٥	نهى عن الأغلوطنات
٣٣٨	الناس معادن كمعادن الذهب والفضة
٣٠١	هل من رجل يؤوني حتى أبلغ رسالة ربي؟

١٢٨	حمار توما!!
١٣٤	نظرية دارون البائدة!
١٣٤	وسقطت الشيوعية!
١٣٧	﴿... وأولي الأمر منكم...﴾؛ من هم؟
١٥٠	قلب الوقائع بتسميات مخالفة
١٦٥	التنبية على وهم في عزو بعض الفضلاء حديثاً لـ «صحيح مسلم»
١٧٣	قاعدة (البُدْع التركية) أهميتها وبيانها
١٧٨	تعقّب الحافظ ابن حجر في تجويد إسناد حديث
١٨٢	خفاء علل حديثة على بعض فضلاء العصر
١٨٦	تطويل في تخريج حديث نبويّ والجمع بينه وبين ما تعارض معه
١٩١	القويّة!
١٩٤	قصة توبة الفضيل بن عياض
١٩٦	العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب
٢٠٠	التنبية على بطلان قصة نفاق ثعلبة
٢٠١	تحسين حديث ضعفه شيخنا الألباني
٢٠٩	تعقّب الشيخ عبدالقادر الأرنؤوط
٢١٦	«حب الدنيا رأس كل خطيئة»!
٢٢١	«أنا الضحوك القتال» لا أصل له!!
٢٢٢	لفظ (الوهابيين) من اختراع أعداء التوحيد
٢٢٧	طائفة (البُهَرَة)!
٢٣٤	راوِ ضَعْفُه ابن حجر وحسّن حديثه!!
٢٤٣	‘من أغلاط الشيخ حسن البنا رحمه الله في «مأثوراته»
٢٤٧	شذوذ رواية «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف»
٢٤٨	ذكر شاهد لها لا يُفْرَح به
٢٥٦	تسلسلٌ لطيف في تخريج حديث غريب!
٢٦٥	التنبية على ضعف حديث معاذ في الرأي!
٢٦٧	الحكم بغير ما أنزل الله؛ حكمه!

فهرس فوائد التعليقات

١٢	الاستدراك على رسالة «الذين ترجعوا لأنفسهم من العلماء»
٢١	(الإشراقيون) و (المشائون)؛ من هم؟
٢١	تُبَذَّ عن ابن سينا الفيلسوف!
٢٣	(خليفة الله) من الألفاظ المخالفة للشرع
٢٥	التنبية على خطأ قولهم: «لا معبود إلا الله»
٢٧	من انتسب إلى بلاد العجم من العلماء
٢٩	الملائكة الكروبيون!!
٣٢	نقد «دلائل الخيرات»
٣٣	لم يصحُ في السنة تسمية ملك الموت (عزرائيل)
٣٧	حديث قدسي مشهور لا أصل له!
٤٣	لفظ (العارفين) من ألفاظ الصوفية المتبدعة
٤٨	كتاب «تسهيل المنافع» للأزرقي!!
٥٢	التنبية على خلط في مطبوعة «لسان الميزان»
٥٨	سكوت الحافظ ابن حجر في «الفتح»
٥٩	تساهل ابن حبان في توثيق المجاهيل
٦٥	«نهى عن الأغلوطات»!
٧٣	كلمة حول (عبدالقادر الجيلاني) وما يُنسب إليه
٨٢	رواية إسماعيل بن عُثَيْبٍ عن الجُبَيْرِي قبل الاختلاط
٨٣	الدفاع عن حديث في «صحيح المسلم» أُعْلِلَ بالوقف
٨٩	الإلماع إلى مسألة العذر بالجهل
٩١	حديث ضعيف، وذكر ما يغني عنه
١٠٥	تُبَذَّ في ذكر أحوال الحزبيين
١١٦	﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾؛ معناها الصحيح
١٢٠	كمال أناتورك... الذئب الأغبر!
١٢٣	ما أشبه اليوم بالأمس

٢٧٠	تحسين حديث بشواهد
٢٧٣	بيان ضعف حديث مرفوعاً وصحته موقوفاً
٢٧٥	شاهد في «صحيح مسلم» فأت شيخنا ذكره
٢٧٧	مناقشة الأخ محمد عمرو عبداللطيف في تضعيف بعض الأحاديث
٢٧٩	(الفراسة) ؛ هل لها ضابط؟
٢٩٣	(الشارح) ؛ من الألفاظ المنهي عنها
٢٩٤	التنبه على زُعي الضلال
٣٠٤	تعقب المصنف في عزو بعض الأحاديث
٣٠٦	الهجر المشروع للمتدعة
٣١٦	«التوبة تجب ما قبلها» ؛ لا أصل له
٣٣٠	الفرق بين (رواه) و (ذكره)
٣٣٦	سكوت محقق «جامع الأصول» عن زيادة باطلة
٣٣٦	فائدة حول «جامع رزين» وزيادته
٣٤١	قيمة كتاب «إيقاظ همم أبلي الأَبصار»
٣٥١	الفرق بين الضُّعائِي والشُّكَاثِي
٣٦٣	خاتمة التعليق

●●●●●

الفهرس التفصيلي

٥	مقدمة التحقيق .
٩	موجز ترجمة المصنف .
١٧	كتاب «تمييز المحظوظين عن المحرومين» .
١٩	سبب التأليف .
٢٠	وجوب فهم معاني القرآن على كل البشر عموماً وعلى المسلمين خصوصاً .
٢١	تقسيم الناس إلى المحظوظين والمحرومين .
٢٥	فصل : الآيات والخطابات القرآنية الموجهة إلى عامة البشر .
٢٥	تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ . . .﴾ الآية .
٢٥	معنى الرب والتربية .
٢٧	الإنسان أهل للتعليم والتعليم والخلافة في الأرض، فإذا ضيع ؛ صار من المحرومين .
٢٨	معنى الحرية والعدالة والمساواة .
٢٩	اتخاذ الأنداد، والاعتماد على غير الله ، وحقيقة الحرية والتوحيد .
٣١	تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طيباً . . .﴾ الآية .
٣٢	دسائس الشيطان وخطورته وما يجب على ملوك المسلمين .
٣٤	تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ . . .﴾ الآية .
٣٦	تفسير: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ . . .﴾ الآية .
٣٨	تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْراً لَكُمْ . . .﴾ الآية .
٣٩	فهم رجل من النصارى معنى القرآن ، ودخوله في الإسلام ، وحكايته في ذلك .
٤٠	تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مبيناً﴾ .
٤١	معنى : الإله ، والعبادة ، واتخاذ بعض الناس أرباباً من دون الله .
٤٣	تفسير: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِشاً . . .﴾ الآية .
٤٥	تفسير: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ . . .﴾ الآية .
٤٦	تفسير: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا . . .﴾

٧١ تفسير: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا للنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية.

٧٢ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاتَّقُوا يَوْمَ لَا يُجْزَى الْوَدْعُ عَنْ وَلَدِهِ...﴾ الآية.

٧٣ إن الدجالين يعتقدون أن الرسول ﷺ يعلم الغيب.

٧٤ تفسير: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٧٤ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية.

٧٥ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾.

٧٦ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

٧٧ تفسير: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

٧٨ تفسير: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٧٩ تفسير: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اعْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ...﴾ الآية.

٨٠ تفسير: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

٨١ تفسير: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّ كَرهًا وَوَضَعَتْهُ كَرهًا...﴾ الآية.

٨٢ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾ الآية.

٨٥ تفسير: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ... وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٨٦ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسُوِّك...﴾ الآية.

٨٧ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾.

٨٨ تفسير: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ... خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ...﴾ الآيات.

٨٩ الحد الفاصل بين الإنسان والحيوان، وكم من متعاقل ليس له إيمان.

٩٣ فصل: في بيان الآيات الموجهة إلى المؤمنين.

٩٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا...﴾ الآية.

٩٥ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

الآية.

٤٨ حكاية الأطباء.

٤٩ تفسير: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِذَا يَأْتَيْتَكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَفْصَحُ عَلَيْكُمْ آيَاتِي...﴾ الآية.

٥٠ تفسير: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا... الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية.

٥١ إن أبا مسلم الخراساني منع الناس عن تعلم العربية.

٥٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا يَغْنَبُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ الآية.

٥٦ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ...﴾ الآية.

٥٩ تفسير: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية.

٦١ تفسير: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اعْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ...﴾ الآية.

٦١ تفسير: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِتْنَا...﴾ الآية.

٦٢ تفسير: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ...﴾ الآية.

٦٣ تفسير: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٦٥ تفسير: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

٦٦ تفسير: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

٦٨ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

٦٩ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تَرَابٍ...﴾ الآية.

٦٩ تفسير: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾.

٧٠ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِثْلُ فَاسْتَمَعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ...﴾ الآية.

١٢٥ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرْدُوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...﴾ الآية.

١٢٥ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية.

١٢٧ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

١٢٩ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا نِسَاءَ كُرْهًا وَلَا تَعْضِلُوهُنَّ...﴾ الآية.

١٣٠ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ...﴾ الآية.

١٣١ ومن الأكل بالباطل الغصب والغش والسرقة والخداع والرشوة ونحوها.

١٣٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرِبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾ الآية.

١٣٤ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾ الآية.

١٣٥ من المراد بـ ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾ المأمور باتباعهم.

١٣٧ المسائل الدينية لا ينبغي أن يكون فيها تفرق واختلاف.

١٣٨ الأسف على حال المسلمين الذين جمدوا على التقليد على كتب المتأخرين.

١٤٠ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حُلُومَكُمْ فَانْفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾.

١٤١ بيان فنون الحرب في كل زمان ومكان والقتلة الذرية المهلكة.

١٤٢ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتِينُوا وَلَا تَقُولُوا...﴾ الآية.

١٤٤ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ...﴾ الآية.

١٤٧ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ...﴾ الآية.

١٤٩ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية.

١٥٠ من وإلى من ملوك المسلمين ملوك الكفار ندم آخر وأذل ولا محالة.

٩٦ معنى الصبر، وتحقيق ما يتعلق به، وسرّ قرنه بالصلاة.

٩٨ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ...﴾ الآية.

٩٩ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرِّ بِالْحَرِّ...﴾ الآية.

١٠١ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ الآية.

١٠٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطراتِ الشَّيْطَانِ...﴾ الآية.

١٠٦ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ...﴾ الآية.

١٠٨ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَرْءِ وَالْأَذَى...﴾ الآية.

١٠٨ الإنفاق في سبيل الله أشق الأمور على النفوس، وبيان المن والأذى.

١١٠ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ...﴾ الآية.

١١١ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

١١٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ...﴾ الآية.

١١٣ قد أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى نظام المدنية العليا لحفظ الحقوق، ولكن الأسف أن المسلمين محرومون عن هذه المروية الإنسانية والكمالات المدنية.

١١٧ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرْدُوكُمْ...﴾ الآية.

١١٨ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنْ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ واعتصموا...﴾ الآية.

١١٩ الاجتماع على الاعتصام بكتاب الله يوجب الوحدة والقوة، ومن حاد عنه، هلك.

١٢١ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا...﴾ الآية.

١٢٢ سبب عز الدولة وقوتها: الاعتصام بكتاب الله، وسبب ضعفها وسقوطها: الاعتماد على الأجانب.

١٢٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ...﴾ الآية.

١٥١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام...﴾ الآية .

١٥٣ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام...﴾ الآية .

١٥٤ من لم يسر على سنن الله في الكون هلك لا محالة .

١٥٦ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم...﴾ الآية .

١٥٧ الصلاة الحقيقية تظهر الروح كما يظهر الماء الصافي الظاهر .

١٥٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا فرامين لله شهداء بالقسط...﴾ الآية .

١٥٩ العدل سبب نمو الدولة والسعادة والظلم سبب الخراب والمذلة .

١٦٠ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم...﴾ الآية .

١٦٢ قصة هذا الفقير في بلاد فرغانة وحفظ الله إياه من القتل .

١٦٣ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة...﴾ الآية .

١٦٤ بيان الوسيلة الشرعية وأنها أحدها الدجالون في القرون المتأخرة .

١٦٦ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء...﴾ الآية .

١٦٨ أسراء المستعمرين الأجانب بلاد عظيم على أمتهن .

١٦٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله...﴾ الآية .

١٧١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً...﴾ الآية .

١٧٢ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم...﴾ الآية .

١٧٣ من البدع الشركية التعبد بترك الطيبات وتعذيب النفس .

١٧٥ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام...﴾ الآية .

١٧٩ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم...﴾ الآية .

١٨٠ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم...﴾ الآية .

١٨١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم...﴾ الآية .

١٨٣ لا يجوز التنطع في الدين، ولا الزيادة على نصوص الشارع .

١٨٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم...﴾ الآية .

١٨٧ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت...﴾ الآية .

١٨٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار...﴾ الآية .

الآية .

١٩٠ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون...﴾ الآية .

١٩١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم...﴾ الآية .

١٩٢ ﴿إن الله يحول بين العزم وقليه﴾، وهذا أخوف ما يخافه العبد المتقي .

١٩٥ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم...﴾ الآية .

١٩٧ علامات المنافق، وفتنة الأموال والأولاد .

١٩٩ خيانة الوزراء تسقط الدولة .

١٩٩ قصة أبي لبابة وحاطب بن أبي بلتعة .

٢٠٢ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم...﴾ الآية .

٢٠٣ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا وذكروا الله كثيراً...﴾ الآية .

٢٠٥ منذ تفرق المسلمون وأخذوا المذاهب والطرق، تلاشوا وتشتتوا .

٢٠٦ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استجبوا الكفر...﴾ الآية .

٢٠٧ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد...﴾ الآية .

٢٠٨ عدم جواز سكنى الكافر في الحرمين وجزيرة العرب .

٢١٠ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان...﴾ الآية .

٢١١ ما يأخذه القضاة من الرشوة وتأخذه سدة القبور والمشاهد .

٢١٣ طريق صدّ الأحبار والرهبان عن الإسلام الصحيح والدين القويم .

٢١٦ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قتل لكم انتموا في سبيل الله...﴾ الآية .

٢١٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين...﴾ الآية .

٢٢٠ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا...﴾ الآية .

٢٢١ انعكاس حال المسلمين في تواضعهم للكفار وعظمتهم للمؤمنين .

٢٢٣ تفسير: ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة...﴾ الآية .

٢٢٤ تفسير: ﴿قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم...﴾ الآية .

٢٢٦ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم...﴾ الآية .

٢٢٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان . . .﴾ الآية .

٢٢٩ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها. . .﴾ الآية .

٢٣١ تفسير: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم . . .﴾ الآية .

٢٣٣ تفسير: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن . . .﴾ الآية .

٢٣٦ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات . . .﴾ الآية .

٢٣٧ تفسير: ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإني فاعيدون﴾ .

٢٣٩ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذا جاءكم جنود فارسنا عليهم . . .﴾ الآية .

٢٤١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً . وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ .

٢٤٢ الذكر نوعان : بالقلب واللسان، وأدكار صوفية الزمان وأربطتهم . . . إلخ .

٢٤٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن . . .﴾ الآية .

٢٤٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام . . .﴾ الآية .

٢٤٦ تفسير: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ .

٢٥٣ بيان الصلوات والأحزاب المتبدعة كـ «دلائل الخيرات» وصلوات الشتاء . . . إلخ .

٢٥٣ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آتوا موسى فبرأه الله مما قالوا . . .﴾ الآية .

٢٥٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً . يصلح لكم . . .﴾ الآية .

٢٥٥ تفسير: ﴿قتل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة . . .﴾ الآية .

٢٥٦ الترغيب إلى الهجرة من دار الشرك إلى دار الإيمان لحفظ الدين والإيمان ، وحال بعض المهاجرين في مكة .

٢٥٨ تفسير: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . . .﴾

الآية .

٢٥٩ تفسير: ﴿فسر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . . .﴾ الآية .

٢٦٠ تفسير: ﴿يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . . .﴾ الآية .

٢٦١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ .

٢٦١ مخالفة المتأخرين لأمر الله ، وحرمانهم من نصر الله ، وبيان دجل الدجالين .

٢٦٢ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ .

٢٦٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم﴾ .

٢٦٥ مبنى العبادات على الاتباع ، وصوم يوم الشك، وما ينفرع عليه .

٢٦٧ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول . . .﴾ الآية .

٢٦٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بتيه فتيبوا أن تصيبوا قوماً . . .﴾ الآية .

٢٧١ تفسير: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾ .

٢٧٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم . . .﴾ الآية .

٢٧٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا . . .﴾ الآية .

٢٨١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته . . .﴾ الآية .

٢٨٣ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيت فلا تناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول . . .﴾ الآية .

٢٨٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا ففسح الله لكم . . .﴾ الآية .

٢٨٧ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة . . .﴾ الآية .

٢٨٩ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لعد واتقوا الله . . .﴾ الآية .

٣١٥	٤	الآية .
٣١٦	٣١٥	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توباً نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم...﴾ الآية .
٣١٨	٣١٦	التوبة من حقوق الأدمي تكون برد هذه الحقوق إلى أربابها، وبيان التوبة الصحيحة المنتجة النافعة.
٣١٨	٣١٨	سرّ الخطاب والنداء ب : ﴿يا أيها الناس﴾ و﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ؛ دون : (يا أيها العلماء) ، (يا أيها السادات) .
٣١٨	٣٢١	الذين لا يفهمون القرآن كأنهم قد مسخروا عن الإنسانية فصاروا من المحرومين .
٣٢١	٣٢٣	فصل : القرآن لا ينفع المسلمين ، بل هو حجة عليهم ، وذلك إذا لم يعملوا به ، فحالهم في ذلك حال اليهود والنصارى .
٣٢٣	٣٢٤	فصل : إن الأمة إذا تركت العمل بكتاب الله المنزل قست قلوبها فصارت ملعونة .
٣٢٤	٣٢٥	سبب ذهاب الدولة عن المسلمين : اغتزارهم بمجرد تلاوة القرآن من غير فهم وتفهم والعمل بمقتضاه .
٣٢٥	٣٢٧	فصل : بيان الأحاديث الواردة في لزوم فهم معنى القرآن والعمل به .
٣٢٧	٣٢٨	الحديث الأول : «طلب العلم فريضة على كل مسلم...» الحديث .
٣٢٨	٣٢٩	الحديث الثاني : «تعلموا الفرائض والقرآن، وعلموها...» الحديث .
٣٢٩	٣٣٠	الحديث الثالث : «تعلموا القرآن، وقرؤوه...» الحديث .
٣٣٠	٣٣٣	الحديث الرابع : «تعلموا ؛ إنما العلم بالتعلم...» الحديث .
٣٣٣	٣٣٤	الحديث الخامس : «يوثق أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه...» الحديث .
٣٣٤	٣٣٤	الحديث السادس : «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي...» الحديث .
٣٣٤	٣٣٦	الحديث السابع : «... فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» .
٣٣٦	٣٣٨	الحديث الثامن : «أعربوا الكلام ؛ كي تعربوا القرآن» .
٣٣٨	٣٣٩	الحديث التاسع : «لا يؤمن أحدكم ؛ حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» .
٣٣٩	٣٣٩	الحديث العاشر : «من تعلم كتاب الله ، ثم اتبع ما فيه...» الحديث .
٣٣٩	٣٣٩	الحديث الحادي عشر : «من يرد الله به خيراً ؛ يفقهه في الدين...» الحديث .
٣٣٩	٣٣٩	الحديث الثاني عشر : «كان النبي ﷺ إذا تكلم بكلمة ؛ أعادها ثلاثاً...»

٢٩١	٢٩١	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق...﴾ الآية .
٢٩٢	٢٩٢	مولاء الكفار والمشركين والقبوريين غير جائزة .
٢٩٣	٢٩٣	الحب في الله والبغض في الله .
٢٩٣	٢٩٥	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنوهن...﴾ الآية .
٢٩٥	٢٩٦	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يفسدوا من الآخرة...﴾ الآية .
٢٩٦	٢٩٨	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا...﴾ الآية .
٢٩٨	٣٠٠	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله...﴾ الآيات .
٣٠٠	٣٠١	الخلف قد خالفوا السلف ، ولم يعملوا بموجب الإيمان ، فجوزوا بالخذلان .
٣٠١	٣٠٢	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين...﴾ الآية .
٣٠٢	٣٠٤	قد اختلفت هذه الأمة كما اختلفت بنو إسرائيل إلى مذاهب وطرائق شتى .
٣٠٤	٣٠٥	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة فاسمعوا إلى ذكر الله...﴾ الآية .
٣٠٥	٣٠٧	قصة من لا يحضر لصلاة الجمعة ، ولكن يمشي إلى زيارة قبر ابن عباس ، ويستمد منه الإعانة .
٣٠٧	٣٠٩	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله...﴾ الآية .
٣٠٩	٣١١	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدو لكم فاحذروهم...﴾ الآية .
٣١١	٣١٣	تفسير: ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكراً...﴾ الآية .
٣١٣	٣١٣	تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا قرا أنفسكم وأهلكم نارا وقودها الناس والحجارة...﴾

الحديث .	
الحديث الثالث عشر: وفقه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد .	٣٤٠
فصل: أقوال الصحابة والتابعين في لزوم فهم معاني القرآن والحديث .	٣٤٣
فصل: أقوال علماء الفقه وأصوله في لزوم فهم معاني القرآن والحديث الخاتمة .	٣٤٩
فهرس الأحاديث على الترتيب الهجائي .	٣٦٥
فهرس فوائد التعليقات .	٣٧٢
الفهرس التفصيلي .	٣٧٥

